Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنيس منصور

هموم هذا الزمان

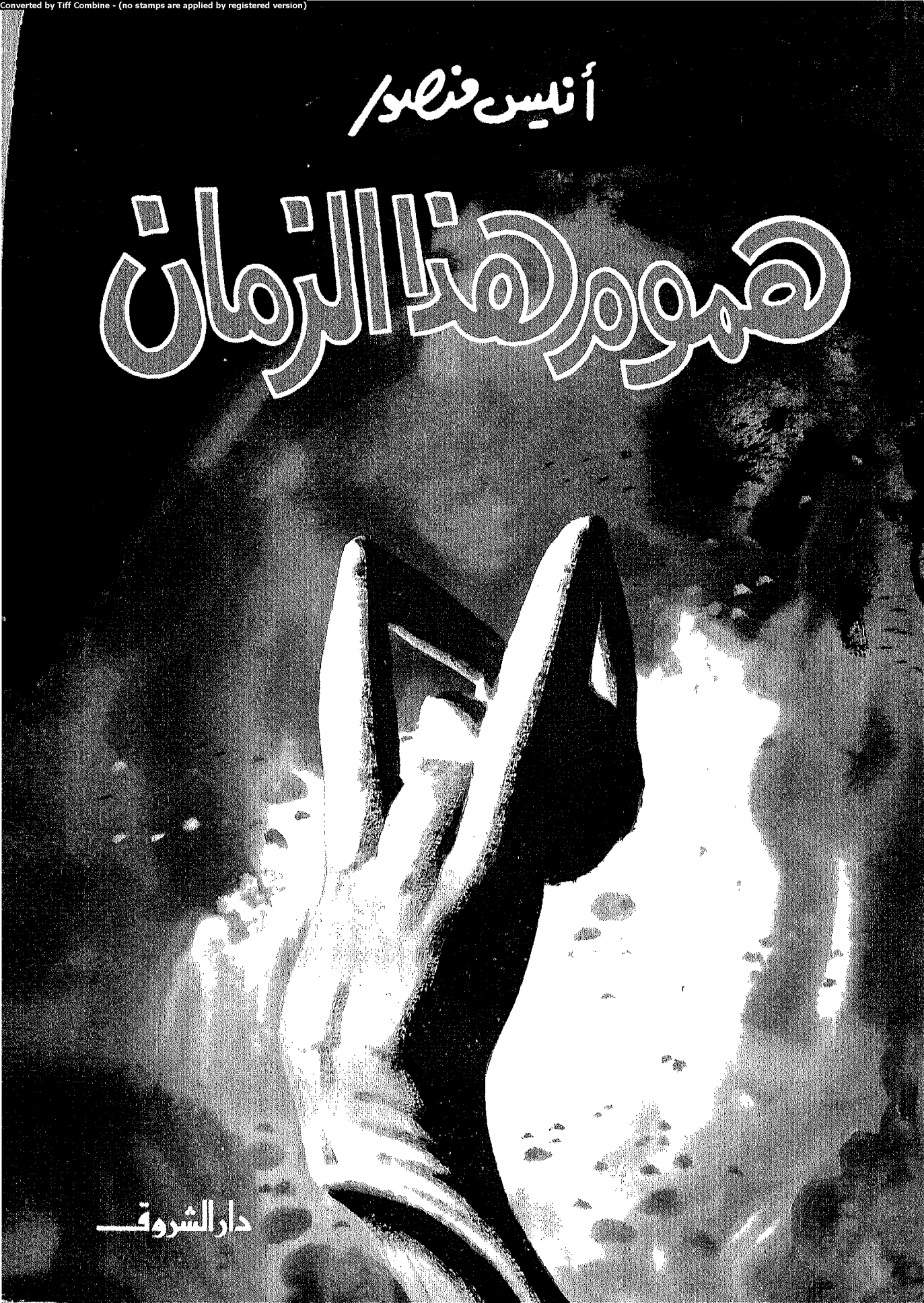

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هموم هذا الزمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
الطبعة الثانية
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنيس منصور

هموم هذا الزمان

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجريف الحاضر لبناء الماضى : مأساة!

- هل نقول عليه العوض ؟
- نعم . قلها ولا تخف !

فقد ضاع الكثير . ولا عوض إلا فى وجه الله . أما الذى ضاع ، فهو « النظرية الفلسفية » أى الرؤية لحياتنا .. كيف نفكر كيف نعمل ... كيف ننجو من الخسائر المتلاحقة .

- هل نعلن افلاس الفلسفة السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى يجب أن نعيش وفقا لها ؟ هل نقول أننا استنفدنا عدد مرات الرسوب .. ولذلك يجب أن نبحث لنا عن مكان آخر تحت الشمس أو تحت الأرض أو عن طريق آخر .. أو عن نظرية أخرى !*
- نعم . قلها ولا تخف !

فما الذى أضاع من أقدامنا الطريق .. ما الذى أضاعنا من أنفسنا ؟ إنه فهمنا الخاطىء للتاريخ ..

فالتاريخ هو مسرح الإرادة الإنسانية من أجل أن نتحرر من الخوف والجوع والمرض والجهل والظلم .. من أجل المزيد من الحرية ..

ولكننا أوقفنا التاريخ . جعلناه الماضى فقط . فلا حاضر ولا مستقبل . واخترنا من الماضى أتعس مافيه .. واستوقفنا التعاسة وأقمنا مناحة كبرى على الذى أصابنا .. فهل ذهبنا إلى ما بعد النكسة العسكرية ؟ نعم قليلا جدا .. فقط لكى نراها أوضح ، ثم نعود اليها نبكى الذى كان والذى ما يزال يهد كيان مصر من أولها لآخرها .. فاقمنا السرادقات نتلقى فيها العزاء .. نعزى أنفسنا فى أنفسنا .. نمد اليد اليمنى نشد على اليد اليسرى .. نطوى عقولنا على قلوبنا ونقول : منه لله الذى كان السبب .. ولا يزال السبب !

وأمام النكسة العسكرية التى امتصت حاضرنا عشرين عاما وعشرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخرى سوف تجيء .

استراح بعض الناس فقد وجدوا ينبوعا لا يجف من الحزن والآسى .. وعذرا قويا لأن يتوقف كل شيء عن الحركة .. فقد سقطنا جميعا فى مستنقع الهوان والذل والشلل . أصبحنا مثل سفن « ألف ليلة وليلة » التى شهدتها جزيرة المغناطيس .. فسحبت مساميرها واعوادها الحديدية .. فإذا هى ألواح خشبية .. وإذا قادة السفينة وملاحوها مثل ركابها غرقى فى بحر الدموع !

واستراح دراويش النكسة العسكرية إلى التفاف الناس حولهم والبكاء فى حلبات الذكر .. واذا بهم يقدسون أبطال النكسة القادرين على توحيد الأمة المصرية والأمم العربية فى يونيفورم اسود .. فى فعل واحد هو البكاء .. ورد فعل واحد هو محاربة كل من يحاول سحبهم من الحداد الأبدى وضرب النفس بالجزمة .. والدراويش يرون فى هذه القدرة الفذة على توحيد الزى وأداء نشيد قومى وهتاف واحد : بالروح والدم نفديك ياجمال .. بغبغانات تفدى من قتل مئات الألوف وشرد مئات الألوف ومحا حاضر ومستقبل مصر وجعل ماضينا ممتدا .. وأوقف التاريخ وهدم المسرح والمعبد على رؤوسنا كشمشون الجبار .. ومثل رومولوس العظيم آخر أباطرة روما الذى قرر أن يصفى الجيش وأن يحاكم الامبراطورية وأن يدينها ، وأن يدخل الشعب كله فى قفص الاتهام لماذا ؟ لأنه قرر أن يحاكم الناس وأن يدين التاريخ قبل أن يحاكموه ويحكموا عليه !

ثم إننا أوقفنا التاريخ مرة أخرى عندما صدقنا ما قاله عبد الناصر من أنه اشتراكى ، وأن اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا ـ أى أنها شيء جديد لم نعرفه ولم يجربه أحد من قبل . كيف ؟ اسألوه .

وجاء من بعده السادات يبحث عن ذاتنا .. فاستعصى عليه أن يفلت من الاشتراكية الذاتية ، أو أن يجد هذا الذات .. حتى انتصارات اكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تفلح بكل عظمتها وجلالها أن تهون علينا الهزيمة .. وانما جاءت مثل جاكته جديدة أنيقة على جسد مقطع الذراعين .. إنها تسترت على الخسارة الفادحة ، ولم تعوضنا عنها !

أحسن ما قيل فى هذا المعنى ما قاله توفيق الحكيم عندما سألته ونحن فى جنازة ولده الوحيد : وكيف حالك ياسيدى ؟

قال الحكيم ، وهو حكيم فعلا : ولا حاجة .. إنها عاهة أصابتني ، وسوف أعيش بها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت نكسة سنة ١٩٦٧ عاهة مصر ولا نزال نعيش بها .. وإن كانت هذه العاهة لاتزال أكبر منا ، بل نحن عاهة نعيش بها هذه النكسة .. فهى لاتزال الأقوى !

ومما يؤسف حقا أن العسكريين قد اعتصموا بالصمت . عن تصحيح الاخطاء أو توضيح الحقائق . هل لأنهم لا يقدرون ؟ هل لأنه لا يصح لهم أن يقولوا شيئا .. هل لأن عندهم قانونا يمنعهم من الخوض فى السياسة ؟ وكلها أعذار .. فليس أسهل من أن يعطوا المادة العلمية والتاريخية لاى كاتب أو مؤرخ فيروى لنا ما هو صحيح .. وينفى عن حاضرنا ما هو كذب وتضليل وتهويش وتخريف ووثنية !

ثم إن قادة اسرائيل جميعا قد كتبوا مذكراتهم وأوضحوا وفضحونا فى كل اللغات .. أما نحن فالعسكريون لا ينطقون وهواة التاريخ ودراويش النكسة يكتبون ويكذبون ويقدسون الخطيئة الأولى فى عصرنا الحديث . وضاع الماضى وضاع الحاضر وارتبكت عقول الشباب بين الذى يصدقونه وبين الذى لا يصدقون .. وضلت عقول وقلوب الشباب .. فقد تكومت أمامها الأحجار وامتدت أيديها الى الأحجار تريد أن ترجم عبد الناصر أو منظمة التحرير الفلسطينية أو اسرائيل .. أو القومية العربية ـ أما السادات فقد اغتالوه .. والأحجار لاتزال فى كل مكان والملايين تبحث عن ابليس الأمة العربية .. بعضهم أضاف احجارا إلى الأحجار .. وبعضهم صعد فوق الأحجار وألقى بنفسه من فوق عاجزا عن الفهم .. فبدلا من أن يقتلوا القاتل وانبياءه الكاذبين ، قتلوا أنفسهم !

هل ترى فداحة الخسارة ؟

لقد خسرنا أجيالا من الشباب .. كلهم حيوية وأمل وإرادة وشجاعة مستعدون لأن يصنعوا تاريخا . ولكن عندما أخذوا الطريق ولم يجدوا الطريقة .. أو وجدوا الطريقة ولم يجدوا سيقانهم .. أما عيونهم فلم تعد ترى ، فمن كثرة الظلام فقدت وظيفتها .. وعقولهم من كثرة الضباب لم تعد تفكر .. أما قلوبهم فمن نقص الحياة تحولت الى حجر ..

أرأيت الذى أصابنا ؟ لقد تحولت ساحاتنا وحقولنا ومعاهدنا الى ما أصاب مدينة « بومبيى » الايطالية .. ثار عليها البركان وألقى عليها الحمم . فكانت نوعا من الصمغ القاتل .. فتجمد كل الناس فى مواقعهم ، فكانت لوحة صارخة بارزة للموت الرهيب .. أما الرسام الحقيقى فقد نسى أن يوقع على لوحته ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكننا نعرفه إنه البكباشى أركان الحرب جمال عبد الناصر حسين .. الشهير بناصر ..

إذن لقد آمنا إيمانا مطلقا بأننا انهزمنا . ولكن المصيبة أننا ذهبنا الى أبعد من ذلك فقد آمنا بأننا مهزومون .. لامرة واحدة ولكن ألف ألف مرة .. لافى الماضى ولكن فى الحاضر والمستقبل أيضا .. فنحن الهزيمة . وهذا الايمان جعلنا لا نساهم بشىء فى شىء . ولا نريد . لقد حررنا أنفسنا من مؤهلات العمل ، وحيثيات الحياة ، ومسوغات التعيين أعضاء عاملين فى المسرح المتحرك العائم القائم الدائرى الذى اسمه التاريخ !

وفى نفس الوقت تسلطت علينا هذه السلبية المطلقة حين رفضنا الواقع المصرى والواقع العربى والواقع الدولى .. رفضنا كل محاولة لانتشالنا من وهدة الفشل والاحباط واليأس .. رفضنا أن يكون لنا دور .. أو أن نستأنف دورنا فى إلقاء أطواق النجاة للأجيال القادمة .. فى إقامة الجسور واضاءة الطريق والتوزيع الموسيقى لبناة المستقبل ..

شىء خطير قد حدث كنوع من الرفض والانسحاب والهروب : فبدلا من أن يقف الناس امام غول الهوان العسكرى والذل النفسى واقامة حائط للصواريخ للتيارات المعادية وتنشيط المضادات الحيوية للموت القومى ، فقد انفرط الناس .. تفككوا .. تكوروا .. داروا حول أنفسهم بعيدا .. كل واحد فى نفسه .. كل واحد لنفسه .. يا الله نفسى .. يا روح ما بعدك روح .. وأنا مالى ـ « وأنا ماليزم » : هذه هى النظرية الجديدة فى مصر ! وعند شباب العالم كل واحد قفز من السفينة .. سابحا الى الشاطىء .. الشاطىء الحقيقى أو الشاطىء الوهمى .. المهم انه قرر أن ينجو بنفسه .. فهو يعيش لنفسه ، ويموت فى نفسه !

وأصبحت علاقة الناس بالناس هى أن يتقاربوا فى حذر .. وأن يتباعدوا فى راحة .. وإذا تقاربوا فلكى يخطفوا ويجروا .. وكل واحد يخطف اللقمة والقرش والمقعد .. وإذا استطاع فانه يخطف انفاس الأخرين ، ويسحب الأوكسجين من هوائهم وكريات الدم من عروقهم .. ويسرق جهاز المناعة ليعيش ويموتوا .. المهم أن يعيش وحده على خرائب الآخرين !

حتى تكون الجمعيات والاتحادات والشلل الصغيرة ، ليس سببها أن الانسان لا يستطيع أن يعيش وحده بالآخرين ومعهم وضدهم ، وإنما سبب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه التكوينات الصغيرة ليس إلا تضخيما للفرد .. تعاظما للأنا فى مواجهة الادارة والمؤسسة والسلطة والحكومة والدولة .. وليست هذه الجمعيات إلا دعوة عامة لأن تتفكك كل المؤسسات إلى شركات صغيرة .. إلى شرائم .. إلى عصابات .. تواجه الدولة وتعارضها وتعتدى عليها .

ولكن يجب ألا نسىء فهم هذه الفردية الصاعدة .. أو هذه الانانية الاجتماعية .. أو هذه الذاتية النفسية .. هذه « الاناملیزم » فهى تدل على أن الفرد قوى .. وأنه متين .. قادر على أن يقوم بنوع من الحكم الذاتى .. فى مواجهة الدولة .. والحقيقة أنه اسوأ من ذلك كثيرا جدا ..

فمثلا : ما هذه الدروس الخصوصية فى المدارس والجامعات .. لماذا هى حيوية ضرورية . بغيرها لانجاة ولانجاح ؟ لماذا هى أقوى من فقر الأب ، وصحة الأم ، وسلطان الدولة ؟

لسبب مهم جدا هو اننا قررنا .. أن يكون أطفالنا « عالة » .. علينا .. أن يظلوا أطفالا .. يرضعون ولا ينفطمون .. أن يظلوا عاجزين عن الاعتماد على اطرافهم ، ليبقوا مدى الحياة جالسين على حجر المدرس وصدر الأم .. مقعدين .. معوقين .. يمتصون مرتب الأب وعلاواته وحوافزه حتى يقترض ويرهن الدولاب والتليفزيون ومصوغات الأم والأخت ويمد يده إلى أيدى الآخرين !

والدولة لامانع عندها . فهى لاتستطيع أن تعطى لأى مدرس ألوف الجنيهات التى يبتزها من أولياء الأمور .

فالدروس الخصوصية هى علاوة يقبضها المدرسون من الطلبة .. والدروس الخصوصية هى « البوليو » شلل الأطفال الذى يصيب الشباب والرجال بالطفولة الدائمة .. بالكساح .. بالتواكل والسلبية .. حتى إذا تخرج الشباب فى الجامعة ظلوا مثل عرائس الريف ينتظرون ابن الحلال لكى يحملها على حصان أبيض من بيت أبيها إلى « بيت العدل » أى بيت الزوجية السعيدة .. فالشباب يتخرجون وينتظرون أن تعينهم الدولة فى غير تخصصهم . بعد أن يكونوا قد اشتركوا مع الدولة فى أكذوبة اسمها : الخدمة العامة .. فلا هى خدمة ولا هى عامة .. وإنما هى « الخدعة » العامة ..

الدولة تخدع الشباب ، والشباب يخدع نفسه بأنه قد عمل شيئا من أجل الدولة .. أو من أجل نفسه .. أى تهيئته لأن يكون عاملا ـ لاشىء من ذلك !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكأننا قررنا سرا : أنه لاعمل فى أى مجال .. ولكن لابد أن نملأ فراغا .. وأن يكون لهذا الفراغ اسم ورقم ودوسيه وكادر وأن يكون اسمه : العمل .. فكل واحد منا « عامل أنه يعمل » .. فالخدمة العامة » أصبحت مثل المسرحيات والأفلام .. أكذوبة اتفق عليها المؤلف والممثل والمتفرج .. أى أنها شىء ليس حقيقيا .. شىء لم يقع ..

ولكن الممثل سوف يجعلنا نشعر أنها قد حدثت وأنه سوف يهزنا بعنف حتى البكاء .. وبعد أن نبكى نصفق لبراعته وقدرته .. والخدمة العامة هى هذه المسرحية .. هى هذه الأكذوبة ولأنها ركيكة فأننا لانبكى ولا نصفق ! .

ففى الأفلام والمسرحيات يتزوج الممثلون وتكون زفة وراقصة وطبل وزمر .. ثم يكون الموت للعروسين فى حادث ـ وكل ذلك لم يحدث . ولكن استطاع المؤلف والممثل والمخرج أن يقنعنا بكل ذلك ـ فنصفق فى النهاية للذين ضحكوا علينا وأدخلونا فى حياتهم دون أن ندرى . ولكن « الخدمة العامة » هزيلة التأليف سيئة الاخراج .. ثم شبابنا هو الممثل والمتفرج على خيبته .. ملايين المرات !

★ ★ ★

أبشع من ذلك أن الشباب أحس فجأة أنه غريب عن أهله .. عن بلده أنه « لاينتمى » .. ولذلك فهو يقول : وأنا مالى ـ مع أن المال ماله ـ ويقول : وهل أنا الذى نكست الجيش ومصر كلها ، هل أنا الذى خربت البيوت وهدمت النفوس .. هل أنا الذى حبست الألوف وقتلت مئات الألوف وكدست الديون .. هل أنا الذى حذفت اللون الأبيض من علم مصر فإذا هو أسود دموى أو هو دم حزين .. أننا ورثة العار وأبناء الهوان .. أحفاد الخطيئة .. فمن هذا الذى يطلب منا أن نرتفع فوق الألم .. كيف .. إن الذين يطلبون من الشباب هذا التسامى .. هذا التنامى .. هذا التعامى .. لم يفلحوا هم أنفسهم فى أن يكفوا عن لطم الخدود وشق الجيوب ..

ولذلك فهم يقولون : وأنا مالى أعالج مريضا فى مراحله الأخيرة .. وأنا مالى أزرع أرضا حرثتها دبابات النكسة ودبابات النصر أيضا .. كيف أسدد ديون والد سكير وأم غانية .. أنهم لم يوفروا لنا القهوة السادة نشربها حدادا أبديا .. أين نجد لسانا يتذوق ، بعد أن ضاعت وظيفته كعضو ناطق بالألم .. كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ أين ؟

ولذلك أسند ملايين الشباب ظهورهم للحائط .. لسور المدرسة والجامعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمسجد .. ونظروا إلى مواكب الحياة فى مصر ، لايشاركون فيها !

قضية الشباب فى العالم كله واحدة .. لقد عزلوهم عن الحياة ، وعزلوهم عن المشاركة ، وأخفوهم فى بطون أمهاتهم وانتهزوا غيابهم فهدموا كل صروح الحضارة والإنسانية .. ومن هول الحرب وفداحة النكسات العسكرية فى كل مكان أجهضت الأمهات فكان هذا الجيل المبتسر الذى يجب أن ينمو بسرعة .. يقف يبنى الذى لم يهدمه .. يروى الذى لم يزرعه .. يحصد الشوك الذى لم يبذره .. وأن يبتسم من أجل الغد حتى يكون قادرا على صناعة المستقبل .. وتكفيرا لخطايا والديه ؟ ! كيف ؟ !

ولما تعددت النظريات والمذاهب وظهر الأنبياء الكاذبون .. والمسيخ الدجال فى السياسة والاقتصاد .. ولم يفهم الشباب شيئا لأن رؤوسهم أصغر من الأكاذيب الضخمة والاجتهادات الابهة . كانت الدروس الخصوصية فى الأحزاب والندوات والمؤتمرات الشعبية .. لابد من الدروس الخصوصية .. فقد اعتاد الناس ، ألا يفكروا ، وألا يدبروا .. فقد كان يهبط عليهم التفكير من فوق ، وينزل عليهم التدبير من فوق ايضا .. وبذلك يتأكد عجز الشباب عن الفعل ورد الفعل .. ويتأكد انه ليس له فى نفسه شىء ، ولا فى جسمه ولا فى إرادته ولا فى حياته ولا فى مستقبله ولا فى شهادة الميلاد .. فالكبار الذين يملأون له « خانات » الميلاد .. فيلدونه فى أى وقت ويجعلونه ذكرا وأنثى ، وشرعيا ولقيطا .. ثم يتفاءلون به ويدعونه هو الآخر إلى أن يتفاءل ..!

وبعد ذلك نتقاذف التهم .. نحن نقول إن الشباب متطرف .. أى انه يقف على طرف بعيد عنا .. ومن حق الشباب هو الآخر أن يقول إننا نحن الكبار متطرفون أيضا ، ولنفس السبب .. فنحن نقف على طرف بعيدا منه .. ولكننا الكبار نملك وسائل ادانته فى الاذاعة والتليفزيون والصحف وعلى المنابر وهو لا يملك إلا أن يشكونا الى الله .. يدعو .. ويستعدى علينا عدالة السماء .

ولما تعددت الكتب المقدسة فى أيدينا .. اناجيل عبد الناصر ومزامير السادات .. وخطب حسن البنا « وكاستات الخومينى » وبروتوكولات ماركس ، تساقط الشباب ساجدين أمام الكتاب الواحد الأوحد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ..

ولما تعددت الزعامات المشروخة والانبياء النصابون وقف الشباب طابورا حول الشخص الواحد الذى هو على خلق عظيم ، الذى هو خاتم الانبياء وسيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرسلين .. ولما ضاق الشباب بنفسه ، وضاق الذين حوله به ، احتشدوا .. فى المكان الواحد .. أنبل وأشرف مكان فى قبلة واحدة ، يدعون ربهم خوفا وطمعا مهاجرين إلى الله ، كافرين بهذه الامشاج من الناس فى البيت والمدرسة والحزب !

★ ★ ★

وأفظع من كل ذلك أن لديهم شعورا بالنهاية نهاية القرن .. نهاية الطريق .. نهاية الحياة .. بأن القيامة سوف تقوم .. وكأن هؤلاء الشبان لم يكفهم ما يلقون من عناء وعنت ، فانهم راحوا يستعدون للعذاب بالقراءة عنه .. فانتشرت كتب عذاب القبر والعذاب فى عرصات القيامة .. وعذاب البعث والنشور .. وعذاب الصراط المستقيم .. ونسوا أن يقرأوا عن الجنة والسعادة فيها وعن الراحة السامية « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلاماً سلاماً » .. ولكن احدا لم يكتب عن الجنة . كأنه لا جنة .. وانما عذاب مقيم .. كأن العذاب هو نصيبهم فى الدنيا والآخرة .. اليسوا شبابا ؟

انهم مثل الذين وقفوا فى المحطة فى انتظار آخر اتوبيس .. قلقون .. يتزاحمون .. يتضاربون .. يدوس بعضهم بعضا .. يحشرون أنفسهم فى أضيق باب .. آخر فرصة .. ولذلك فهم لم يفهموا شيئا .. فقط انتظروا .. أحرقوا أعصابهم .. دماءهم .. لم يأكلوا لم يشربوا .. لم يفكروا . أحيانا يتوهمون انه آخر اتوبيس .. ويتوهمون انه جاء .. وانهم وجدوا مقعدا .. فإذا جاء مات بعضهم من الفرحة .. ومات بعضهم من الزحام .. والسائق هو الآخر يريد أن يفرغ من هذه الشحنة الثقيلة .. فلا يتوقف .. وهو لا يسمع الصرخات .. يسابق السيارات ويصطدم بها ويدوس الناس .. فالكل يجرى .. يسابق .. ينهش .. يلعن .. يصرخ .. إنها النهاية .. نهاية كل شىء .. وليس بعد ذلك أى شىء !

فكل شىء مخيف .. واذا لم يجد الناس ما يخيفهم فانهم يخترعون المخاوف .. يضعونها ويبكون أمامها .. لقد اخترعنا الموت الذرى ورحنا نلعنه .. اخترعنا التلوث وجعلنا نفزع منه .. اخترعنا الامراض فى دمائنا ونحاول التخلص من دمائنا وجلودنا .. نقلنا الخوف من خارجنا الى داخلنا .. لقد اسكنا الموت فى عروقنا ، ونعمل جاهدين على اخراج الموت لكى نحاربه فى ساحات القتال .

ولكن الشعور بالنهاية يتعمق عند الشباب فهم على يقين من أن الموت قادم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من داخلهم ومن خارجهم .. قادم لا محالة .. وكما ان الفلكيين يتوقعون نهاية الحياة بأن تقترب الارض من الشمس فتحترق ، او تبتعد الأرض عن الشمس فنموت من البرد .. فالموت حارا أو باردا قادم لا محالة . ولذلك يجب أن يعيش الشباب ، فى حالة انتظار للنهاية .. وانتظار الموت هو موت يسبق الموت !

* * *

أفدح من ذلك أن يشعر الشباب بتفاهتهم .. فراغهم .. خوائهم بأنهم قد افرغوا الحياة من المعنى والدور .. تماما كما أن حاضرهم قد افرغ من المستقبل .. فالحاضر ماض قريب ، والماضى حاضر بعيد ..

بل أن لديهم شعورا بتآكل المستقبل .. خائفون .. مضيعون .. مبددون .. شظايا .. شظاياهم ..

أما وسائل النجاةالمزيفة فهى البطولات الوهمية السينمائية والمسرحية .. ففى الأفلام يجدون قصصا رائعة وقصورا .. وحياة سهلة .. ومسارا منطقيا لكل الأحداث .. وله بداية ونهاية سعيدة .. يعيشون هذا الكذب الجميل ، ويتعلقون بالأبطال الخرافيين والخرافات .. ويجدون فى هذه المعايشة نوعا من التعويض ،، هذا التعويض النفسى والمادى ساعة أو ساعتين .. وبعد ذلك يعودون إلى حياة النهاية .. أو نهاية الحياة أو انتظار لفرج أو التفريج الذى يجىء فيبعدهم عن كل شىء .. فى انتظار موت هذا الزمان ..

أو بالمخدرات التى تحقق لهم ما هو اروع وابدع واهدأ من كل ذلك .. فإذا لم يجدوا المخدرات ، أراقوا الدماء من أجل الحصول عليها.. فكأنهم عندما كرهوا النكسة العسكرية وكرهوا الضحايا واستنكروا الدم ، كان لابد من دماء المدنيين لكى ينسوا بها دماء العسكريين !

ما الذى يريدونه ؟ ما هى آخر رغباتهم قبل النهاية ؟ . انهم يريدون أن يتركوا أثرا ، أى أثر ، بعدهم .. صرخة اهة ..بقعة دم .. انهم يمدون أيديهم إلى ما بعدهم ، ويلقون ظلالهم إلى ما وراءهم ..

هل هناك أمل ؟

نعم . كيف ؟

لا سبيل إلا أن نتوقف فورا عن « تجريف » الحاضر من أجل بناء الماضى !

٢ أغسطس ١٩٩٠ **أنيس منصور**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكننا لم نخرج من يونيو !

مجموعة من الشباب الألمان كتبوا مذكراتهم عن رحلة فى مصر فى العام الماضى . جعلوا مذكراتهم على شكل خطابات بعثوا بها الى أصدقائهم فى القاهرة والاقصر والاسكندرية والعلمين .. الكتاب عنوانه « وسوف نبقى أصدقاء » .. أى أنهم رغم النقد المرير لكل الذى لم يعجبهم فى مصر ، ستبقى الصداقة بينهم ولاداعى لأن أكرر مانعرفه جميعا عن النظافة ـ انعدام النظافة ـ والنظام والأخطاء الاملائية فى اللافتات الرسمية والأهلية .. وعن فوضى المرور وعن العمارات التى تنهار فور الانتهاء منها .. وعن الضوضاء والتلوث بكل أنواعه .. وعن ابشع منظر يراه انسان فى كليات مصر كلية الآداب جامعة القاهرة نموذج للقذارة .. الأرض والأبواب والنوافذ والسلالم والبوفيه ..

وقد اندهش أحد الطلبة الألمان عندما زار أحد زملائه من كلية الهندسة فقد لاحظ أن البالوعة مسدودة .. وأن هناك « ماسا » فى بعض الأسلاك .. وأدهشه أكثر أن يظل هو وصديقه يتحدثان عن هذا الخلل ، ثم لايفكر صديقه المصرى فى اصلاح شىء .. وانما استدعى شابا بجلباب أصلح البالوعة والسلك الكهربائى .. وأعطاه مبلغا من المال . وراح يشكو من ارتفاع أجور الاسطوات والعمال الفنيين الى أضعاف مايتقاضاه المهندس .. ثم الشكوى العامة من كل الأوضاع فى مصر والوجود الاسرائيلى فى قلب الأمة العربية .. أما الذى لم يفهمه الطالب الألمانى فهو أن زميله المصرى يستطيع أن يصلح البالوعة .. ويستطيع أن يصلح الأسلاك الكهربية وبمنتهى السهولة .

أما تعليقه على ذلك فهو أن العمل اليدوى لايزال غير محترم فى مصر . ولم يفهم الطالب الألمانى كيف يكون الإنسان مهندسا ثم لايستخدم يديه .. وما العيب فى أن تتسخ يداه ؟ لم يفهم !

ومعه حق . ولكن هناك سببا أهم من ذلك هو أن لدينا احساسا عاما بأن شيئا « يغرق » .. أو بأن كل شىء يغرق . وأنه لاأمل فى علاج او اصلاح . وأن المصريين يفضلون الشكوى والبكاء .. فنحن لانصلح البالوعة ولا الأسلاك وانما نأتى بمن يفعل ذلك وندفع له .. ثم نشكو من ارتفاع أجور الاسطوات ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبدلا من أن نصلحها نحن بأيدينا لتبقى أطول ، فاننا نختار من يصلحها بالفلوس ، ويبقى الاصلاح وقتا قصيرا فنشكو ونستدعيه وندفع ونشكو أكثر وأطول .. فكأننا نساعد السفينة على ان تغرق وتغرق ..

وأحيانا نرفض إصلاح الأشياء وإنما نتركها . لا لأن اصلاحها صعب .. ولكن لأن عدم اصلاح اى شيء « يتمشى » مع عدم اصلاح كل شيء فى الاقتصاد والسياسة والزراعة والتعليم .. فهناك شعور عام بأن كل شيء قد فسد ولا أمل فى اصلاح .. بل لاداعى للاصلاح .. فقد وصلت الأشياء الى أسوأ حالاتها .. وانما الأمل أصبح نوعا من الترف .. وننسى ان « غرق » كل شيء هو « غرق » لنا ايضا .. واذا اردنا أن ننجو فليس بالهرب من السفينة والقفز الى المحيط ، وانما باصلاحها معا حتى نبلغ اى شاطئ للأمان .. ونبدأ فى الاصلاح المكثف أو بناء جديد للسفينة وبناء لنفوس البحارة والقيادة والمسافرين !

وقد لاحظ الطلبة الألمان أن المصريين على درجة كبيرة من الغرور وأنهم سادة العالم وسادة العرب بصفة خاصة .. وأنهم لم ينهزموا فى كل الحروب مع اسرائيل !

والملحوظة صحيحة . ولكن لأسباب أخرى غير التى ذكروها . فهذا الغرور أو هذه النغمة الكاذبة ، سببها شعور عميق بالاحباط والفشل .. فالمصرى قد انسحب من المعارك الى داخل مدينته ، ومن المدينة الى داخل الأسرة ، ومن الأسرة الى داخل الذات .. فهو قابع فى داخله .. وعندما وجد نفسه مع نفسه أحس أنه فى أمان وأنه قوى .. وأنه عظيم .. وأنها لم تلد غيره .. أمه لم تلد غيره وكذلك اسرته ومدينته ومصر والأمة العربية .. فهو مثل مخمور وقع فى الوحل ويقول : أنا جدع ـ هو الذى يقول ، ولكننا لانراه

كذلك فهذه النفخة أو هذه « العظمة » هى نوع من التعويض دفعه لنفسه ، عن الاهانات الشخصية والعائلية والقومية التى لحقت بنا بعد النكسة العسكرية بصفة خاصة . ومازال يعانى هو وأولاده لأجيال قادمة ـ مالم نجد له حلا أو علاجا هو الحل ، او حلا هو العلاج !

وبعض الحيوانات والطيور تفعل ذلك .. فنجد أن الطائر عندما يتعرض للخطر فانه ينفخ ريشه ويشغل مساحة اكبر وتتطاول رجلاه وجناحاه وعنقه ومنقاره .. إن الخوف يدفعه الى التظاهر بأنه كبير قوى مخيف . والحقيقة أنه ليس كذلك . وانما يوهم غيره ونفسه بذلك !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذا الغرور وهذا الامتلاء بالذات والزهو ليس إلا فهما خاطئا للأشياء والعلاقات ـ فهم خاطئ لنفسه ولما حوله .

★ ★ ★

ولابد من هذه الأسطورة الاغريقية التى تساعدنا على فهم انفسنا : يقال ان شابا جميلا اسمه « نارسيس » .. أبدعت الآلهة فى صنعه .. وفى صنع أخت له جميلة جدا . ولسبب ما ماتت الأخت . وحزن الأخ عليها . وفى يوم جلس الى نبع من الماء فرأى صورة على الماء .. فظن ان الذى يراه فى الماء هو صورة « روح » هذا الينبوع .. أو هى صورة « الحورية » التى تحرسه .. أو هى صورته هو .. ولأنه شبيه بأخته ، فهو يرى فى صورته مايذكره بأخته .. وكلما حاول أن يمسك الصورة اهتز الماء ، واضطربت الصورة .. وظل يحاول وقد امتنع عن الطعام والنوم . ولما يئس قتل نفسه يأسا وحزنا ولما سقط جسمه فى الماء اختفى الجسم الجميل وظهرت زهرة النرجس ، بيضاء ناصعة وعليها موجات من اللون الأحمر .. وملأ عطرها المكان .. ومن تناثر الماء الى الشاطىء نبتت زهرات النرجس التى لاعطر لها ..

ولما جاءت أمه وأبوه واقاربه ينقلون الجثمان ليدفنوه فى مكان آخر ، لم يجدوا الا هذه الزهرة ..

وكانت الآلهة قد حذرت الأم من أن ينظر ابنها نارسيس ـ ومعناه نرجس ـ الى صورته فى الماء .. وسوف يطول عمره اذا لم ير نفسه . وقد أفلحت أمه فى ابعاده كثيرا عن الأنهار والمرايا حتى كبر ، ولكن عندما ماتت أخته ظل هائما يبحث عنها حتى وجدها فى صورته هو فى الماء !

وتقول اساطير الاغريق ايضا إن كل من يحمل اسم نرجس تحل به هذه اللعنة .. فقد كان للامبراطورة مساليننا سكرتير اسمه نرجس .. هذا السكرتير استولى عليها وعلى السطة ، ومازال يتسلط عليها حتى اقنع الحاشية بقتلها .. وقتلوها . وقد جاءت أختها ، فانتقمت فقتلته . أما جريمة نرجس هذا فهى انه كان يرى انه أحق الناس بالملك .. بل انه أول رجل فى التاريخ أعلن أنه لن يتزوج .. فهو الزوج والزوجة معا .. وعندما كان يحس بحاجته الى امرأة ، كان يرتدى ازياء النساء . وعندما كان يحس بأنه فى حاجة الى رجل كان يرتدى ملابس الرجال . وكان يقول : أنا فى حالة اكتفاء ذاتى .. إننى غنى عن الناس .. وعن كل شىء !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يقول : انا البداية والنهاية !

وهذه هى « النرجسية » .. اى الأنانية المطلقة .. أى عشق الانسان لذاته ، وكراهيته لغيره من الناس .. بل انه يرى الآخرين وسيلة يحقق بها رغباته .. أو أنهم « أداة » آلة .. وانه فاشل اذا اتصل بالآخرين .. ولذلك ليس أمامه إلا نفسه .. وإلا احساسه .. وإلا رغباته .. وارادته .. فهو لم يفلح فى التعامل او التوافق مع الآخرين ، فهرب منهم إلى نفسه .. وفى نفسه وجد الحضن الدافىء والكنز الذى لا ينفذ ..

والانسان ـ عادة ـ لايرتد إلى نفسه إلا فى اعقاب الهزات النفسية العنيفة .. فالنرجسية من مظاهر اضطراب الشخصية .. فالانسان ليس سويا اذا كان يتصور انه هو العالم .. أو وحده فى العالم ، وأنه يستطيع أن يفعل وأن يكون كل شىء بنفسه ودون حاجة الى أحد .. أو أنه لاأحد سواه !

فهل درسنا وحللنا وفهمنا ماذا أصاب المصريين من الزلزال العنيف الذى حدث فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعده حتى اليوم ؟

هل ذهب علماء النفس يسألون الجنود والضباط :

ماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟ واذا كنت نجوت من الموت ، فهل نجوت نفسيا أيضا ؟ ما الذى تراه فى نفسك ومن نفسك ؟ وما الذى تراه فى أهلك وفى بلدك ؟ خسران أنت أو كسبان ؟ هل حاربت ؟

هل انتقمت من عدوك ؟ هل انتقمت ممن هزمك ؟ هل تحارب مرة أخرى من أجل مصر التى لا أعطتك ولا أحترمتك ولا قدرتك . ولاسألت عن الذى أصابك وأولادك وزوجتك وشرفك ؟ هل لاتزال تعتقد أنك أفضل من عدوك ؟ هل تعتقد أنهم هزموك ، أو أنك أنت الذى انهزمت قبل ان يهزموك ؟

لم نسأل رجال القوات المسلحة العائدين من النكسة . ولا عرفنا ما الذى أحسوا به يومها وبعدها بأيام وشهور وسنين !

ولكن اسرائيل فعلت ذلك . فقد انتهت حرب الأيام الستة بسرعة مذهلة . حتى كأنها لم تكن حربا وانما كانت تدريبا عمليا على القتال . ورغم ان اسمها حرب الأيام الستة ، فبعض الجنود حارب يوما وبعضهم حارب يومين .. فقد بدأت الحرب فى مصر واستمرت فى الأردن وانتهت فى سوريا .

لم تكن حربا شاملة ، وانما كانت حربا دفاعية ـ قامت بها اسرائيل ضد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوات عربية أقوى وأكثر عددا واستعدت للابادة الشاملة ـ هذا ما يقوله العلماء الاسرائيليون للعسكريين والمدنيين ..

ووجد علماء اليهود من اسرائيل ومن أمريكا أن الحروب تسبقها عادة مشاعر ودوافع قوية تجعل القتال راحة كبرى للجنود الذين استعدوا طويلا للقتال ، والذين شعروا بالملل من الانتظار والذين يحنون لعائلاتهم ، ويريدون استئناف حياتهم العادية . وفى اسرائيل نوعان من الجنود : المنظمون والمتطوعون .. والمتطوعون لهم حياتان : عسكرية ومدنية ..

وعند الجندى الاسرائيلى عقيدة أنه إما أن ينتصر أو يموت .. لابد أن ينتصر وإلا تكاثر عليه الأعداء من كل مكان وقضوا عليه . ولذلك استعدت اسرائيل بأن جعلت الوحدات العسكرية وحدات عائلية . فالجندى ينضم الى وحدة عسكرية لا يتركها حتى الموت .. فهم يعرفون بعضهم البعض تماما . ولا توجد فوارق بين الضابط والجندى .. ولذلك فالوحدة كأنها جندى واحد قوى . والجندى فى دفاعه عن الوحدة ، والوحدة فى دفاعها عنه ، إنها تحمى الفرد والدولة أيضا . وهذه الوحدة العائلية تهون عليه الخوف والشعور بالخطر .. وفى نفس الوقت تجعله لايفزع اذا رأى الموت والدماء .. فان لم يقاتل ويقتل فسوف يلقى نفس المصير .. ثم شىء آخر : هو يجب ألا يعرض نفسه أو زميله للخطر .. واذا أصابه شىء فلا خوف ، فسوف يصلون اليه مهما كان .. إن كان جريحا نقلوه أو حملوه بالطائرات ، وإن كان قتيلا فسوف يعيدونه الى أهله .. وان لم يعيدوه كله .. فخصلة من شعره أو اصبع من قدمه .. أو حتى حذائه .. لن يتركوه مهما كانت إصابته ..

ولاحظ العلماء أن هذه الحرب قد أفلحت فى تذويب الفوارق بين اليهود الشرقيين والغربيين .. كلهم حاربوا وقاتلوا وتفوقوا ..

ولاحظ علماء النفس أن الجنود الاسرائيليين قد أصيبوا بصدمة عنيفة .. فهم لم يتصوروا أن تنتهى الحرب بهذه السرعة . ولم يتصوروا أنهم بهذه القوة . لقد أخافتهم قوتهم . وبعضهم قد تعلم أن اسرائيل دولة تريد أن تعيش فى سلام . وأن دينهم يدعو للحياة والسلام وليس للقتل والدمار .. ولذلك عاد كثير من الشباب الى مستعمراتهم لا يتكلمون ولا يريدون وعندما ذهب اليهم علماء النفس يسألونهم رفضوا الكلام . رفضوا أن يقولوا شيئا عن الذى حدث .. وأنهم كرهوا بلادهم وأنفسهم ودينهم أيضا ، والأكاذيب الطويلة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاشوا بها ومن أجلها .. وأن قادتهم السياسيين والدينيين قد خانوهم !
وقد أطلقوا على هؤلاء الجنود : الجيل الصامت !

أما أكبر مشكلة واجهها علماء النفس فهى ظاهرة الغرور والنفخة والزهو والتعالى .. الغرور الفردى والغرور القومى والغطرسة السياسية والنرجسية الدينية . أحس العلماء أن هذه أكبر كارثة .. وأن هذه كلها تدل على مصيبة قد حلت باسرائيل كلها .. فسوف يؤدى هذا الغرور الى حرب أخرى .. واذا انهزم اليهود فى هذه الحرب فسوف تكون أكبر كارثة حلت بالغرور الفردى والغرور القومى والعنصرى - إن اسرائيل كلها بعد حرب ١٩٦٧ أصبحت هى ثلاثة ملايين نرجس الذى رأى صورته فهام بها ومات فى سبيلها .. لقد انتفخ حتى انفجر - هذه هى المصيبة الكبرى . ومعنى هذه المصيبة أن اسرائيل قد انتصرت عسكريا ، ولكنها انهزمت نفسيا وفرديا وعائليا وقوميا !

وكلما بالغت اسرائيل فى عظمتها وبراعتها وعبقريتها ، ازدادت رغبة العرب فى الانتقام .. وزاد التعصب الدينى لليهود وللصهيونية العالمية ولأمريكا . ولذلك لابد أن يتدارك العلماء هذا الموقف بسرعة .. وأن يلقوا بعض الماء البارد على رؤوس هؤلاء الذين أسكرهم النصر .. والذين وصفوا شارون بأنه الملك شارون .. ووصفوا عودتهم الى مصر ، بعودة موسى الى الأرض التى طرد منها .

وظهرت رواية تقول بانه لابد من نسف السد العالى وأغراق مصر كلها .. وبدلا من إلقاء اليهود فى البحر ، فإنهم سوف يغرقون المصريين فى نيلهم .. وهنا تجىء سفينة نوح من اسرائيل لانقاذ المصريين .. وبدلا من القاء اليهود فى البحر ، فإن اليهود سوف يأتون بالبحر لكل العرب ..

وظهرت الأغانى والنكت والقصص والمسلسلات كلها للسخرية من مصر والعرب .. وهنا فزع العلماء من نتيجة كل ذلك !

ولما انتصرت مصر على اسرائيل يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان ذلك أسوأ يوم فى تاريخها .. فقد ضربتهم مصر فى عيد الغفران .. وبكت جولدا مائير ومعها كل القادة .. فقد انهزموا بالزهو فى سنة ١٩٦٧ ، وبإيمانهم المطلق بأن نصرهم هو النهائى ، وأن مصر قد وجدت لتنهزم وراءها ومعها كل العرب ..

وكان الرئيس السادات قد حطم أعصاب اسرائيل عندما كان يبعث لهم من حين إلى حين بجثة وجدناها فى البر والبحر .. فهذه الجثة كانت تجدد الأحزان فى اسرائيل .. وبقدر سعادتهم بأنهم وجدوا جثة ، بقدر حزنهم على أنها حركت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأوجاع النائمة والآلام المبرحة ..

وقبل انسحاب اسرائيل من سيناء ذهب سفير اسرائيل موشى ساسون إلى الرئيس السادات يطلب إليه : سيادة الرئيس أرجو ألا تجعل يوم الانسحاب يوما حزينا فى اسرائيل .. أرجو أن يتم الانسحاب بهدوء بلا طبل عنيف وزمر مدو .. !

ولذلك كان الاحتفال برفع العلم المصرى هادئا .. وكان السادات يقول : تكفينا هزيمة اسرائيل فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. ولتفتح صفحة جديدة للتعايش الهادىء والسلام !

* * *

أما أمريكا فقد درست حال الشباب بعد أكبر نكسة عسكرية فى تاريخها فى ڤيتنام . فقد اصطدمت رؤوس الشبان فى أمريكا بناطحات السحاب وتمثال الحرية وتمثال واشنطون .. وأحس هؤلاء الشبان أن دولتهم كذبت عليهم .. فعلى تمثال الحرية كتبت الشاعرة ايما لازاروس تدعو المضطهدين والمعذبين فى العالم إلى أحضان أمريكا التى هى أم المساكين والمظلومين .. أم التسامح بين الأديان والألوان ..

لقد أحس الشبان أن أمهم كاذبة .. كيف تبعث بقواتها تقتل الأبرياء فى ڤيتنام دفاعا عن أمريكا ، تقتلهم حبا فيهم ، تشوههم اعجابا بهم ، تضع السموم فى المياه وتقتل النباتات والحيوانات من أجل أن يبقى شعب ڤيتنام .. كيف ضربت بالقنابل الذرية شعب اليابان .. ثم تدعى بعد ذلك أنها حصن السلام ، درع الأمان كنز الفقراء ، جنة الخاطئين ..

لقد كفر الشباب الأمريكى بهذه الدولة الجبارة ، بهذا العملاق الذى طار عقله ، بهذا العبقرى المجنون الذى يبدد البلايين على الصواريخ وسفن الفضاء ، بينما لو أعطاها لملايين الفقراء فى العالم ، لأصبحت الدنيا جنة حقيقية .. ولقضت بذلك على الشيوعية التى تكسب أرضا وشعوبا بتعميق كراهيتهم لأمريكا وتناقضاتها السياسية والفلسفية .. كفر الشبان .. تركوا المدارس وهربوا من الخدمة العسكرية .. وهاجروا من البيت وناموا فى الغابات يقلدون جثث القتلى فى ڤيتنام .. ثم هاجروا من أمريكا إلى غابات الأمازون ينتحرون معا .. فقد كرهوا الحياة معا فى أمريكا .. وكرهوا أن يموتوا على أرضها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واتسعت لهم الحانات والمواخير والاصطبلات .. وارتفعت من أفواههم سحب الدخان الأزرق .. لقد قرر هؤلاء الشبان ، بمئات الألوف ، أن ينسحبوا من الحياة ومن العائلات ومن المعامل ومن الجيش .. وأن يضعوا أنفسهم فى قائمة الهاربين من الحياة .. وحذفوا أنفسهم من الأحياء فى بلادهم .. إن بلادهم تقتل أبناء فيتنام بلا قضية ، فلماذا لايقتلون أنفسهم بأيديهم فداء لأهل فيتنام ..

وظهر العنف بكل أشكاله .. والسرقات والخطف .. وهتك الأعراض .

وفى احدى المحاكم سأل القاضى طالبا صغيرا : كيف تعتدى على فتاة صغيرة تحبها ؟

قال الطالب : أننى لم أعتد عليها .. أننا اتفقنا على ذلك .. أما السبب الحقيقى فهو أن والدها قسيس .. وهذا الاعتداء على ابنته هو اهانة له .. وفضيحة له أمام الطائفة المسيحية : إذ كيف يدعو الناس إلى الفضيلة بينما هو لايستطيع أن يحمى ابنته .. فأنا لم أعتد على ابنته ، وإنما عليه هو .. على مذهبه .. وعلى دينه .. وعلى الدين كله الذى لم يمنع أمريكا من قتل الأبرياء .. فلا أحد من أهل فيتنام قد اعتدى على أمريكى واحد فى أى مكان ؟ !

ونهض علماء النفس والاجتماع والتربية لدراسة هذه الحالة المروعة التى انحط إليها الشباب الأمريكى .. وكيف يمكن علاجها ؟ ..

وتشكلت لجان حقيقية ذات صلاحيات عريضة وذات فترة محدودة لتقديم التشخيص والعلاج . وقدموا تقارير علمية لرئاسة الجمهورية . فالموقف خطير . والخطر شامل . وهذا الشمول يهدد المؤسسات العسكرية والمدنية ، فالشباب ضد الدولة : ضد الادارة بكل أشكالها .. وهذا الشباب هو المستقبل . وحتى لايضيع المستقبل لابد أن يتداركه الحاضر بسرعة ..

ومن أعجب التقارير وأمتعها التى قدمت للرئيس الأمريكى تقرير عنوانه : التقرير المصور المقدم لرئيس الجمهورية من لجنة بحث الخلاعة والصور العارية .. التقرير فى ٣٥٠ صفحة كل صفحة من ثلاثة أعمدة وبالبنط الصغير .. وهو من أعمق وأجمل والطف الدراسات التى قرأت فيها .. فقد لاحظت هذه اللجنة بعلمائها المائة والأربعين .. أن ظهور الاباحية والصور الانحلالية العارية والأفلام الجنسية دليل على أن الشباب مصر على أن ينسحب من الحياة ، وأن يستغرق فى الجنس دون أن يشارك فى الحياة الايجابية ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويساعده على ذلك الكثير من المخدرات .. وأهم مايساعده على ذلك : إهمال الأب والأم ويأس المدرسين ورجال الدين واستهانة الحكومة بكل ذلك .. وابتعاد علماء النفس والتربية عنهم .. فقد تركوهم يفكون عقدهم ويخفقون توترهم وحدهم .. أما العلاج فيبدأ بأن تمتد الأيدى إليهم . وأن نعانقهم بحرارة وبعد ذلك نفسر لهم هذا المسلك الأبوى الذى يجب أن يسبقه الاعتذار الشديد عن الإهمال لهم .. وبعد ذلك يبدأ الحوار .

ومما أهتدت إليه هذه اللجنة أن عددا كبيرا من الشباب يصنعون التماثيل ويضعونها فى مكان مرتفع . أما المعنى فهو نوع من تقديس الذات . كرد فعل عن اهمال الدولة لهم ، واحتقار المجتمع لسلوكهم .. فهم ليسوا عظماء هكذا ، وانما هم ينتقمون لأنفسهم ، ويعوضون أنفسهم بأنفسهم عن خسائرهم المادية والمعنوية ـ وهى قمة النرجسية !

ووجدوا التشخيص وعرفوا العلاج واستأنف الشباب دوره الايجابى فى حياته وحياة بلده !

* * *

* * *

أما نحن ـ وهذا هو الأهم ـ فلم ندرس ما الذى أصاب المصريين بعد النكسة العسكرية ؟ !

أول غلطة وقعنا فيها : أننا تكلمنا عن النكسة وعن الذين نكسونا وأسرفنا على أنفسنا فى ذلك حتى مللنا .. وضقنا بأنفسنا . رحنا نطالب بأن نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب .

وهى غلطة لأن الملل سوف يدفعنا إلى أن نسكت والسكوت إلى أن نتجه الى شىء آخر غير فهم وتحليل ما حدث ودراسة أثره العميق فينا ثم علاج ذلك ـ كما حدث فى اليابان بعد ضربها بالقنابل النووية ، وبعد نكسة أمريكا فى فيتنام . وبعد انتصار اسرائيل فى يونيو وهزيمتها فى أكتوبر ..

والغلطة الثانية : أن ظهرت كتب « الاعترافات » ..والذين اعترفوا كانوا عسكريين .. اعترفوا بأخطاء غيرهم من العسكريين .. أى أن العسكريين هم الذين ارتكبوها . وليكن ؟ فما هو أثر ذلك على الجنود وعائلاتهم وأولادهم وعلى المدنيين وعلى مصر فى السنوات التى جاءت بعد النكسة .. وعلى العشرين عاما الماضية !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلم نكن نعرف أن العسكريين أيضا . مثل المدنيين ذئاب يهاجمون بعضهم بعضا .. ولم نكن نعرف أن حقد العسكريين على العسكريين يجعلهم هكذا يفضحون مصر على أعلى مستوياتها العسكرية ويعرضون أمنها للخطر .. لقد قال لى قائد عظيم أن ما كتبه الفريق فلان الفلانى يرقى إلى مستوى الخيانة العظمى لأنه بما كتبه قد عرض مصر لأكبر خطر فى تاريخها ـ ولكن أحدا لم يحاكم الفريق الفلانى على خيانتة العظمى !

الغلطة الثالثة : أن أحدا من القادة العسكريين قد صحح أخطاء القادة الذين اعترفوا بأخطاء غيرهم وبراءة أنفسهم ! وفى ذلك الصمت دليل على القبول .. أو دليل على العجز .. وفى الحالتين نحن أمام خيانة عسكرية ارتكبها الذين نكسونا والذين فضحونا !

الغلطة الرابعة : أن المدنيين من هواة التاريخ والمؤرخين والأدباء قد تفننوا فى السخرية من الجميع .. فقد لاموا العسكريين ، ولاموا المدنيين على انهم سكتوا .. ومازال المدنيون ساكتين ، وفى ذلك تأكيد للعجز العام عن فعل شىء أو فهم شىء !

وإذا حاولنا اليوم هذه الساعة ، أن نصحح التاريخ فسوف تواجهنا مشكلة كبرى وهى أن كتب الفضائح العسكرية قد سبقت الى النشر باللغات الاجنبية .. وسبقتها أيضا الكتب التى اقامت المهرجانات للجيش الاسرائيلى والتحقير للجيوش العربية .. فقد أضعنا على أنفسنا فرصة أن نصحح وأن ننصف أنفسنا من أنفسنا .. فقد أقفل باب التصحيح ! والتاريخ غير قادر الآن على استئناف الحكم فى النكسة العسكرية التى هى وكسة مدنية وكارثة نفسية وردة حضارية ! .

الغلطة الخامسة : هى أننا لا ندرى تفسيرا لهذا التشرذم الدينى والسياسى فى بلادنا . ونظن أن سببه نقص الحريات الدينية ، أو أنه الأزمة الاقتصادية ..

أما أن هناك سببا دينيا فليس صحيحا . فنحن لا نشكو من نقص فى الدين أو الايمان بينما « الجرعة » الدينية المتزايدة تنهال علينا من كل القنوات والبرامج والصحف .

فالدولة هى التى تتزعم التطرف الدينى .. فالتطرف الدينى تطرف رسمى ، أما الذى تراه فى الشارع فليس الا « رد فعل » .. أما الفعل فهو عشرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الساعات فى الاذاعة والتليفزيون والصفحات عن الدين وأهوال القيامة .. أما أن هناك عناء اقتصاديا وخللا اجتماعيا فلاشك فى ذلك .. ولكن « التشرذم » والتعصب .. والعصابات .. ليس إلا بسبب النكسة العسكرية .. التى أصابت كل إنسان بالهزيمة فى نفسه وفى بيته وفى بلده وفى جيشه وفى أمته بين كل الأمم .. انهزمنا .. قهرونا . مسحوا بنا الأرض وهتكوا العرض وقالوا لنا : اشربوا من البحر الأبيض والأحمر والأسود .. اشربوا مياها ملوثة .. وموتوا بغيظكم .. فأنتم الذين جعلتم حكامكم فراعنة عليكم .. يضربونكم بالجزمة .. ثم تبكون على ذلك .. فأنتم قد اعطيتم والآن اخذتم ما تستحقون .. فلماذا الشكوى ؟

وأمام القهر الشخصى والعائلى والاجتماعى والقومى ، يتراجع المواطن .. ويتراجع حتى ينكمش فى ركن من بيته .. وحتى تنكمش نفسه فى ركن من جسمه .. وبعد ذلك يقوم بعمل تعويض لكل ذلك فيقول : أنا عائلتى وحدها .. مدينتى وحدها .. دينى وحده .. مصر وحدها .. نحن العرب وحدنا .. نحن المسلمين ..

وهكذا يخرج من تعصب الى تعصب .. وكل تعصب يحمل فى طياته سلوكا فرديا شاذا .. وعداء اجتماعيا .. عداؤه للآخرين .. وللعائلات الأخرى .. والديانات الأخرى .. والشعوب الأخرى .. وكراهية للغرباء رغم احتياجه لهم - وهذا هو اضطراب الشخصية الفردية والعائلية والدينية والقومية .. وإنه كفرد على حق والمجتمع غلطان ... أو أن الجماعة على صواب والجماعات الأخرى على خطأ .. ودينه هو الأصح ، وكل الديانات ضالة مضللة .. وقومه هم القوم ، ومن عداهم برابرة وحوش ..

والفرد مليان بنفسه .. وإذا كان فى الجماعة ، فلا يشعر بهم .. وإذا كان لاعبا فى فريق ، فهو وحده الذى يأخذ الكرة ويجرى بها ليضعها وحده فى الشبكة .. فلا روح للفريق .. ولا روح للجماعة .. ولا روح للدين ..

ومثل هذه « النرجسية » من علامات الطفولة أيضا .. فالطفل عندما تنمو شخصيته ، فهو يريد أن يكون وحده .. يلعب وحده ، ويأكل وحده .. هو الذى يقرر وهو الذى يعارض الآخرين ..

أما دور التربية والتعليم بعد ذلك فهو تحويل هذا الحيوان الصغير إلى حيوان يعتمد ويتعاون ويواجه الآخرين ثم يعيش معهم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهل يا ترى نحن المصريين نريد أن نظل أطفالا ؟ ..

هل نريد أن نبقى هكذا منفوخين قد امتلأنا غرورا وفى نفس الوقت عجزا ، دون أن تمتد أيدينا الى أنفسنا نعالجها ؟

هل نحن المصريين آسفون على القدر المتعاظم من الحرية ، ونتعمد افساد هذه الحرية فنحولها بسرعة الى لعب بالنار ، هل نحن نريد ان نستدرج الحاكم إلى أن يبطش ويسجن .. وإلى إلغاء الحرية وفتح أبواب السجون .. وبذلك يريحنا من الحرية .. حرية الاختيار وحرية القرار .. والانتقال من البكاء الدائم على الماضى الى الحاضر والمستقبل ،، هل نحن نحفر قبورنا باظافرنا من أجل أن يظهر فرعون يلهب ظهورنا بالكرباج .. وبعملية حسابية نجد أن الكرباج الرسمى أرحم كثيرا من كرباج الضمير ومن مشقة ممارسة الحرية ؟

هل لو ظهر الفرعون نستريح الى أننا نرى فيه انفسنا : عظيما يبتلع كل العظماء ـ أو الذين يظنون فى انفسهم العظمة .. حين يكون عصا موسى التى تبتلع الثعابين الصغيرة .. هل المصريون لسبب جهلهم بما حدث ، أى بجهلهم بأنفسهم وما اصابهم ، يريدون أن يريحوا أنفسهم وعقولهم بالتطلع الى واحد يلغى العقل بوضعها جميعا فى النار .. فنموت أطهر وأنظف موتة ـ ولكننا نموت !

هل هذه رغبة مجنونة عميقة فى نفوسنا ، لميلاد من يحمل عنا كل الذنوب والندم ويكون مرة أخرى أكبر مجرم فى حق مصر والشعوب العربية ؟

إننا لا ندرى .. فلم يتبرع أحد من علماء النفس فيضع أصابعه على الداء الذى عمره الآن أكثر من عشرين سنة !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدخل قلبك ويسرق كلبك!

ففى ذلك الوقت كانت نوعيات المصريين : أتراكا وموظفين وفلاحين .. باشوات وأفندية وذوى الجلاليب الزرقاء . وكان المثل الأعلى هو أن يخلعوا الجلباب ويلبسوا البدلة والطربوش وألا يمسكوا فأسا وإنما قلما .. ليكونوا فى خدمة الأتراك من الأسرة المالكة أو حاشيتها .. فالمصريون لا فيهم أديب ولا فيهم خطيب .. ولا هم من أمثال أبناء اليابان تقدموا الفلاحين والصيادين واخترعوا لقد كانت اليابان ولا تزال مثلا أعلى لكل دولة ناشئة ناهضة ..

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كانت من أجل إنصاف ذوى الجلاليب الزرقاء من ذوى الياقات البيضاء . أى الباشا وحاشيتهم من الموظفين ..

قال شاعرنا حافظ ابراهيم يعيب على الفلاحين المصريين أنهم يحلمون بأن يكونوا أفندية باكوات باشوات . ومن أجل هذه الألقاب يهون كل شىء وكل أحد .. ولكنه يريد لبلاده أن تكون من المخترعين .. كاليابان مثلا :

وهل فى مصر مفخرة
سوى الألقاب والرتب
أرونى نصف مخترع
ارونى ربع محتسب
أرونى . ناديا حفلا
بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم
من التعليم والكتب ؟
وماذا فى مساجدكم
من التبيان والخطب ؟
وماذا فى صحائفكم
سوى التمويه والكذب ؟
فهبوا من مراقدكم
فإن الوقت من ذهب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذى أمة اليابان
جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفا
وهمنا بابنة العنب

وكان المثل الأعلى عند الفلاح أن يكون إبنه « أفندى » .. وأن يتوب الله عليه من الطين والترعة والشادوف . وأن يجلس على المكتب إلى جوار النافذة وأن يبقى فى القاهرة حيث الاتراك والبكوات والباشوات . من يدرى ربما صار واحدا منهم . فالمثل الأعلى عند الفلاح الذى صار « أفندى » أن يكون « بك » والبك أن يكون باشا . بشرط أن يأكلوا جميعا من الريف من بعيد لبعيد .. أن تكون لهم أطيان ليعيشوا فى القصور ..

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ألغيت الألقاب .. ولم يبق منها الآن إلا لقب « باشا » نطلقه على كل الناس .. وفى توسيع استخدام هذا اللقب أصبح تافها .. أصبح حاجزا بيننا .. فبدلا من أن تقول لأى أحد اسمه الحقيقى تقول له : يا باشا .. وبدلا من أن تقول فلان بك .. وقد يكون هذا وزنه أو حجمه فأنت تقول له : يا باشا .. وبذلك تعمل على اضاعة وزنه وحجمه .. وفى نفس الوقت « تمييع » صورته عندك .. لأنك تريد ذلك ، ولانك لا تعرف لأحد وزنا حقيقيا .. ولأن الناس جميعا باشوات ..

سمعت من الملكة السابقة فريدة - رحمها الله - أن بوابا كان ينقل لها احدى لوحاتها فسألها : أين أضع هذه اللوحة يا مدام ؟

فقالت له : لا تقل لى يامدام .. قل لى أفندم .. أو قل لى جلالتك .. فقد سمعتك تخاطب بوابا آخر وتقول له : يا باشا .. فكيف يكون هو باشا وأنا مدام ؟!

وأصبحت كلمة باشا تساوى : فلان الفلانى .. فأنت باشا يعنى : أنت أى انسان .. فهى ليست تحية لك .. وانما هى إبعاد وتجهيل لك !

وفى السنوات الأولى للثورة كنا نقول لبعضنا البعض : يا سيد .. وكنا نطلقها بصورة مضحكة مهينة .. حتى ماتت على ألسنتنا ونبتت مكانها كلمة باشا .. ويا باشا !

وبعد ثورة يوليو انفتحت أبواب القرية على المدينة ، والعكس .. وانفتحت المدارس لكل الناس .. ابن الخفير وابن الوزير .. كلهم يريدون تعويضا أدبيا وماديا عن الذى أصابهم .. كلهم يريدون أن يتعلموا وأن يتوظفوا .. فالوظيفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حق ، لأن التعليم حق .. والتعليم هو الطريق إلى الوظيفة .. وبدأ المجتمع المصرى يزحف ويتعالى ويتسامى على الأرض وعلى الطين وعلى الزراعة من أجل الوظيفة .. والفلاحون هم أيضا تركوا الريف إلى المدينة .. ومازال النزيف الريفى يصب فى المدينة .. حتى ابتلعت المدينة كل القرى .. وبدلا من أن تأكل المدينة من أيدى الفلاحين ، جلس الفلاحون تحت موائد الأفندية ينتظرون الرغيف والخضار والفاكهة .. فالفلاحون تنكروا للأرض ، والأفندية تنكروا لآبائهم من الفلاحين .. وأصبحت الأغلبية الساحقة من الريفيين أى من الأفندية أولاد الفلاحين ! فالفلاح هو الذى يضرب الأرض بالفأس ، والريفى هو الذى أبوه فلاح ولم ير الفأس إلا على شاشة التليفزيون !

سألت طفلة صغيرة أباؤها من الفلاحين إن كانت قد رأت القبقاب فاجابت بسرعة : نعم مع طانط شجرة الدر !

تقصد أنها شاهدت ذلك فى فيلم شجرة الدر التى قتلت زوجها وقتلوها بالقباقيب !

وفى السنوات الأولى لثورة يوليو كان المثل الأعلى عند الشباب إلى جانب أن يكون طبيبا وطيارا أن يكون ضابط غواصة .. ليس فقط أن يكون فى الجيش وانما أن يكون ضابطا لا على الأرض ولا فى الجو ولكن تحت الماء . ليحارب العدو من أجل مصر . ولم يكن المثل الأعلى لأى احد أن يعيش فى دمشق وبغداد .. أى ينتقل من مصر لأى سبب ، رغم دعاوى الوحدة العربية بين كل الدول . ولم يكن أحلام أحد أن يهاجر . كيف يترك العظمة المصرية وأحلام امبراطورية صلاح الدين من المحيط إلى الخليج ؟ .

ولكن بعد هزيمة ١٩٦٧ كانت كل أحلام الشباب أن يهاجروا . إلى أين ؟ إلى أى مكان .. المهم أن يتركوا مصر .. الجمل بما حمل .. فلم تعد الحياة تطاق . وأقسى ما فى الحياة فى مصر : الكذب .. كله كذب .. لم يعد للكلام معنى .. لم تعد للخطب أية دلالة .. فالرجل الذى كان بطل أبطال العالم ، صاحب الأرقام القياسية فى وزن الهموم الثقيلة صار فى الحضيض السياسى .. كيف صدق الناس جمال عبد الناصر .. كيف ابتلع الناس الطعم خطبة بعد خطبة ، كيف أنام الناس ومغنطهم ؟!

إن بعض الذين يديرون تسجيلات لصوته يندهشون كيف أنهم لم يكتشفوا هذه « الخنافة » الثقيلة فى أنفه .. كيف لم يكتشفوا هذه المرارة فى شفتيه ، كيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يتبينوا هذا الحقد فى عينيه ، كيف لم يدركوا انه ليس إلا تمثالا نصفيا بعيد الكتفين والصدر يمشى على ساقين نحيلتين .. ولكنه الخوف والفزع والارهاب والبطش جعل الناس يقفون عند عينيه ولا يدعون الله الى الخلاص منه .. والذين لديهم تسجيلات لخطب هتلر أيضا يندهشون كيف أن هذا الرجل الحاد الحركات والملامح الأجش والذى ليس عميق الصوت والنبرة ، استطاع أن يصيب شعبه كله بالجنون ، فيمشى وراءه حتى الموت سعيدا بذلك .. كيف ؟ انها الرغبة العميقة عند الشعوب فى أن تمشى وراء من ينقذها ومن يخلصها .. فرغبتها العميقة وخوفها الغريزى ، هو الذى يجعلها لا تفرق بين الأنبياء والدجالين .. فكان المثل الأعلى لكل مصرى هو أن يهرب من مصر .. فمصر لم تعد مصر .. وانما مصر قد احتلتها قوات مصرية ، لها طعم القوات الأجنبية ، لها عنف الانجليز ، وبطش اليهود ، وإن كانت تتكلم العربية بلهجة مصرية ، لم تعد مصر هى البلاد المصرية ، لقد أحس المصريون بأنهم غرباء فى بلادهم .. فلماذا لايختارون بلادا أفضل .. وسوف يبقون فيها غرباء أيضا . ولكنهم فى بلادهم غرباء بلا أمل ، وفى البلاد الأخرى غرباء عندهم أمل !

سألت صديقا مصريا يعيش فى موسكو : كيف حالك ؟

قال : غريب هنا وغريب فى مصر .. أقلية هنا وأقلية فى مصر .. ولكن أحدا هنا لا يجعلنى أشعر بأننى غريب !

وهناك نوعان من الهجرة : الهجرة الطويلة فى أمريكا وكندا واستراليا .. والهجرة القصيرة فى البلاد العربية فالمهاجر الى البلاد العربية عنده رغبة فى أن يعود وقد امتلأت جيوبه ، ليستأنف حياته فى مصر .. أو توطين نفسه فى وطنه .. فيتزوج وتكون له شقة وثلاجة وسيارة ويكون قادرا على تربية أولاده .. وبعضهم رأى أن الهجرة إلى البلاد العربية كانت أقسى وأوجع .. فهذه الهجرة قد جاءت بعد الهزيمة العسكرية التى صدمت المصرى والعربى .. وكشفت كم هو « فشار » ذلك المصرى الذى أعلن أنه سوف يدخل تل أبيب فى ساعات ويستولى على القدس فى دقائق ويلقى باليهود فى البحر الذى جاءوا منه .. وينتهى كل شىء .. وبذلك يكون جمال عبدالناصر هو الطبعة المنقحة الأنيقة من صلاح الدين الايوبى أو الاسكندر الأكبر أو نابليون .. أو هو أفضل من كل هؤلاء لانه نابع من أرض مصر ، التى لا تنبت إلا القطن والدودة .. فهو خارق لكل قوانين الزراعة المصرية .. فهو « هبة » السماء الى الأرض .. وبسرعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جعله المصريون نبيا أو كأنه نبى .. وان لم يكن مثل الأنبياء فهو خامس الخلفاء الراشدين . وهذه وظيفة ومرتبة يدخرها المصريون لكل حاكم خدمهم ، حتى يلقى مصير ثلاثة من الخلفاء الراشدين هم عمر وعثمان وعلى : اغتياله أو محاولة ذلك !

وكان المصريون قبل الهزيمة العسكرية قد أجمعوا على أن المثل الأعلى هو أن يكون كل شاب ضابطا طيارا . أى ضابطا فى السماء يقتل العدو ويهرب ، وكان ما كان مما نعرفه ، وقلنا فى ذلك الوقت ان الطائرات الاسرائيلية التى محقت الطيران المصرى ، كانت تقودها سيدات حوامل ؟ ! أى أن السيدات اليهوديات انتصرت على الرجال المصريين .. ولم يكن سيدات فى غاية اللياقة البدنية ، وانما سيدات مريضات بسبب الحمل وانتظار الولادة . أى سيدات فى أضعف حالاتهن . وكان ذلك إمعانا فى تعذيبنا وتحقيرنا لأنفسنا !

ولم نكتف بذلك وانما صدقنا أننا استولينا على قطار ملىء بالأسرى اليهود .. انتصار عظيم .. ولكن لكى نسلب هذا الانتصار من أنفسنا ، قالت الشائعات أن القطار كله مجندات .. أى أن اسرائيل حاربتنا برا وجوا بالنساء ـ أما الرجال فلم تجد داعيا لتعبئتهم ضدنا ـ استمرار فى تعذيب أنفسنا وامتهان ذاتنا وتحقير قيادتنا وزعيمنا !

ولذلك كان على المهاجرين المصريين فى كل البلاد العربية أن يسمعوا الشتيمة وينظروا الى الطعام الجيد الذى يأكلونه والسيارات المكيفة ، وأن يقارنوا بين الذى هم فيه ، والذى هو فى مصر .. وكانوا يقررون جميعا أن يأكلوا العيش بالجبن !

وأصبح المثل الأعلى عند المصريين فى الخارج : لا شأن لنا بالسياسة . نحن خبراء مصريون ، أو خبراء يجب أن ننسى أننا مصريون !

وكان المصريون بعد الهزيمة العسكرية يسمعون الأشقاء يقولون لهم : يا بتوع الفول .. يا بتوع الطعمية .. يا بتوع البلهارسيا !

والشاعر القديم يقول : ولأم المخطىء : الهبل !

مادام قد أخطأ فهو عبيط وأمه وأبوه !

ويقول المثل : العجل وقع فكثرت السكاكين !

وكنت أقول : اذا انهزمنا فنحن مصريون ، واذا انتصرنا فنحن عرب . ونحن منهزمون دائما .. فراعنة .. فلاحون ، وفى نفس الوقت نحن بالنسبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للعرب كالزواج : شر لابد منه . لابد منا ولابد منهم !

ولا أحد فى مصر على كل مستوياتها يعرف عدد المصريين المهاجرين .. انهم لا يقولون عند خروجهم من مصر ان كانوا مسافرين أو سائحين أو أن عشرات البلاليص قد انكسرت وراءهم حتى لا يعودوا ، هم الذين اشتروا البلاليص !

وكأن الدولة لا تريد أن تعرف عددهم .. فهى لا تريد أن تبدى اهتماما بالذين تركوا لها البلاد وما عليها ومن عليها .. فهى لا تعترف بأن هؤلاء المهاجرين غاضبون ساخطون هاربون .. أو أن الدولة سعيدة بذلك .. فالباب يسع الجمل وما حمل .. أو السكة التى تودى .. فالفلاحون هجروا القرية الى المدينة .. ثم هجروا القرية إلى المدن الأجنبية ، دون أن يتوقفوا لحظة فى أية مدينة مصرية ! الفلاحون هاجروا إلى العراق .. يقال مليون ويقال اثنان ويقال ثلاثة .. والصيادون المصريون هاجروا من دمياط إلى الجزر اليونانية .. والصيادون اليونانيون تركوا لهم البحر ليعملوا سائقى تاكسى ، وسائقو التاكسى ليعملوا جرسونات فى الفنادق التى هجم عليها المصريون هربا من مصر . فاليونان أرخص وأنظف وأجمل !

لقد كانت الهزيمة العسكرية مثل طوفان نوح ، خربت بعده الأرض ونجا القليلون مع نوح .. فنوح عليه السلام هو « آدم الثانى » الذى بدأت به البشرية حياة جديدة .. وتفرق أولاده بين القارات .. تماما كما حدث بعد « سيل العرم » فى اليمن تفرقت بعده قبائل خزاعة وغسان والأزد والأوس والخزرج ، ولكن المصريين المنكوبين فى عقولهم وقلوبهم وأحلامهم تفرقوا وتشرذموا على أرضهم .. فإذا كان لابد من الهوان والاهانة فلتكن إهانة وطنية .. إهانة اخوتهم المصريين لهم أوقع وأوجع . والشاعر يقول : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة .. والمثل الشعبى يقول : الدخان القريب يعمى .. والعيار القريب يدوش .. وقد اشتدت مضاضة ومرارة المصريين الذين أعماهم دخان ونار أقاربهم ، ولكنه أرحم من دخان ونار الأشقاء العرب !

وكل الجماعات الدينية مهاجرة من مصر إلى مصر .. كلهم رافضون ساخطون غاضبون .. اقتلعوا جذورهم بأيديهم من الأرض الخصبة ، وأعادوا زراعتها وشتلها فى الكهوف المظلمة وعلى أطراف الصحراء .. إنهم مهاجرون من مصر إليها .. تماما كما تضرب طفلك فيلوذ منك إليك !

فما المثل الأعلى ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عند الفلاح : أن يكون « أفندى » ..
وبعد الثورة : أن يكون الأفندى جامعيا ..
عند الجندى : أن يكون ضابطا .

عند جندى الشرطة أن يكون : أمين شرطة .. عند أمين الشرطة أن يكون ضابطا .. عند ضابط الجيش أن يكون مثل ضابط الأمن لا يحال إلى المعاش فى الخمسين ؟ !

جاءت ثورة يوليو واقتلعت ملكا واحدا وعينت مائة ملك .. ألف ملك .. وضعت على رؤوس كل المؤسسات ملوكا وأمراء من لابسى الكاكى .. لماذا ؟ إنهم الذين اشعلوا الثورة ولابد من المكافأة .. والمكافأة أن يظلوا فوق .. فوق كل المدنيين ، دون ثقافة أو علم أو كفاءة !

ولذلك كره المدنيون أن يكونوا مدنيين .. فلا أمل عندهم ، لأن السقف قد هبط فوقهم كتلة من الخرسانة المسلحة ، لا يحق لهم أن يخترقوه أو يتطاولوا إليه أو عليه .. وكرهوا أن يكونوا عسكريين ، فما الذى فعله العسكريون بمصر .. فالعسكريون بعد الهزيمة العسكرية قد أهينوا مرتين : مرة فى الحرب عندما واجهوا اسرائيل ومرة عندما عادوا يواجهون الشعب .

ولكن العسكريين شعروا بالارتياح عندما خرجت المظاهرات « المفبركة » من المدنيين تطالب الرئيس جمال عبدالناصر أن يبقى رغم الهزيمة .. لقد شمت العسكريون فى المدنيين الذين ارتضوا الهزيمة .. وطبلوا وزمروا ورقصوا ، فداك ألف هزيمة وهزيمة يا ريس ! وكانت المظاهرات نوعا من « الزار » القومى .. ألوف يضربون أنفسهم بالجزم والسيوف حزنا على النكسة ، وحزنا على أن قائد النكسة فكر لحظة واحدة فى أن يلقى المصير الذى يستحقه من الشعب .. كيف يفكر فى ذلك ؟ صحيح أنه هو الذى انفرد بالتفكير لكل الناس والتدبير لهم .. فهو الذى خلع الملك وخلع العقل أيضا .. لقد ترك الأمر للشعب ، والشعب لا أمر له ولا رأى ، فالرأى رأية والأمر أمره . ولذلك كان قرار الشعب هو قراره هو ، وأمره هو ، فقال بلسان المتظاهرين : يجب أن أبقى ، وبقى وأحس الناس الطيبون أن المظاهرات استفتاء شعبى حر بعودته الى قيادة مصر من هزيمة إلى هزيمة .. ومن كفر به الى كفر بأنفسنا ، وضاعت كل الطرق وكل القيم ثم مدلول الكلمات والشعارات .. وعجز الناس عن التفكير والتدبير والتفرير .. وعن البقاء وعن الهجرة ، فكان الحل الوسط الذى هو انعدام القرار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو هو تعليق الحكم : أن يبقوا وكأنهم ليسوا فى مصر ، وأن يهجروا مصر الى مصر ! .

وداخ الأطفال والشباب بين بابا جمال والبطل جمال وبين مهندس الهزيمة ونقص المناعة النفسية والجسدية والقومية . ضاعت الحقيقة . وما تزال ضائعة . ماذا حدث ؟ كيف حدث ؟ ماذا قلنا للأطفال ماذا بقى للشباب ؟

وجاء أنور السادات يصحح كل الأخطاء والخطايا .. وفى ثلاث سنوات عرفت مصر أعظم انتصاراتها وأروع أمجادها العسكرية . ولكن كان النصر مثل زفاف عروسين فى غرفة الانعاش .. صدمة قوية بعد صدمة أقوى .. لكمة فى الرأس ولكمة فى القلب .. حضن حار حطم الضلوع .. وتوالت انتصارات السادات داخليا وخارجيا .. وكانت مثل باقات الورود فى غرفة مريض .. العطور قوية ولكنها خانقة ؟ !

قال شوقى : الموت بالزهر مثل الموت بالفحم !

أى دخان الفحم قاتل ، مثل الزهور الكثيرة إذا تنفست ثانى أوكسيد الكربون . فهو قاتل أيضا !

واغراق انسان فى طمى النيل ، مثل اغراقه فى بانيو من الشمبانيا . كلاهما مميت !

وارتبك الناس مرة أخرى . ما المثل الأعلى ؟ ماذا تريد لنفسك ولأولادك ولبلادك ؟

انفتحت أبواب مصر .. دخلت البضائع والفلوس .. انتعشت التجارة والصناعة . كل الناس يريدون أن يكسبوا .. الفلوس .. صنم جديد كنا قد نسيناه .. أحسسنا كأننا بنو اسرائيل تركهم موسى ليكلم ربه .. ثم عاد موسى ومعه وصاياه العشر : لا سرقة .. لا قتل .. لا زنى .. ولكن وجد قومه قد اهتدوا إلى سر الكون : جمعوا الذهب وصنعوا منه تمثالا يعبدونه !

وأمام الذهب يذوب الحديد والحدود . وتناولت القصص والمسرحيات والأفلام عريس المستقبل .. العريس المثالى : وكان على الفتاة الجامعية وعلى الأسرة كلها أن تختار بين الأسطى الغنى صاحب الشقة والفيديو وبين الجامعى المفلس إلا من آماله الكاذبة وغضبه النبيل وإيمانه بتدخل السماء عند آخر لحظة . واختارت أسرة الفتاة : الأسطى صاحب العمارة القادر على أن يكون أبا لأولاد يتعلمون فى مصر وخارجها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان ذلك بداية وتعميقا لأزمة ثقة بين الشباب وبين الدولة :

هل زواج الجامعية من غنى جاهل معناه أن التعليم لا قيمة له .. وأن المثل الأعلى عند الشباب بأن يكون جامعيا ، كلام قديم .. كلام فارغ ؟ ! فكأن الدولة تعلم الناس مجانا لتخلق منهم ساخطين متعلمين وكافرين جامعيين .. ثم تطل عليهم من تليفزيون الدولة وصحفها وتخرج لسانها وتقول لهم : كما مات أباؤكم بغيظهم ، عيشوا أنتم بغيظكم !

وبسرعة انقسم الجميع نصفين : أناس عندهم فلوس ، ولذلك فعندهم كل شيء آخر .. وأناس جامعيون مفلسون وليس عندهم أى شيء ، إلا السخط على الدولة وعلى أنفسهم .. وإلا التربص بالجميع !

لقد وقف رجلان فى مواجهة الشعب المصرى والعربى :

عبد الناصر والسادات ..

أيهما البطل .. هل المنهزم كان على حق ، والمنتصر كان خائنا .. الذى أعطى اسرائيل كل الأرض وكرامة مصر وعزة العرب .. أو الذى استرد الأرض والعرض والكرامة والثراء ووعد بالسلام والرفاهية ..

وعبد الناصر مات مسموما ؟ والسادات قتيلا !

فما هو الثواب وما هو العقاب !

وما هذا البلد الذى يقتل أبطاله ويبكيهم ؟ وما هذا الشعب أيضا ؟ وما هذا العنف فى رواية التاريخ ؟ وما هذا العنف فى مسح التاريخ ؟ وما الذى يريده الشباب لنفسه ولبلده ومن بلده ؟ من الذى قهره على أمره ؟ من الذى أكرهه على دينه ؟ من الذى أطال أظافره خناجر ، وجعل دينه « ديناميت » ؟

ولماذا كل ناجح غشاش ؟

ولماذا كل غنى لص ؟

وكيف ينجح الناس وكيف يصبحون أثرياء .. ما هى قواعد النجاح ؟ ما هو هدف النجاح ؟

النجاح : فلوس وشهرة وسلطة .

والنجاح : يشترى كل السبل من أجل استمراره .. ولو كان ذلك على جثث الآخرين من الفقراء والأبرياء ..

الفلوس من أى طريق ومن كل طريق .. والفلوس كالأسمدة لابد من نثرها فى كل مكتب ، وبذرها فى كل أرض .. ولابد من الرشوة وشراء العلاقات والخطوات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكل المواصلات الى الشهرة والسلطة !

واختلط على الناس كل شيء :

لقد جاء عليهم وقت يقولون إن الهزيمة العسكرية وفرت لهم الطعام والشراب . أى أن الهزيمة العسكرية كانت خيرا على الفقراء ؟ !

وكانت الهزيمة كالانفتاح الاقتصادى أيام السادات : الدكاكين مليئة بالبضائع والجيوب مليانه بالفلوس ..

ولكن الهزيمة كانت أفضل فلم تكن لنا صلة باسرائيل أما الانفتاح فقد ملأ البيوت بكل أنواع الأطعمة ولكن جعلنا نتفق مع اسرائيل فيغضب كل العرب ..

ومغالطة كبيرة وقعنا فيها ، وعندنا استعداد للوقوع فى المغالطات لأننا لا نفكر .. لأن عقولنا قد نزعت منا منذ وقت طويل .. هى الأخرى أمموها وصادروا معها الأمل فى أى شيء وأى أحد .. فقد صدرت الأوامر بملء أفواه الناس بالطعام .. وإذا امتلأ الفم استحت العين أن ترى ، وإذا رأت أن تقول ، وإذا قالت أن يكون همسا .. وألا تكون نكتا .

فالرئيس عبد الناصر هو أول حاكم فى التاريخ طلب من الشعب ألا يطلق نكتا على الجيش .. ولم تكن على الجيش وإنما على قيادة الهزيمة العسكرية والخديعة الوطنية !

ارتبك الناس واختلطت عقولهم وتداخلت أمالهم وهذيانهم ، وتحيرت فى أيديهم أدوات اغتيالهم لزعمائهم .. وتلعثمت الاقلام تلطخ تاريخ مصر الحديث بين العدوان على عبد الناصر سنة ١٩٥٤ والعدوان على السادات سنة ١٩٨١ .. وقبل ذلك بعد اغتيال النقراشى باشا والامام حسن البنا .. ثم اغتيال أجهزة الأمن القومى . وزراء الداخلية !

يا ناس يا هوه .. لقد توضأنا ونريد أن نصلى : أين القبلة ؟ أين الامام ؟ ما الصواب ما الخطأ ؟ ما الوطنية ؟ ما هى الخيانة ؟ ما هى الأمانة ؟ ما النجاح ؟ ما السعادة ؟ ما الحل ؟

لقد حاول عبد الناصر والسادات أن يحققا نوعا من التوازنات العنيفة .. استعان عبد الناصر بالشيوعيين لضرب الاخوان .. لقد اختل فقد التوازن بعد الهزيمة .. واستعان السادات بالاخوان لضرب الشيوعيين فقد أختل التوازن بعد النصر .. انها قصة الفئران والقطط فى استراليا .. عندما استشرت الفئران تأكل الطيور والحقول ، استوردت استراليا القطط تأكل الفئران .. فأكلت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفئران وانتقلت تأكل الطيور والأطفال والصغار ..

فأتوا لها بالكلاب تطارد القطط ولكنها تأكل الأرانب . وتحولت الكلاب الى ذئاب .. ولم يتحقق التوازن العاقل بين قوى البيئة .. وفى الهند عندما انتشرت موضة الشنط والجزم من جلد الثعابين فى أوروبا وأمريكا ، هجم الهنود على ملايين الثعابين يقتلونها ويبيعونها .. وفجأة أحس الهنود انهم ارتكبوا غلطة قاتلة لملايين الهنود .. فالثعابين كانت تأكل الفئران التى تأكل حبوب القمح والذرة .. فلما اختفت الثعابين انفردت الفئران بكل المحاصيل .. ولذلك حرمت حكومة الهند قتل الثعابين لكى تأكل الفئران فلا يموت ملايين الهنود من الجوع ..

لقد قام عبد الناصر والسادات بتقليب المجتمع وتأليب فئاته بعضها على بعض . لعبة خطيرة ، وأخطر من هذه اللعبة أننا انتقلنا من حرب اسرائيل الى حرب مع مصر .. انتقلنا من حرب محدودة معروفة الملامح ، إلى حرب داخلية سرية حدودها بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين أسرته وجامعته ومجتمعه وبلده .. بين دينه ودنياه . فطالت لحى الشباب وتبرقعت الفتيات ..

ولكن المثل الأعلى لهذا المجتمع التجارى الصناعى ـ أو الذى يحاول أن يكون كذلك ـ هو الخطف .. الخبطة .. اللطشة .. المكسب السريع .. والهرب بعد ذلك .. وأصبح الخطف معادلا للشطارة .. والشطارة هى الذكاء .. وأصبح اللص الفاشل هو الذى يقع فى قبضة البوليس ، أما اللص الشاطر فهو الذى يشترى أمنه وأمانه ، ويبقى بعيدا عن العيون والآذان .. فاللص الضعيف هو الذى يجب ألا يكون . وانما اللص القوى ، هو أيضا اللص الشريف ، لأن أحدا لا يدرى به ..

وامتلأت الدنيا باللصوص من التجار والشطار والساسة . ولهم جميعا صفة واحدة : خداع الناس !

وعند الأغريق أن للتجار واللصوص والخطباء والساسة ربا واحدا . هذا الرب اسمه : عطارد .. هذا الرب عنده قدرة فريدة على أن يظهر وأن يختفى .. وأن يتخذ أى شكل : إنسان حيوان نبات جماد .. وهذا الإله الاغريقى هو الذى اخترع القيثارة بأوتارها .. فهو قادر على أن يخدع وأن يكذب وان يغالط وأن يقنع وأن يبهر .. وأن يسرق أيضا .. وشعاره : أن يدخل قلبك ويسرق كلبك وعيده هو يوم ١٧ يونيو من كل عام . ففى ذلك اليوم يمشى التجار واللصوص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والساسة فى طوابير يقدمون القرابين لهذا الرب ويستغفرون لاخطاء عام مضى ، ويطلبون معاونته على خطايا عام قادم .. وكان يعدهم بذلك . فهو يعلم أن اللصوص لا يتوبون وانه هو شخصيا يسرق الكحل من العين ، والبريق من النجوم ، والحرارة من الشمس ، والرحمة من القلوب .. وهو القادر على أن يحول الوردة تلقيها إلى من تحب ، إلى سهم يصيب القلب ويقتل !

* * *

* * *

ما الذى أصاب الناس ؟

تسأل أى واحد : ماذا تريد ؟

ويكون جوابه : وحياتك ولا حاجة .. الستر ..

وأربى العيال !

كأنه غلطان لأنه تزوج وكأنه غلطان لأنه أنجب أطفالا .. وهو لا يطلب إلا أن يكون مستورا أمام أولاده فلا تفضحه ملابسهم الممزقة ، ومصاريف الدروس الخصوصية . وأن يجدوا عملا بعد التخرج . فقط أن يجد شباكا يقفله إذا نام ، وبابا يغلقه إذا أكل ، وان يضع أولاده على أول الطريق والباقى عليهم .. فقد قام بما عليه . ويا الله حسن الختام !

وكما ترى فهو لا يعمل ولم يعمل ولا يريد أن يعمل .. فقط أن يعيش على الحد الأدنى من أى شىء .. وإن أراد أولاده أن يعيشوا أفضل فهذا شأنهم . ولكن كيف يعيش الأولاد أفضل ، إذا كانوا غير قادرين على أن يغيروا دنياهم ؟ فلا دخل لهم فى الذى حدث .. فكيف يغيرون مالم يرتكبوا ؟ وكيف ينجحون وقد انسدت أمامهم كل أبواب الأمل فى شىء أو إلى شىء !

قيل : الأمل فى الأرض ..

قيل : الزراعة كنز لا يفنى !

وما أوسع أرض مصر . ولكننا نحن الذين نضيقها .. ونشدها علينا ونخنق بها أنفسنا .. نحن نأكل الأرض المزروعة ونبنى فيها البيوت أو نبنى عليها البيوت .. وإذا أعطينا الشباب أرضا وأملا ليزرع ، عدنا وخنقناه فى أرضه وعلى أرضه .. كأنه فاتنا أن نخنقه على الأرض المزروعة ، فأنتظرناه حتى يصلح أرضا جديدة لنقطع عنه الماء والنور ونطلق عليه جراد الضرائب والمجتمعات الجديدة والاصلاح والكهرباء والرى وهى الآفات الجديدة لكل المجتمعات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشابة .. وتبقى الأرض ، كما كانت من ملايين السنين .. أما الذى يذبل شكلا ومعنى فهم الشباب .

يا ناس يا هوه .. ارفعوا أيديكم عنهم واتركوا أيديهم تعمل وتزرع ، واتركوا عقولهم تفكر ، وقلوبهم تخفق ، وآمالهم ترفرف .. أعيدوهم إلينا ، حتى لا يهجرونا ويكفرونا .. أعيدوا لهم «المثل الأعلى» .. والقيم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ..

إن الأغريق قالوا قديما : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب !

وأرضهم تتحرك يمينا وشمالا وأعلى وأسفل ، وهم أيضا . فبالله كيف ينبتون على أرضهم .. وكيف يثمرون أملا ونورا فى مستقبل مصر ؟ !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى يعود نهر

محمد بن عبد العزيز

كان ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ فى طهران . وكان المتحدث هو ستالين . قال كثيرا عن بلاده وعن استعداد القوات السوفيتية لخوض كل أنواع الحروب . وانه سوف ينتصر حتى لو انهزم الحلفاء جميعا .. واقترب من تشرشل أكثر وأكثر وقال : حتى لو انسحبت بريطانيا من الحرب .. فإن الجيش السوفيتى سوف يجتاح أوربا كلها وسوف يدق مكتبك ويوقظك من نومك السعيد !

وأحس تشرشل أن ستالين يكذب ، وأنه يريد أن يوهم تشرشل أن روسيا قوية لهذه الدرجة . وأنه لا يثق فى الانجليز . فقال له تشرشل : اسمع ياسيدى إن الحقيقة ثمينة جدا لدرجة انه من الضرورى أن تحشد لها جيشا من الاكاذيب لحمايتها !

ومعنى ذلك انه يقر ستالين على كل هذه الاكاذيب .

ويراها ضرورية فى الحرب . وهذا ما فعله تشرشل نفسه . فعندما هاجمت القوات اليابانية حامية بريطانية فى سنغافورة لم يجد اليابانيون إلا ثلاثة جنود .. بينما كانت الاذاعة البريطانية تؤكد أنها حامية القدر .. وأن اليابان سوف تفنى جميعا عند ابوابها ولن تدخلها !

ولكن الذى قاله تشرشل كان مجرد اجساس الزعيم السياسى الذكى بالازمة التى تعانيها بريطانيا والحلفاء . وأمام الاستعداد الهائل للالمان كان على الحلفاء أن يحاربوا بهذين الجيشين . قواتهم المسلحة واكاذيب الدعاية التى تحمى حقيقة هذه القوات !

وفى ذلك الوقت كان الألمان قد اهتدوا إلى نظرية جديدة فى السياسة والدعاية والحرب . هذه النظرية هى التى ابتدعها وزير الدعاية النازى جوبلز . النظرية تقول : اذا كانت هناك ازمة ، فمن الضرورى جعلها أعمق وأقوى .. حتى يشعر المواطن بأن هذه الأزمة مزمنة ، وأنه لا خروج منها . فاذا كان هذا احساسه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمن الواجب اظهار المعجزة . والمعجزة هى الحل . فاذا انحلت عاد اليقين إلى الشعب بأن القيادة لاتزال قادرة على المعجزات . قادرة على النصر على العدو ..

أو بعبارة أخرى : إنها نظرية الشحن والتفريغ .. أى شحن الناس بالأزمة حتى تتفجر جوانبهم أو تكاد .. ثم حلها . ويكون لهذا الحل دوى . ويكون الدوى دليلا على القدرة والانطلاق !

ففى سنة ١٩٤٣ استطاع مونتجمرى أن يتغلب على القوات الالمانية فى العلمين . إنها بداية النصر الانجليزى والهزيمة الالمانية !

والقيادة الالمانية امامها عدة بدائل :

إما أن تعلن انها انهزمت تماما ..

وإما انها تتراجع لتنظم خطوطها ، وانها سوف تنتصر حتما ..

وإما ان الانسحاب وبداية الهزيمة الالمانية فى شمال افريقيا هى سياسة عليا لتتمكن القوات الالمانية من مواجهة الحلفاء فى اوروبا .

ولكن وزير الدعاية الالمانى كان لديه بديلان فقط :

أن يعلن ان الهزيمة تمت وكان روميل على رأس القوات الالمانية .. أو يعلن ان الهزيمة تمت وكان روميل غائبا فى أوروبا يفتش على الاستحكامات ويدعمها .. أى ان الهزيمة وقعت بسبب غيابه عن الجبهة ولو بقى روميل فى الجبهة ما استطاع مونتجمرى وجنوده ان ينتصروا على الألمان !

ولم يتردد هتلر فى أن يعلن أن القوات الألمانية تنسحب لأنها انهزمت .. دون ذكر لغياب روميل !

أما المعنى فهو أن هتلر يريد ان يقول انه انهزم مع وجود روميل . فالهزيمة لا شك فيها . وان على الجنود ان يدركوا ان روميل الاسطورة من الممكن ان ينهزم . وقد انهزم !

وكان ذلك هو القرار الصحيح . لانه لو أعلن ان الهزيمة تمت فى غياب روميل . لتساءل الجنود . ولماذا غاب ؟ ومن هذا الجاهل الخائن الذى أصدر قرار غيابه ؟ ولابد من عودة روميل ليحقق النصر . وعلى ذلك يطالب الجنود بضرورة أن يعود القائد الاسطورة . فلماذا لم يعد القائد ، تزايدت الشكوك على الجبهة وعلى الجبهات الاخرى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحقيقة انه غاب عن الجبهة .. ولكن ليس من المصلحة أن يقال ذلك . وانما الكذب اسلم . لقد انهزمت ألمانيا . وليس من الضرورى ان يعرف الناس ما الذى حدث بالضبط .. وانما سوف يجيء وقت ليعرف الناس تفاصيل ما حدث !

هذه النظرية هى القاعدة الاولى لنظرية اوسع اسمها : نظرية ادارة الازمات .. فن ادارة الازمات ..

وقبل أن أقارن بين الذى حدث فى هزيمة سنة ١٩٦٧ عندنا ، يجب أن أشير إلى ما فعله الامريكان فى ادارتهم لازمة فيتنام ـ هزيمتهم فى فيتنام . لقد استخدم الأمـريكان قوات ضخمة وأحدث اسلحتهم الفتاكة للانسان والحيوان والنبات . ورغم كل ذلك انهزمت امريكا .

فكيف أدار الامريكان هذه الأزمة ؟

كان عندهم هدف أهم من الحرب . هو أن يظل الشعب الامريكى والعالم كله يصدقهم . يجب أن يظلوا مصدقين مهما حدث . فالهزيمة والنصر تجيء فى الدرجة الثانية . أما الذى يجيء فى المقام الأول فهو أن امريكا لم تكذب . ولن تكذب . وأنها سوف تصارح العالم بما حدث .. يجب أن يصدقها الناس فى الحرب القصيرة والسلام الطويل .. يجب أن يصدق العالم كله .. التاجر الامريكى والمهندس والمدرس ورجل الدين والسياسى والرئيس ورجاله .. يجب أن يصدقهم الناس إذا تحدثوا عن الهزيمة وعن ويلاتها واثرها العميق على الشباب وعلى صورة البطل الامريكى والأمل الامريكى .

وهكذا خرجت امريكا منهزمة عسكريا منتصرة سياسيا فى معارك فيتنام . وعندما ثار عليها الشباب وتظاهروا ضدها ، أعلنت ان الشباب على حق وانها هى التى اخطأت فى احدى عمليات الحساب ، لا فى كل الحساب .. وانتهت ازمة فيتنام لصالح الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى أيضا !

بينما فشلت امريكا قبل ذلك فى معركة خليج الخنازير أيام الرئيس كيندى . فكان الذى يهم الرئيس كيندى انه انتصر وسوف ينتصر . أما الحقيقة فلم تكن تهمة . فكذب ورجاله أيضا . ولم تؤد الصواريخ السوفيتية فى كوبا إلى اختلال فى توازن الرعب النووى من الشرق والغرب !

فماذا كان يحدث لو أعلن الرئيس عبد الناصر اننا انهزمنا عسكريا سنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٩٦٧ ؟ وانه هو المسئول عن الهزيمة . أو اعلن أننا انهزمنا ، وترك لنا أن نفهم أنه هو الذى انهزم - أى هو ورجاله وكل استراتيجية الحرب وتكتيكات الدفاع .. وأن الهزيمة ليست نهاية مصر ولا نهاية الصراع بين مصر واسرائيل .. وأن الحرب لابد منها ، وأن التعبئة العامة مؤجلة .. الخ .. وترك حكاية الفاعل الحقيقى للهزيمة الى ما بعد سنة او سنتين .. لو حدث لتغير الكثير جدا فى ظروف مصر العسكرية والسياسية . وأهم من ذلك ما تركته هذه الصاعقة الصريحة الجريئة من أثر على حالتنا الاجتماعية والنفسية ..

ولكننا لم نكن نعرف نظرية تشرشل ولا فلسفة جوبلز .. وانما كان الارتجال والحداقة والفهلوة هى التى جعلتنا نشير الى عبد الناصر الذى يشير إلى عبد الحكيم عامر الذى يشير إلى صلاح نصر الذى يشير الى اعتماد خورشيد ! ! فلا أحد فيهم مسئول عن الذى حدث .. ولكنه شخص ما ، رجل أو سيدة ، مصرى أو أجنبى أو عفريت هو الذى أدى إلى الهزيمة العسكرية ..

ولو كان جوبلز وزيرا للاعلام المصرى ، لقام بتعميق الشعور بالازمة .. حتى تتمكن الازمة من كل النفوس .. ومع الازمة حزن الزعيم على الذى كان .. على الخيانة الامريكية للشعوب العربية كلها والشعب المصرى بصفة خاصة ومحاولة القضاء على الزعيم ودفنه حيا بين جنوده . ويكون الحداد شاملا والحزن عميقا . وفجأة بعد أن يتأكد لدى الناس أنها الهزيمة .. وأن القتال سوف يستمر بأسلحة أخرى يعلن أن الزعيم لم ينهزم ، وانما هى غلطة من غلطات الزعيم - الذى لا يخطىء - انه كان عميق الثقة بأعز اصدقائه . ويتجه الناس الى الصديق الخائن .. فالصداقة من الممكن أن تؤدى الى الخيانة ، أى من الممكن أن يخونك اقرب الناس اليك .. ومن الممكن ان تعميك الثقة بالصديق ، وان يعميك الصديق عن ان ترى الحقيقة .. حقيقة الصديق وحقيقة الواقع .. وهكذا يؤدى كشف الغطاء عن الحقيقة الى انهيار الاخلاق ايضا .. ويصبح الانهيار تاما : عسكريا واخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا .

وفى مواجهة هذا الضياع المفاجىء لابد من التلويح بأطواق النجاة . ومن أحق الناس بأن يكون « نوح » الجديد غير الزعيم .. انه زعيم الحرب زعيم السلام .. انه هو الذى هدمنا ، وهو الذى سوف يبنينا .. وهو الذى أماتنا وسوف يحيينا ، وهو الذى مسح بنا الارض ، وسوف يمسح بنا السماء .. انه وانه - ولحسن الحظ لم يحدث كل ذلك . وانما حدث استعراض ركيك لفن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسرحى هزيل جدا . عندما حشد الزعيم رجاله يطبلون ويزمرون ويطالبون بعودته . ولا يهمك الهزيمة ولا الف هزيمة ياريس .. اركب ياريس .. خدودنا مداس ياريس .. وضربك لنا بالجزمة شرف ياريس !

وكل هذا لا يهم ، سواء كان تطبيقا ناجحا أو فاشلا ، لنظرية ادارة الازمات . ولكن الاخطر ، ولا يزال خطيرا ، هو اننا لم ندرس لم نفهم لم نطل ماذا حدث فى مصر بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وبعد انتصارنا سنة ١٩٧٣ ؟ .. فكما كانت الهزيمة فالنصر كان أزمة ايضا . فقد خلقت موقفا معقدا . وقد تضاعفت العقد وركبت بعضها البعض ، حتى أصبح من العسير علينا أن نعرف البداية والنهاية .. وان نعرف اين نحن واين كنا وإلى اين ..

وكما ان هناك أجهزة للرادار فى الطائرات ترسم شكل الجو .. شكل السحب ومواقع المطبات الهوائية والشحنات الكهربائية .. فيستعد الطيار .. والركاب بربط الحزام وعدم الحركة .. أو بالدعاء والصلاة .. فهناك موقف آخر للطيار نفسه .. كيف يدخل المطب وكيف يخرج منه .. ويكون اتجاه الريح معاكسا ، ويكون اتجاه الريح مناسبا .. وتكون الطائرة فى قلب الاعصار .. فى عين الاعصار .. نحن أحد اطرافه .. هل يعلو الطيار فوق الاعصار .. هل يهبط تحته ، هل يقتحمه .. هل يخاطر .. وكلها حسابات دقيقة . فما هذا الذى حدث ويحدث فى هذا الوقت القصير وبهذه السرعة الكبيرة وعلى هذا الارتفاع الشاهق وبهذا العدد الكبير من المسافرين ..

إنها ازمة .. انتظار للازمة .. دخول فى الازمة .. تلاحم مع الازمة .. احتواء لها .. خروج منها وانتصار للعلم والعقل والاعصاب ونجاح لصناعة وفن الطيران والرحلات بين القارات .. وعودة الى ركوب الطائرات من كل نوع فى اى وقت !

وماذا تحدثه البراكين والفيضانات والسيول والجفاف والحرائق والسحب السامة والاشعاعات النووية .. وكلها مقدمات لازمة وازمة وحل لكل مشاكلها بعد ذلك !

فما الذى انتهينا اليه فى مصر ـ اقصد دراويش الرئيس عبد الناصر : ان الهزيمة حدثت فى غيابه .. وان النصر ايضا حدث فى غيابه .. فاذا غاب انهزمنا ، واذا غاب انتصرنا .. اى انه انهزم حيا ، وانتصر ميتا ـ كيف ؟ !

ماذا حدث فى عالم الادب والفن ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف كانت الهزيمة .. كيف تلقينا كل ذلك .. كم من اشعاعاتها السامة امتصتها أرضنا وسماؤنا وأجسادنا وأقلامنا .. كيف واجه المفكر والاديب والفنان والمدرس وخطيب المسجد هذا الذى حدث .. ماذا قلنالبعضنا البعض .. ما الذى قاله الاب للابن .. وماذا يقوله الابن الذى هو فى العشرينات الآن .. وماذا سيقوله هو ايضا لابنه .. وهل ابن العشرين يكن اى احترام لوالده .. وهل يتصور أن ابنه سوف يحترمه هو ايضا .. ولماذا انعدام الاحترام بين الجميع .. فما هذا الذى لم نعد نحترمه . اننا وقعنا فى الذى حرص الامريكان الا يقعوا فيه بعد فيتنام . ان تغرق الدولة والشعب فى بحور الكذب .. الكل يكذب .. ولا احد يصدق أحدا . واذا كنت انت لاتصدقنى فما الذى يدعونى الى الكلام .. واذا كنت كلما فتحت فمى بكلمة . فتحت فمك بتثاؤب .. فاذا تثاءبت انسدت اذناك ..

دخلت مصر مرحلة التثاؤب الطويل . الكل يتكلم والكل يتثاءب .. الكل يتكلم والكل لايسمع . ماسم هذا الحوار بيننا ؟ . مامعنى هذا الاصرار على الكلام والصمم .. مامعنى الافواه التى فتحناها والآذان التى سددناها ..

إن روحا من « الهزل » قد أغرقت مصر بعد الهزيمة العسكرية .. الكل يهذى ويهزل .. أو الكل يهزل فهو هذيان ، أو الكل يهذى فهو هزل !

ليس بالضبط كذلك . ولكن الاصح ان نقول إننا دخلنا فى حالة من « العبث » ـ أى اللعب فى موقف الجد . والجد فى مقام اللعب ...

فالعبث معناه الفلسفى : فقدان المعنى .. فقدان المنطق .. فقدان دلالة الالفاظ .. تماما كما تمتلىء جيوبك بعملات ورقية كانت لها قيمة .. ولسبب ماألغيت .. فاصبحت ورقا لاتساوى وزنها ترابا .. وكذلك الكلمات أصبحت بلا عائد بلا مدلول ..

بلا معنى .. فالكلمات اصوات .. وليس غريبا ان نقابل هذه الاصوات بلا آذان .. هن .. حق .. ها .. بها .. شوها ـ مثل هذه الاصوات تخرج من الصحف ومن الاذاعة ليلا ونهارا .. من يطلقها يعلم انه لايقول شيئا ، ومن يسمعها يعلم انه لاشىء .. ولكن هناك اصرار على ان يقال ، وعلى ان يسمع ! وقد تنبأ الرئيس جمال عبد الناصر بحالة العبث هذه فى كتابه « فلسفة الثورة » . فقد اشار الى نفسه وزملائه الثوار كأنهم شخصيات فى مسرحية الكاتب الايطالى بيراند للو ـ المسرحية اسمها « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . يريد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرئيس عبد الناصر ان يقول من الفهم البسيط لعنوان المسرحية ـ هو يسميها (رواية) ؟ ! انهم كانوا حائرين بأفكارهم واشخاصهم يبحثون عن واحد ينظم لهم افكارهم واهدافهم او يضعهم فى النص الصحيح ويطلقهم على المسرح ادوارا فى الحياة !

هذا هو الفهم العابر البسيط لعنوان المسرحية التى لم يقرأها الرئيس قطعا .. ولكن المعنى الذى قصده المؤلف الذى اصدر هذه المسرحية عندما كان الرئيس فى الثالثة من عمره ، فهو شىء آخر تماما .. فالمسرحية تصور مجموعة من الممثلين يقومون ببروفات لاحدى المسرحيات . وفجأة ظهر ستة اشخاص يقتحمون المسرح ويواجهون المخرج ويقولون له : ان مؤلفا قد اخترعنا جميعا . فكل واحد يعرف اسمه ورسمه ومكانه فى الحياة . ولكن المؤلف لم يشأ ان يكملنا .. فكل واحد منا هو حقيقة الا قليلا . ونحن نريد ان تؤدى ادوارنا التى خلقنا لها .. وهى مفاجأة كبرى للمخرج وللممثلين الآخرين .. فنحن أمام شخصيات لها قوة الواقع ، وامام ممثلين يحاولون ان تكون لهم قوة .. وممثلين يحاولون ان يقوموا بأدوار هذه الشخصيات .. وهؤلاء الممثلون لايستطيعون ان يؤدوا ادوار الشخصيات .. لان الشخصيات « تعيش » أدوارها .. بينما هؤلاء الممثلون « يؤدون » ادوار الشخصيات ..

أى ان هناك واقعا ووهما .. والشخصية لها واقع ادبى ولكنه واقع قوى .. والممثلون لهم واقع مسرحى ، وهو واقع وهمى ..

فالمؤلف بيراند للو يريد أن يقول ان كل شىء وهم .. وكل شىء وهمى بدرجات متفاوتة ..

وأعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استراح إلى هذا المعنى لأنه فعلا لم يكن يدرى بالضبط ما الذى يفعله بنفسه وزملائه وبلده .. فلا عنده نظرية ولا مذهب سياسى . ولا كان مؤهلا لكل ماحدث بعد ذلك .. وهذا واضح فى الأسماء المختلفة التى أعطاها لنفسه ولزملائه الثوار .. قالوا : الحركة المباركة .. وقالوا الانقلاب .. وبعد ذلك قالوا : الثورة .. وواضح أنهم كانوا يبحثون عن المؤلف .. ووجدوه .. فراح يصوغهم ويصوغ أفكارهم .. ويجرجر وراءهم الشعب المصرى والعرب من المحيط إلى الخليج ..

والشيخ أحمد حسن الباقورى فى كتابه « بقايا ذكريات » فرغ من النشيد الذى كان يتردد فى الخمسينيات :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من المحيط الهادر
إلى الخليج الثائر
لبيك عبد الناصر !

كأنه لازعماء ولا رؤساء ولا ملوك .. هو فقط .. وهو أيضا يقال له : لبيك .. لبيك !

وبعد ذلك كان عبد الناصر يستمع إلى من يقول له : إنه استطاع أن يوحد بين العرب كما لم يستطع الرسول عليه السلام ؟ ! ـ إقرأ مذكرات الشيخ أحمد حسن الباقورى !

ولم يكن يضيق بذلك .. بل أن هذا هو المعنى العميق الدفين .. هذا المعنى لم ينطلق إلا مع رصاص حادث المنشية .. فقد كان يصرخ ويقول : إن قتلونى فقد قتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .. ولكننى إذا قتلت يجب أن يتذكر المواطنون أننى منحتهم الحرية والعزة والكرامة .. سيبنى ياشيخ أحمد !

ولم يعترض عبد الناصر عندما أعلن بعد ذلك أحد من الصعيد أنه نبى .. أو كأنه نبى .. أو أنه من أهل البيت !

أذكر أننى كنت أتناول طعام العشاء مع الأمير أحمد فؤاد وزوجته الأميرة فضيلة فى باريس . والأمير فؤاد أو الملك السابق لمصر شاب طيب بسيط محب لمصر .. ومنتهى أمله أن يكون عنده جواز سفر دبلوماسى ليدخل ويخرج من مصر كأى مواطن مصرى .. والأمير فؤاد طبعا لايعرف ماذا حدث له ولمصر .. فهو ولد يوم حريق القاهرة .. ولد ملكا (سابقا) .. وخلع من الملك وهو لايدرى .. فكنت أداعبه وأقول لـه : إنها غلطة والدك .. فقـد هوشة على مـاهر .. فخاف أبوك مع أن ضباط الثورة كانوا أكثر خوفا منه ـ ولو صبر أبوك قليلا ، لكنت ولاتزال ملكا لمصر .

ولا استحال على واحد مثلى أن يتناول العشاء معك الأن ! وكان يضحك هو وزوجته ..

ولما سقط الملك نهض الضباط الشبان ودارت رؤوسهم ودرنا حولهم .. لانحن عارفون ولاهم .. هم يبحثون عن مؤلف ونحن نبحث عن مخرج .. وكان ماكان .

ولكن الذى تنبأ به الرئيس عبد الناصر قبل الثورة ، قد وقع بعدها . وكان ذلك هو الطبيعى والمنطقى . فبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وقبلها بقليل ، كانت مصر تهيأت تماما لقبول « العبث » كواقع حقيقى صادق .. لقبول المعنى الغائب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واللفظ الحاضر على أنه حقيقة الشعور المتبادل بين الكاتب والقارىء .. فقد غاب من هوائنا الأوكسجين ، وانحسرت عن ألفاظنا المعانى .. وكانت الصحوة مثل الدوخة تماما .. والذى فى يده زجاجة حبر كالذى فى يده كأس .. ولم نعد نعرف إذا ذهبنا إلى المسرح إن كانت الستارة أمامنا أو وراءنا .. إن كان الممثلون فوق أو هم تحت .. أو كنا نحن الممثلين والمؤلفين والمخرجين معا .. أو أن الذى تراه ليس الا حلما وهميا . فنحن أيضا نبحث عن مؤلف ومخرج ونص ومسرح .. فكله تمثيل فى تمثيل .. كذب فى كذب .. وهم فى داخل حقيقة فى قلب وهم .. ضاع الناس من الناس .. وضاعت الدنيا من العين ، والصدى من الأذن .. والمستقبل من الحاضر !

وكان من الطبيعى أن تظهر مسرحيات « العبث » فى مصر . وظهرت . وترجمنا . وتحمسنا . ظهرت مسرحيات يونسكو وأداموف وبيكت .. وقبلها مسرحيات برشت .. وبعدها مسرحيات توفيق الحكيم : ياطالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتسقينى بالمعلقة الصينى .. فكما ترى طالع الشجرة سيجد فوقها بقرة ، والبقرة تدر لبنا واللبن تشربه بملعقة صينى .. وترى كل ذلك معقولا مقبولا . فكلنا نطلع الشجرة ، ونتخيل ذلك ، ونجد أبقارا حقيقية تدر لبنا وهميا لتشرب بمعلقة ذهبية صينية خشبية ؟ !

مجانين نحن ؟ نعم ولكن بعضنا عقلاء .. ولكن العقلاء إذا تكلموا لم يستمع إليهم أحد . والحل ؟ لقد وجد توفيق الحكيم الحل أيضا فى حكايته عن « نهر الجنون » .. الناس شربوا من هذا النهر فكانوا مجانين .. ولكن ظل الملك وحاشيته عقلاء .. ولكنهم عاجزون عن التفاهم مع المجانين .. والحل هو أن يصيروا مجانين فشربوا من نهر الجنون . وصاروا .. والجنون فنون ـ أى الجنون أشكال وألوان .. ومن الجنون أن نبقى عقلاء والأغلبية مجنونة ، ومن العقل أن نصبح مجانين كالأغلبية !

فماذا كان يقول مسرح العبث فى الستينات فى مصر ؟

يكرر ماقاله مسرح العبث فى أوروبا كلها : إن الكلمات لامعنى لها .. وإن الاتصال بيننا مستحيل .. لأن اللغة هى وسيلة الاتصال بيننا .. وحيث لاتوجد لغة ، فلا صلة .. ولا اتصال .. ولا توصيل .. ولا تواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل .. وأنما نحن فى حالة الغيبوبة ـ التى هى حاضر باهت لماض غامض ومستقبل أكثر غموضا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى مسرحيات الكاتب الفرنسى الرومانى الأصل « يونسكو » نجد ممثلين على المسرح يتحركون ويقدمون المقاعد والطعام والشراب لأناس لا وجود لهم .. ومطلوب من المتفرج أن يشاهد وان يصدق .. يصدق هذا الكذب .. هذا الوهم .. هذه الخرافة .. أى يصدق ان هناك أناسا أو عليه أن يتخيل ذلك .. دون أن يكون هناك معنى .. وليس من حق المشاهد أن يطلب من الممثل ان يكون منطقيا .. ولو فعل لنزل الممثل وصفعه ثلاثة اقلام على خديه الأيمن والأيسر وعلى قفاه وهو يقول له : وهل أنت منطقي ؟ وهل أنت عاقل ؟ فكيف أكون أنا ؟

وقد اعتاد يونسكو على أن يجد مسرحيته المسماه « الكراسى » بلا جمهور .. اى ان الستار ينفتح على عدد هائل من الكراسى .. فعلى خشبة المسرح عدد من الكراسى الخالية وفى الصالة أضعاف هذا العدد من الكراسى الخالية ..

يقول يونسكو : فعلا المسرح مرآة الواقع .. فاعظم تحية للمؤلف أن يواجه الجمهور هذه الكراسى الخالية على المسرح باضعافها من الكراسى الخالية فى الصالة !!

فبالذمة لماذا هذه المسرحية ؟.. ولماذا المسرح اذا كان المؤلف لا يهمه ان يذهب الناس ؟ بل يسعده ألا يذهبوا ؟ اليس هذا هزلا ـ اقصد عبثا اضافيا لعبث النص والمسرح ؟! إنه فعلا عبث . ولكن ليس من حقك أن تسأل عن المعنى لاننا اتفقنا على انه لا معنى .. وليس من حقك أن تسخر منه ، لأنك يجب أن تقدم له معنى يقبله هو لكلمة السخرية ..

وهذا ما حدث فى مصر : ماالذى يمكن أن نقوله للناس عن البطل والنصر القريب والهزيمة المؤكدة ؟.. أين الهام البطل الملهم والزعيم الخالد .. وأين المحيط الهادر والخليج الثائر لبيك عبد القاهر والظافر ؟!

هل يقول للناس إنهم لا يفهمون فى الحرب فكيف تناقشون النصر والهزيمة ؟ وأنتم لا تفهمون فى الاستراتيجية والتكتيك فكيف تناقشون فى العروبة والاسلام والفرعونية والوطنية ؟ ثم ان هذه الكلمات التى تستخدمونها قد تغيرت معانيها ؟ وقواعد اللعبة السياسية والعسكرية والاخلاقية قد تغيرت قواعدها ـ ولكن دون إخطار سابق .. ولكنها تغيرت والسلام !

يعنى تغيرت ولكن ليس من الضرورى إخطار الناس بذلك ـ لأنه معنى للناس وقيمة للناس وما شأن الناس بشئونهم وحياتهم والافكار والقرار ؟!

وأحس المصريون فى ذلك الوقت أنهم فى اواسط افريقيا .. وأنه حدث لهم ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحدث للناس السذج هناك .. ففى اواسط افريقيا قبائل تغير اسمها كل يوم .. ويقوم كل فرد بتغيير اسمه . فتناديه باسمه الذى كان معروفا به بالأمس فلا يرد .. وتظل تحاول ولكنه لا يرد .. لأنه غير اسمه دون أن يخطرك .. فاذا حاولت أن تهتدى ، فانه لا يساعدك .. فكأنه غير اسمه حتى لا يناديه أحد ، فلماذا الاسم ؟ فكأنه جعل لنفسه اسما لا يعرفه سواه .. مع أنك لست فى حاجة الى اسم لكى تنادى به نفسك .. وانما هذا الاسم ليناديك به غيرك ويميزك عن الآخرين .. فالدولة والقيادة والزعيم هو هذا الذى يغير اسمه واسم القبيلة والطعام الشراب وقواعد السلوك .. دون أن يجد من الضرورى أو اللائق أن يخطر بذلك احدا ـ لانه لا أحد سواه !

وانسحبت مسرحيات « العبث » من دور العرض . وانتقلت المسرحيات الى الكتب .. اى ان العبث المسرحى الذى هو صورة للعبث السياسى ، قد قبع فى الكتب .. انتقل الى التاريخ الأدبى !

★ ★ ★ ★

والعبث لايزال موجودا ولكن بصورة أخرى .. فالعبث معناه : انه لا فائدة من شىء .. لا جدوى .. وانتشار المسارح الهزلية فى مصر الآن ، ليس إلا « العبث » ولكن باسلوب اخر .. فكل هذه المسرحيات تسخر من الواقع ومن الناس .. وتسخر من التمثيل والممثلين انفسهم . وقد تحولت المسارح الى حياة مسرحية يشارك فيها الممثل والمتفرج فى الضحك والتضاحك والزغزغة .. الممثل يزغزغ المتفرج والمتفرج يزغزغ الممثل .. والكل يضحك ، والمعنى : ان المسرح هو الزغزغة اليومية لكل الناس وكل القادة والوزراء .. والناس يضحكون ضحكا شاملا ، والمعنى هو انه على الرغم من النقد لكل شىء وكل أحد ، فلا خوف على الممثل ولا على المتفرج ، لأنه لا معنى لكل هذا النقد . فلن يأخذ به أحد ، ولا يخيف احدا .. فكأنه لا مسرح ولا نقد ولا رأى ، وانما غيبوبة من الضحك .. وغيبوبة المعانى والاهداف .. لانه لا معنى لهذا المسرح ولهذا النقد !

واذا كان المفهوم التقليدى للمسرح الضاحك هو ان المتفرج يضحك على عيوبه .. وينفضح امام نفسه وغيره ، وعن طريق هذه الفضيحة الضاحكة أو الضحكات الفاضحة ، يصلح نفسه بنفسه ، فإن مسرح العبث الضاحك معناه : اضحك ولا يهمك .. اضحك ولا تصدق كلمة واحدة مما تقول .. فلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحن نعنى ما نقول ، ولا انت تصدق ما تقول .. ونحن هازلون وانت أيضا . فلا كأننا قلنا ، ولا كأنك سمعت .

فالعبث الاول كان عبث الهزيمة .. عبث الغيبوبة الحزينة ..

والعبث الثانى هو عبث النصر .. عبث النشوة السعيدة .. فالناس بعد الهزيمة كلامهم رمز وهمز ولمز .. وهمس .. والناس بعد النصر كلامهم : زعيق وصراحة وقباحة ووقاحة ..

وعبث الهزيمة : يائس !

وعبث النصر : اكثر يأسا !

* * *

دعنى اضرب لك مثلا آخر ..

افرض أنك دخلت أحد المستشفيات وتنقلت بين ممراته ولم تسمع صوتا لواحد يقول : اه .. ولا رأيت عربة اسعاف .. ولا رأيت غرفة عمليات .. ولا وجدت صيدلية فى هذا المستشفى .. فالمعنى الذى يخطر على بالك : ان الناس جميعا فى صحة جيدة ، ولا مرض ، مادام لا مرض فلا حاجة الى دواء .. ولا عمليات جراحية .. انه مستشفى الصحة والعافية ..

ونفرض انك دخلت مستشفى مجاورا فوجدت الصرخات والصيحات والناس داخلون خارجون . والصيدليات فى كل مكان والاطباء يهرولون وغرف العمليات تتفتح .. هيصة وفوضى .. وأمراض وأوبئة كثيرة !

وملاحظتك خاطئة فى الحالتين : فالمستشفى الاول قد صدرت له تعليمات صارمة الا يفتح المريض فمه ويقول اه .. ولا كلمة ولا نفس فالهدوء اضطرارى والصمت قهرى واختفاء الطبيب إجبارى !

كذلك كانت مصر قبل الهزيمة وبعدها ..

والمستشفى الاخير عادى جدا . طبيعى أن يقول المريض : آه وأن يقولها طويلة وقصيرة وأن يسأل عن الدواء ويجده .. وأن يفزع الاطباء واهالى المريض .. وأن يلعن الناس المرضات .. والدواء المغشوش والاجور المرتفعة .. فالضوضاء هنا ليست فوضى .. ولكنها الحرية فى مواجهة الازمات العادية فى حياة الناس . وكذلك كان الناس فى عصر السادات .. يقولون ويصرخون .. وتتعالى اصوات الرأى والآراء الاخرى وتكون ابواب ونوافذ ومداخل ومخارج وتنفتح مصر على الدنيا ، والدنيا عليها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن « العبث » لايزال نصا واخراجا وفرجة .. فكما أن المسرح العبثى كان خاليا من الممثلين ، وكانت الصالة خالية من المشاهدين ، فكذلك مسرح العبث اليوم .. المسرح مليان بالناس الواقفين ، والصالة أيضا قد غصت بالواقفين ، لان المقاعد قد ضاقت عنهم .

ومن اهم معالم مسرح العبث القديم انه لا يوجد « بطل » واحد طويل عملاق والناس حوله اقزام .. او واحد طرزان يقفز بين الأشجار وينتصر على الحيوانات ويقتلها دون ان يصاب بسوء .. لا احد كذلك فى الواقع ، ويجب ألا يكون أحد من مثل ذلك على المسرح .. لأن الابطال هم الانبياء بلا كتب مقدسة .. او هم الانبياء فى غيبة الانبياء ..

أما السبب فهو أن الحضارة الغربية قد اصابتها الكوارث بسبب الزعماء الانبياء .. بسبب هؤلاء الابطال الذين يمشى وراءهم الناس عميانا لا يفكرون ولا يديرون ، ثم كانت المصائب الكبرى .. مصائب هتلر وموسولينى وستالين وفرانكو .. والشعوب تنظر إلى الابطال نظرتها إلى الاشخاص الافذاذ القادرين على انقاذ البشرية من ويلاتها وعثراتها .. ولكن الشعوب من الممكن أن تقتل ابطالها ، إذا الابطال خانوا الشعوب ..

فالبطل الذى يجعل الناس تستسلم له تماما ، وتترك له الافكار والقرار ، اذا هو سقط .. أو انهار .. أو ضعف فان الشعوب تشعر انه غدر بها .. انه صدمها فى عزيز لديها .. وانه اذا كان سبب العظمة ، فقد أصبح أساس الهوان .. وينسون ما كان لهم على يديه ، ولا يذكرون إلا ما اصابهم بسببه .. فيقتلونه .. بقتلون الخائن الغادر . ولا يدركون انه هو هو القاهر الظافر الأمين ..

وكان من الممكن أن يغتال عبدالناصر أقرب الناس إليه .. وأحبهم أيضا ـ أى أكثرهم حبا له .. ولنفس هذه الأسباب ، تماما كما تفعل المرأة العاشقة إذا خانها العاشق .. فان انتقامها رهيب والشعوب أيضا !

ولذلك كان اغتيال السادات منطقيا .. أن يقتله ضابط فى يوم عيد الضباط والجنود ، لماذا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نهاية كرة القدم :
بداية كرة الندم ..!

قال أمير الشعراء أحمد شوقى :

نحن الكشافة فى الوادى
جبريل الروح لنا حادى .
يارب بعيسى والهادى
وبموسى خذ بيد الوطن !

* * *

فى السهل ترف رياحينا
ونجوب الصخر شياطينا
نبنى الابدان وتبنينا
والهمة فى الجسم المرن !

* * *

الرياضة أصبحت حقدا وعنفا ودما وسفالة ـ انها حرب لا ينقصها إلا الديناميت !

الله مع الفريق الذى عنده أحسن مدرب !

* * *

لم أجد رياضية واحدة تقول انها قادرة على شغل البيت !

* *

مصارعة الثيران يكرها الناس لا لأن فيها تعذيبا للثيران ، وانما لأن فيها تعذيبا للانسان !

*

الفرق بين الرياضة والحب ان الرياضة تتوقف عندما تظلم الدنيا !

*

اعظم رياضة الآن : الفلوس !

*

عندما يقتل الانسان نمرا فهى رياضة ، عندما يقتله النمر فهى وحشية !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا هو المعنى التربوى الاخلاقى الوطنى للرياضة :

صحة وعافية وعمل وبناء وظل هذا هو المعنى للرياضة والألعاب الرياضية الى وقت قريب جدا .. أما بعد ذلك فقد فسدت الرياضة وأصبحت تجارة وشطارة ..

مع أن الرياضة هى أعظم هروب من متاعب الحياة اليومية . فأنت الى عملك تذهب وتتزاحم وتجلس وتقع الضغوط على دماغك .. وتركز على الذى امام عينيك وفى يدك .. ومن الشد والجذب والتوتر والضغط على غيرك يكون التعب والارهاق والعجز عن العمل والمشاركة والانتاج . هنا تجىء الرياضة فتنقلك من حالة من الوعى الى حالة أخرى .. ومن تركيز الى تركيز من نوع آخر ..

وتكون الرياضة مثل هروبات أخرى مختلفة : الجنس والمخدرات والخمور .. فهى تنقل الانسام الى درجات أخرى من الوعى وشبه الوعى واللاوعى ..

والفارق بين الرياضة وبين هذه الهروبات المختلفة أن الرياضة ليست لها مضاعفات جانبية .. فالذى يتعاطى الرياضة ليس كالذى يتعاطى الخمر و الحشيش يصاب بالدوخة أو الصداع أو التقلصات المعوية والمعدية ..

والرياضة نشاط انسانى ليس له فائدة مادية .. والذى يلعب ليس كالذى يزرع الأرض أو يصنع الزجاجات .. أو يزيد مساحة الأرض المزروعة .. وانما الانسان يلعب ، لأن اللعب متعة . ولأن هذه المتعة تقضى على متاعب أخرى .. فهو يلعب لأن اللعب غاية .. هدف ..

ثم ان الرياضة تطلق خيال الانسان وتجعله يعيش فى عالم آخر .. ليس هذيان المخمور أو المسطول .. وإنما ان تذهب الى الملعب وتجلس بين المتفرجين . وأمامك حدود وسدود .. لك حدود لا تخرج عنها . واللاعبون قد رسمت لهم على الأرض حدود .. هذه الحدود من الرمال ومن الطباشير .. حدود يمكنك أن تمسحها بجزمتك .. ولكن هذه الحدود لها قوة القانون .. أنت لا تدخلها واللاعبون لا يخرجون منها .. وهذه الحدود لها قوانين . هذه القوانين فالقاضى له ضميره . ونحن نتركه لضميره . حتى لو اخطأ . فلا استئناف لحكمه . واللاعبون كأنهم معتقلون .. معتقلون بارادتهم .. فالناس بين العلامات البيضاء لهم عالمهم .. دنياهم .. فقد حبسناهم مع القاضى فى محاكم علنية .. هم يلعبون والقاضى قد انفرد بهم .. ونحن نتفرج ونصرخ وكأنهم لا يسمعوننا .. وهم يلعبون وكأنهم لا يروننا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفرجة على اللاعبين تستغرقنا .. تغرقنا فى حماس وبهجة ومتعة ..

ونحن المتفرجين قد ساوت الرياضة بيننا .. فأنت لا تنظر الى جارك من هو ولا ماذا يعمل ولا ماذا يرتدى ولا ماذا يقول .. قد يصرخ ويبكى وقد ينفجر فيك صارخا أو شاكيا .. وقد يشتم ويلعن .. وقد يكون واحدا من المشتومين أخاك أو ابنك .. وأنت لا ترى فى ذلك اهانة شخصية .. وانما هذه الاهانة هى من شروط اللعبة .. اللاعب يقبلها .. والمتفرج يقبل عليها .. وكما ان اللاعب يرضى مقدما أن ينكسر وان يقع على الارض .. واذا طال وقوعه على الارض فان الجماهير تطالب باخراجه حتى لايتوقف اللعب .. فاللعب أهم من اللاعب .. والمتعة والاثارة هما الهدف ..

فاللاعب المكسور على الارض يفسد هذه المتعة . وقد يكون اللاعب المكسور هو مصدر المتعة .. هو الذى أحرز هدفا بعد هدف .. ولو .. ولكنه فى هذه اللحظة يوقف مسار الاثارة .. ولذلك يجب أن يخرج .. هذه القسوة من المتفرجين يقبلها اللاعبون ، كما يقبلون الاهانة والبهدلة من المتفرجين .. انها شروط اللعبة . واللاعب قد وافق عليها قبل ان ينزل الى ما بين العلامات البيضاء .. التى هى حدود ذلك العالم المثير الذى يشعل النار فى خيال اللاعب والمتفرج ..

والرياضة تحتاج من اللاعب الى البراعة والذكاء والمقامرة والتركيز على الاهداف .. هذه هى الرياضة جوهرا وشكلا وأسلوبا وغاية .

والرياضة لاتساهم مثلا فى صراع الانسان من اجل السيطرة على قوى الطبيعة : الشمس والماء والهواء والجوع والمرض والجهل والظلم . لا شأن لها برفاهية المجتمع أو تنظيم النسل أو سعادة الاسرة .. لا شىء من ذلك ! فالرياضة نشاط بلا فائدة مادية ..

ولذلك استحقت الرياضة بكل أنواعها عداء رجال الاصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى . لانها تشغل الناس عن الانتاج . ولانها لهو . ولانها مضيعة للوقت والطاقة والمال . ولانها تضع أمام الناس نماذج لا قيمة لها . وأنها تغرى الناس بأن يلعبوا وأن يهربوا ..

ويقال إن الرياضة هى من مظاهر الترف عند الاغنياء هم الذين يلعبون . فليسوا فى حاجة الى زراعة الارض أو صناعة الطعام ـ فعندهم من يقوم بهذا العمل . والاغنياء هم الذين ساعدوا على بقاء الرياضة . لانهم قد اكلوا وشربوا وناموا وقاموا يكملون المتعة بالفرجة على اللاعبين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان ذلك هو جوهر النقد الذى وجهه المصلحون الى اللهو الرياضى .. وعندما ظهرت الاشتراكية رأى الاشتراكيون أن الاقطاعيين والرأسماليين يشجعون الرياضة لأنهم يشجعون الحرب والدمار وتسخير الشعوب من أجل اطماعهم التوسعية . فالرياضة ليست إلا نوعا من العسكرية .. من الانتظام والالتزام والعنف والهجوم والدفاع .. وليست الا تشجيعا على الصراع والخلاف والازمات .. والتعصب للفريق وللوطن .. وليست الا نوعا من التفرقة العنصرية .. وذلك بتمجيد الرجال والرجولة وفى ذلك عداء للمرأة .. أى ان الملاعب هى المصنع الحقيقى لكل الاحقاد واثارة الغرائز من أجل القتل والحرب والموت .

وفى العصر الحديث ، وفى الدولة النازية الشمولية كان الشعار الهتلرى : القوة عن طريق المرح .. أى القوة العسكرية عن طريق اللعب واللهو .. فقد شحنت المانيا كل أطفالها وشبابها جيوشا تحت التمرين الى أن تجىء لحظة الحرب . وجاءت . وكان وقودها ملايين الشبان الاصحاء ..

ولم تختلف النظريات الماركسية والنازية عن الرأسمالية أيضا .. فكلها تنظر الى الرياضة على انها وسيلة لتحقيق القوة والصحة والجمال والحرب .

فالرئيس كنيدى مثلا أنشأ مجلسا اسمه ، مجلس اللياقة الشبابية ، يقول فى برنامجه : إن نعومة الشباب وطراوته المتزايدة ، خطر فادح على الأمن القومى !

أو بعبارة أخرى : هناك فرق بين اللاعب والمتفرج .. بين الشاب النشيط المتحفز والمتفرج المسترخى . فإذا استعار اللاعب سلبية المتفرج فهذا هو الخطر . وهو نقد عنيف للمتفرجين أيضا . وتهمة كبيرة أن يوصف اللاعب بأنه متفرج .. أو كأنه يتفرج على اللعب ولا يشارك فيه !

وفى سنة ١٩٦٧ اعلنت حكومة كوبا الماركسية : أن التربية والثقافة والصحة والدفاع والسعادة وتنمية الشعب كلها حلقات فى سلسلة واحدة : الرياضة !

وفى سنة ١٩٢٥ اعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : ان الرياضة يجب ان تستخدم كوسيلة للتجمع الجماهيرى من العمال والفلاحين فى نشاط اجتماعى واحد ..

والدول الماركسية ضد تمجيد الفرد ، وان كانت كثيرا ما تقع هى فى ذلك .. وإلا فلماذا قداسة لينين ونجاسة ستالين ؟ !

ولذلك كثيرا ما رأينا فى تاريخ الماركسية أنهم نزعوا البطولة من الأفراد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجعلوا البطولة للمتظاهرين .. الوف الناس الذين لا نعرف لهم ملامح .. إلا انهم حشد يتدفق كأنهم موج .. طوفان .. حريق .. أعصار . أو بطولة المدن .. المدينة هى البطل .. الحائط .. الكوبرى هو البطل .. أو القلق هو البطل .. أو الصبر .. أو الجليد .. أى شىء وأى نشاط إلا أن يكون فردا محددا .. وكذلك الرياضة هى البطل أو مصدر الفساد .. ليس واحدا من اللاعبين . وانما تجمع اللاعبين ..

ولكن لحسن حظ الرياضة والقيم الفنية والجمالية ، أن قاوم كثير من الشعوب فرض هذه القوالب الحديدية على اللعب .. على متعة الفرجة .. ومتعة الكفاح على أرض الملاعب .. كفاح على أرض الملعب وداخل علاماته البيضاء من الطباشير والرمال .. فقط فى داخل العلامات لا من أجل أن يفوز لاعب بكرة .. أو بالشبكة .. أو الاستيلاء على الملعب .. على النادى على البلد .. أبدا كل شىء بين العلامات البيضاء .. يبدأ داخلها وينتهى داخلها وهذه العلامات على الأرض كأنها جدران من الكريستال .. ترى منها ولا تذهب الى ما بعدها .. هذه هى الحدود والاصول والقواعد .. ارتضيناها لاعبين ومتفرجين ..

وليس صحيحا أن يقال إن المتفرج سلبى . إنه ايجابى جدا . ولكن بصورة أخرى .. أى بالصورة المسموح بها قانونا .. فهو يجىء ويدفع ويجلس ويتحمس ويصرخ ويشترى ويدفع ويأكل ويشرب وهو يحل مشاكله كلها جالسا واقفا صارخا وهو الذى يقوم بتمويل النشاط الرياضى . وهو المسئول عن اتساع الملاعب ورواج صناعة الرياضة .. فالرياضة علوم وفنون وصناعة وتجارة . والمتفرج هو أكبر قوة استهلاكية لكل ذلك !

وفى مواجهة الأزمات الكبرى والهزات العنيفة تختلط الأشياء والعلاقات بين الناس .. ونحن فى قلب الطوفان أو قلب البركان لا نعرف من أين جاء الماء أو جاءت النار والدخان .. نحاول ولكننا لا نعرف .. ولن نعرف إلا بعد ان ينحسر الماء وينقشع الدخان وتخمد النار ، وتسكن الأرض وتستقر عيوننا فى محاجرها وألسنتنا فى حلوقنا .. ورءوسنا فوق أعناقنا وقلوبنا فى ضلوعنا وكل ذلك يحتاج الى وقت .. والآن ليس أو انه .. وانما يجب ان نبعد كثيرا وطويلا من مكان الكارثة .. نبعد فى المكان وفى الزمان لنرى أوضح ونسمع أعمق ، ونكون أكثر حرية وأمانا . والمفكر الفرنسى مالرو يقول : اننا فى حاجة الى مائتى سنة لكى نحسن رؤية الثورة الفرنسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أى فى العام القادم يمكن لأى مفكر أن يقول بوضوح كل ما كان غامضا على المعاصرين للثورة وأحقادها والخائفين منها والخائفين عليها ..

ولكن قبل ذلك لا نملك إلا أن نشير بأصبع فى الكف .. أو الكف كلها أو الذراع .. وليست هذه اشارة كافية . ولكن هذا هو الممكن لكل مائتى سنة ..

وبعد الهزيمة العسكرية فى مصر ارتبكت النظرة وتعمقت الحسرة .. والتفت الناس يسألون : ما الخبر ؟ من فعلها ؟ من أين جاءنا الطوفان من أين تفجر البركان .. من الذى ركب سحابا ، ونطق رعدا ، وامتشق برقا ، وهزم الانسان .. إرادة الانسان . كبرياء الانسان ..

لم نترك أحدا أو شيئا لم نجعله مجرما .. إلا المجرم .. إلا المجرمين حقا !

ولم يكن صعبا على الناس أن يدركوا أن هناك علاقة بين الرياضة والعسكرية .. بين الرياضة التى أفسدها العسكريون ، أو العسكريون الذين أفسدتهم الرياضة .. حتى إذا ذهبوا إلى القتال : راحوا يلعبون .. وكانت الهزيمة فكأن العسكريين كانوا مهزومين قبل أن يحاربوا .. انهزموا فى الملاعب قبل أن يلعبوا فى الميدان .. فلأنهم استغرقوا فى اللعب ، عندما ذهبوا الى القتال استمروا فى اللعب ..

أو لأنهم عسكريون فاشلون فلم يفلحوا فى تحويل الرياضة الى معسكرات الى جيوش تحقق النصر فى النهاية ..

أى أن العسكريين انهزموا مرتين : مرة فى الملاعب ومرة فى الميدان .. وكان الناس يقصدون :

الفريق أول مرتجى رئيس النادى الأهلى .

والفريق أول سليمان عزت رئيس نادى الاوليمبى والفريق أول سليمان عزت رئيس نادى الطيران .. وكان المشير عبد الحكيم عامر رئيس اتحاد الكرة ..

فأما أنهم أفسدوا الرياضة ..

وأما أن الرياضة أفسدتهم ..

والنتيجة أنهم لم يصبحوا عسكريين ولا رياضيين .. ولم يكن فى استطاعة الناس أن يحاكموا كل هؤلاء .. وكل الذى استطاعه الناس هو إدانة الرياضة .. أدانة كرة القدم ..

أذكر أننى كتبت بعد الهزيمة العسكرية مقالا فى الصفحة الأخيرة لأخبار اليوم بعنوان : كرة الندم !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى هذا المقال كنت ألوم على الناس أنهم حملوا الكرة والرياضة مالا تطيق .. فلا الكرة ولا رياضة كرة القدم ..

وإنما هو الجهل بالعدو والاستخفاف بالحرب .. وضياع المسئولية بين الزعيم الكبير والمشير الأسير . بل لو أننا أتقنا الكرة وتذوقنا علوم الرياضة ، لكنا فى الحرب أحسن ولكانت اعصاب المقاتلين والمتفرجين أهدأ .. ولكن دخلنا الرياضة محاربين ، ودخلنا الحرب لاعبين .. فلا أصبنا هدفا ولا استعدنا موقعا .

وفعلنا ما تمليه النكتة الشهيرة : ان رجلا ضبط زوجته مع رجل فى فراشه ، فباع السرير .

نحن أوقفنا المباريات الكبيرة فى كرة القدم أربع سنوات .. خمس سنوات .. خجلا من هزيمتنا .. وخجلا من عجزنا عن الاشارة الى المجرم والمجرمين .. بعنا السرير .. أو اقفلنا نوافذ غرفة النوم حتى لا يرى أحد مسرح الخيانة ومادمنا قد انهزمنا فى الملعب وفى الميدان ، فنحن إذن قد انهزمنا فى كل شىء .. والمواطن المصرى ليس له إلا وصف واحد : انسان مهزوم ـ منتهى القسوة على أنفسنا لأننا قد بلغنا اقصى درجات الندم !

وجاء علينا وقت كنا نندم عند الضحك .. ونرى أن الضحك لايليق بنا ، وانما الذى يليق هو البكاء والحداد ..

ولذلك ظهرت فى أفراحنا فرق موسيقية تردد الاناشيد الوطنية .. لا لأن الناس يريدون ذلك . ولكن لأن هناك شعورا بالندم . هذا الشعور يجعلنا عاجزين عن الاستغراق فى البهجة .. والاستغراق فى اللعب . فكان الفنان محمد نوح يهز الافراح باغنيات : شدى حيلك يا بلد .. وكانت لمحة ندم .. وخزة الم .. وكان الناس يرددون معه ووراءه وبعد ذلك ينصرفون الى الراقصة .. ويصفقون لها بنفس الحماس . وبقيت الراقصة وذهب محمد نوح ، فلم نكن جادين عندما ارتضينا محمد نوح بعض الوقت .. ولا استرحنا الى ذلك .. وانما نحن فى حالة من الاستسلام لأى إنسان يصفعنا على الخد الايمن فنعطيه الأيسر وقفانا ايضا ..

وظهر عندنا مسلسل تليفزيونى اسمه « فرافيرو » .. وهو لا يختلف كثيرا عن السوبر مان أو عن توم وجيرى .. وهاجمته الاقلام ، التى هاجمت الرياضة ، لأن فرافيرو هو المسئول عن تعميق الشعور بالخرافة عند الأطفال والأدباء ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن فرافيرو هذا صانع المعجزات . ومن شأن الايمان بالمعجزة أن يشعر الانسان أنه صغير تافه .. وأنه فى حاجة إلى قوة اكبر .. ومـادام لا يملك هـذه القوة ، فسوف يظل عاجزا ، كسولا .. فى انتظار المعجزة التى لا تجىء . !

وأن فرافيرو هو المسئول عن ارتكاب الناس للجرائم .. كأن الشر والقتل والسيطرة والطمع من اختراعات التليفزيون .. فأين كان هذا التليفزيون يوم ارتكبت أول جريمة على الأرض .. يوم قتل قابيل أخاه هابيل ..

وقبلها قيل إن أم كلثوم هى التى اشاعت الذل والهوان وانتشار الحشيش فى مصر .. بسبب اغانيها الرومانسية للشاعر احمد رامى ..

إن الرمانسية فى فرنسا لم تمنع قيام الثورة الفرنسية .. ثم إن الصينيين الذين زرعوا الافيون ودوخوا العالم كله معه ثم شنقوا كل من يزرعه أو يدخنه ، لم يسمعوا ام كلثوم !

ولكننا نتخبط فى البحث عن المجرم .. وانتهينا إلى أننا جميعا مجرمون . فلا أحد برىء .. فقد شاهدنا وشاركنا وسكتنا . فالجريمة عامة . والادانة شاملة ـ أصابعنا يجب أن ندبها فى احشائنا ، ففى احشائنا يكمن المجرم الذى صفق وطبل وزمر وهتف بالروح بالدم .. وكلنا بنحبك يا ناصر .

ومن قبل الثورة كنا عارفينك . وقولوا لعين الشمس ما تحماشى لاحسن حبيب القلب راجع ماشى .. مهزوما من الجبهة !

ومع الثورة الصناعية .. وتطور أدوات الانتاج وقيامها بكل العمل اليدوى .. وقف الانسان أمام الآلة يساعدها ويراقبها ويستعير منها أسلوبها فى الانتظام والانضباط والصلابة .. فهو الذى اخترع الآلة ، وأصبح آله .. هى التى تضغط عليه . وهى التى تتدخل فى تشكيله النفسى والاجتماعى .. والانسان أيضا مثل الآلة : قطع غيار .. اذا ضعف أو « نعم » كان لابد من استبداله .. لأن الآلة .. لأن المصنع يجب أن يمضى فى الانتاج ..

والمثل الأعلى فى المجتمعات الصناعية هو : صلابة وبرودة وانضباط الالة !

ولذلك أصبحت الحياة « آلية » .. رتيبة .. مملة .. ولهذا كان لابد للانسان ان يفلت من قبضة الالة .. أن يهرب من الرتابة .. من الملل .. أى أنه فى حاجة الى شىء يهزه .. يثيره .. يعصف به .. يشيله ويهبده .. يغرقه ويستغرقه .. ويدوخه .. أى يهرب به من ضجيج المصانع إلى صراخ الملاعب .. ومن الانضباط إلى الانفلات والانطلاق .. والاقلاع والانخلاع .. وكانت الرياضة هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملجأ والمهرب الوحيد .. فاليها هرب وفى أحضانها ارتمى ، ولشروطها استسلم .. فالعمل الممل بلا متعة فيه .. العمل المنضبط لا إثارة فيه .. ولذلك كانت الرياضة هى العلاج لكل متاعب العمل ..

والمثل الأعلى للعمال هو : البلادة .. أى لا يهتز ولا ينفعل . وإنما يستمر .. يمضى .. يروح ويجىء كأنه آلة .. أو بعبارة أخرى ، مت عاطفيا لكى تعيش !

بينما الرياضة تقول : تنفعل أكثر تعش أطول !

ولكن الآلات لاتنفعل .. وكذلك يجب أن يكون العامل والموظف والفلاح !

وكل مواصفات الرياضة مرفوضة تماما فى المصانع فاللاعب يقامر ويخاطر ويضحى ثم إن اللاعب يقلق والمتفرج يقلق .. وكلها صفات وحالات مرفوضة فى المصانع . فلا مقامرة .. فكل شىء دقيق ومنظم . ولايصح أن يتدخل فيه الانسان ..

ولكن ظهور الانتاج بالجملة فى المصانع أدى إلى أن المستهلك أصبح قوة عظيمة .. أى المتفرجون قوة . وهى قوة لاغنى عنها فى الملاعب . قوة لها دور . ودورها هو أن يشعر بها اللاعب . يشعر بوجودها عندما يرى الوانها وأعلامها فى المدرجات ويعتز بصراخها . ويرى أن شروط اللعب الجيد وجودها ..

ولذلك نحن نقول فى وصف المباريات أن جمهور الاهلى يلعب على أرضه ووسط جمهوره . أى أنه مادام يلعب على أرضه ، فهذه قوة ، وبين جمهوره فهذه قوة اعظم وعلى ذلك فلا عذر له إذا لم ينتصر .. فاقصى مايمكن ان نقدمه له : ارضه ومشجعوه .. وإذا لم يلعب النادى على أرضه أو بين جمهوره ، فنحن نتوقع ألا ينتصر .

ومعنى ذلك أن الجمهور قوة . وأن تدخل الجمهور شرط للعب .. أو شرط لاصابة الاهداف .. فنحن هنا قد اقتطعنا جزءا من قوة اللاعبين واعطيناها للمتفرجين !

أكثر من ذلك أدى إلى افساد روح الرياضة : ان اللاعبين ايضا يستعرضون براعتهم او يبالغون فى اصابتهم .. لان الكاميرا تتابعهم . فهم يلعبون للكاميرا .. ويلعبون للجمهور .. وكلما ظهرت صورهم ارتفعت أجورهم ..

والشعار الذى يتردد فى العالم كله هو : الكرة اجوال ! اى ان اهم اهداف اللعب هو أن تكون هناك اجوال ..

فمن أجل الجول يهون كل شىء وندوس كل قيمة وكل مبدأ وكل احد .. فلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعد اللعب لمجرد اللعب هو الهدف .. لم يعد اللعب الجيد هدفا .. لانه ليس أسهل من ان تقول ولكن ماالفائدة ؟ أى مافائدة أن تلعب دون أن تهز شبكة .. كيف نعرف أننا انتصرنا إذا لم نحرز اهدافا .. ودون ان نكش الملك .

انتهى زمن اللعب فن .. والفن للفن . وانما اللعب اجوال .. والهدف هو الكسب او المكسب او الانتصار .. وبدلا من أن يكون اللعب . « لعبا » اى نشاطا بارعا ذكيا فيه طفولة وبراءة أصبح فى اللعب عنف المراهقة وغلظة الرجولة ، وخشونة الملاعب ، وجاف الرمل وبدلا من أن تكون الروح الرياضية معناها التسامح والمساواة بين كل الناس أيا كان لون الفانلة ـ الفانلة خطأ ـ أيا كان البلد .. أيا كان الدين واللون .. أصبح اللاعب والمتفرج يتعصب للون والدين والجنس والبلد ..

أصبح من أهم عيوب اللاعبين احساسهم بالجمهور وليس باللاعبين معهم وضدهم .. فالجمهور هو القوة والكاميرا هى طاقة القدر .. وكذلك الجمهور لم يعد يهتم باللاعبين وانما بالكاميرا ايضا يضحك لها ويصرخ ويرفع الاعلام من أجلها . إنه هو الآخر يستعرض قوته .. واللاعبون كذلك .. فاللعب أصبح استعراضا تمثيليا !

والاحساس بالجمهور هو شعور الممثل والمطرب ..

ولذلك فهناك فرق بين الاغنية التى يسجلها المطرب فى الاستديو . والاغنية التى يسجلها فى احدى الحفلات .. الفرق هو الجمهور يشعر بالمطرب ، والمطرب يشعر به .. وصارت شركات الاسطوانات تضيف الى الاغنية المسجلة فى الاستديو صوت الجماهير وتصفيقها ماخوذا من الحفلات العامة .. كوسيلة لاقناع الجمهور انه موجود .. انه كان هناك أو أن هذه الاغنية قد لقيت حماسا جماهيريا .. وهذا الحماس التسجيلى يشعل حماس المستمع ويؤثر عليه ..

وكذلك هناك فرق بين « التمثيلية » المسجلة فى الاستديو .. والمسرحية .. المسرحية هى « التمثيلية » أمام الجمهور ، والتمثيلية هى المسرحية بلا جمهور .. فالتمثيلية تشبه الفيلم تماما .. تم تمثيله وتسجيله أمام عدد من المصورين وموظفى الاستديو ، اعتادوا على مثل هذه المناظر ، فهم أقل الناس حماسا لها ، واكثر الناس قرفا من الكذب الفنى الذى يعيشون به وعليه ليلا ونهارا .

ولذلك اكبر عقوبة لاحد الاندية الرياضية أن يلعب بلا جمهور !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واكبر صدمة يتلقاها الجمهور هى عندما يذهب الى الملعب يشجع الفريق الذى يحبه ثم ينهزم الفريق .. هنا يشعر الجمهور أن اللاعبين قد خانوه .. فقد أوهموا المتفرجين أنهم إذا جاءوا فسوف ينتصرون . أى أن شرط النصر أن يجىء المتفرجون . وصدق المتفرجون ذلك . فذهبوا وكانت الهزيمة !

ولذلك ينقض المتفرجون على اللاعبين الذين ضحكوا عليهم وخدعوهم فاللاعبون قد استعدوا نفسيا وتهيأوا وتخيلوا المباراة ، وتخيلوا الأهداف وتخيلوا النصر .. والخروج إلى الشوارع والمظاهرات .. وتخيلوا ما سوف يقولونه للخصوم .. وتخيلوا الولائم والنكت والسخرية بالخصوم وفجأة انهدم الخيال كله والسبب هو اللاعبون والسبب أنهم صدقوهم .. فكذبوا عليهم وجعلوهم أضحوكة للخصوم ولكل الناس ، وبعض المشجعين يتوارى فى بيته ولا يذهب إلى العمل .. أو ينهار .. أو يصاب بأزمة قلبية .. أو يموت .. أو ينتحر .. كأنه راهن بكل ما يملك ، وخسر كل شىء .. ونفسه ايضا !

وجاء التليفزيون وزاد عدد المتفرجين .. نشر الوعى بالرياضة ، ولكنه لم ينشر قيم الرياضة أو تذوقها .. ولذلك كان هدف متفرجى التليفزيون هو العنف والإثارة .

حتى الرياضة دخلتها النظريات : الهواية والاحتراف أيهما افضل لفن الكرة ، أن يكون اللاعب هاويا . يلعب لأنه يحب اللعب ولا يهمه المكسب المادى .

أو يلعب لأنه يعيش من اللعب .. فاذا لم يلعب مات .. ولذلك فهو يتفنن لكن يعيش أفضل .. بالكسب الكثير ..

اختلف علماء الرياضة .. ولكن أحدا لا يفكر ، لم يعد يفكر ، فى أن يتفرج فقط .. وأن يجد فى ذلك متعة .

انتهى ذلك الزمان الذى كان المتفرج يظل متفرجا لا يتدخل .. يرى ويسمع ويقول فى نفسه : الله تماما كالذين يتفرجون على التمثيل المسرحى أو الغناء المسرحى أو الموسيقى السمفونية .. فقط أن يصفق فى النهاية ، ولكنه لا يتنفس ولا يتدخل ..

ولكن تقاليد المسرح هى الأخرى قد انهارت .. فكان الممثلون يظهرون على المسرح ويعيشون حياتهم الفنية .. ونحن نتفرج فقط .. كأنهم لا يشعرون بنا ، وكأننا لا نعايشهم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الآن فمسرح العبث جعل من حق الممثل أن ينزل إلى مقاعد المتفرجين .. ومن حق المتفرج أن يصعد إلى المسرح ويضرب الممثل قلما .. أو يدخل معه فى قافية .. ويدور حوار خارج عن النص .. أو بالاتفاق مع المؤلف أو الممثل .. تماما كما يحدث فى الملاعب .. اللاعب عينه على المدرجات ، والمدرجات عينها على الكاميرا .. ولا أحد ينظر الى اللعب أو اللاعبين .. فلم يعد اللعب للعب ، أو الفن للفن .. وإنما كل شىء من أجل الاستعراض والمكسب !

لقد فسدت الرياضة نهائيا .. لم يعد لها ذلك البريق ذلك السحر .. لم تعد لها تلك الطقوس الدينية : المتفرج قد احتشد نفسيا وعقليا واجتماعيا أيضا . وذهب يتمتع فى استغراق .. واللاعب عينه على الكرة وعلى زملائه .. وكل همه هو أن يبدع وأن يتفنن ، انتهى كل شىء .. أما الأهداف ، إن جاءت فليست هى الهدف !

وجمهور التليفزيون الجالس فى بيته يريد من الجميع ان يقوموا بالتسلية .. أصبحت الرياضة تسلية .. مثل أعمال السيرك .. فالكاميرا عندما تتسكع بين المدرجات فلكى تبحث عن شىء غريب شاذ .. يجعل المتفرج يضحك .. واللاعب عندما يتشقلب أو يتهجم على اللاعبين أو الحكام ، فانه يساهم فى العنف والاثارة التى يتعطش اليها المتفرجون !

حتى ملاعب التنس ، التى هى رياضة ارستقراطية ، تجد الجمهور يصرخ ويقلق ويشتم ، ونسمع الحكم ينبه المتفرجين إلى الهدوء والأدب .

ويحدث الآن ما كان يحدث فى القرن التاسع عشر . ففى القرن الماضى كان المصلحون يستنكرون الرياضة لأنها تدعو إلى الفوضى وإلى تعاطى الخمور .. والخمور من شأنها أن تطلق سراح الناس على الناس .. ولذلك لعنوا الرياضة التى تجعل الناس يفقدون عقولهم مرتين : مرة بالحماس ومرة بالخمر .

والآن فى كثير من الملاعب يمنعون تعاطى الخمور .. بل يمنعون كل من شربها قبل دخول الملعب .. والسبب هو حماية اللاعبين والمتفرجين من العنف والتدمير ..

والرجل الذى انشأ الدورة الاوليمبية واسمه بير دى كوبرنان له عبارة مشهورة قال : إننى معجب بانجلترا لأنها جعلت الهدف من الرياضة هو بناء الشخصية المتكاملة !

وماتت هذه العبارة معه فلم يعد ذلك هو هدف الرياضة من أى نوع ،.ضاعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاهداف ، وفسدت السبل .. أفسدها اللاعبون والجمهور والمعلقون والاندية وشركات الكرة !

* * *

طبيعى أن يقول رجل مثل الجنرال ماكارثر إن بذور النصر فى الحرب كانت هناك فى الملاعب ! ولا أعرف ما الذى قاله يوم انهزمت امريكا فى موقعة هاربور .

قالوا الكثير ولكن ليس من بين الذى قالوه : إنها الملاعب التى إنهزمت فيها امريكا امام امريكا قبل أن تهزمها اليابان .

والسبب أن هناك أنواعا مختلفة من الملاعب .. ملاعب الرياضة وملاعب القتال .. وإن كانت امريكا ، بتقدمها الصناعى الهائل ، قد أفسدت الرياضة بكل انواعها فأصبحت تجارة .. ولكن عندما هددت السياسة بافساد الدورة الاوليمبية أعلنت كل دول العالم أن السياسة لا علاقة لها بروعة الشباب وجماله وبطولته .. ولا يحق للسياسة أن تفسد ما تبقى من ملذات الناس ، فتقضى على الملاعب أيضا .. وامتنعت دول عن المشاركة فى الدورة الاوليمبية الامريكية .. وامتنعت أيضا دول عن الدورة الاوليمبية فى كوريا الجنوبية : كوبا والبانيا واثيوبيا وكوريا الشمالية .. ولكن الاغلبية المطلقة ترى أن الرياضة يجب أن تبقى ، بعيدة عن السياسة وأن تحتفظ لها بمبادئها القوية فى إزالة الفوارق بين الناس ، وفى الابقاء على المعادلة الصعبة بين التنافس والتعاون .. أى أن يتعاون الفريق الواحد فى تنافسه مع فريق آخر .. ودولة أخرى ، وأن تكون الرياضة استعراضا لاعظم ما بلغه الشباب .. مثل مهرجانات الأغنية والمسرحية والأفلام .. ومعارض الكتب .. كلها أسواق للدعاية والإبداع .

وفى الحرب العالمية الثانية كانت قوات الحلفاء فى مصر .. يلعبون ويرقصون .. ولكن رأينا أعظم ما أبدع العقل الانسانى : مئات ألوف الكتب فى طبعات صغيرة ورخيصة .. كل الشعر والمسرح والفلسفة والعلوم والروايات .. كلها على أرصفة مصر وفوق عرباتها الكارو وعلى سور الازبكية .. فقد كانت هناك حرب ورياضة وقراءة ..

وهذا هو التعادل والعدل .. والتوازن والانجسام بين اللعب والجد ـ مع أن اللعب هو الآخر جد فى جد . لأن له قواعد وأصولا وأعرافا وقضاة ثم إن محاكمات اللعب كلها علنية .. ونحن جميعا نحترم قانون اللعب وقدسية القضاء ونضرب دماغنا فى الحائط .. ولا نقترب من الحائط الوهمى المرسوم على الارض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالطباشير .. لأن هذا الحائط الوهمى حقيقة مؤكدة .. حقيقة القانون وقوته واستقلاله ..

ولن نتقدم فى الرياضة مالم نحقق التوازن والانسجام بين اللعب والجد بين التنافس والتعاون والتسامح بين القدم والقلم ـ كما قال لنا توفيق الحكيم ..

ولابد أننا الآن نخجل من أنفسنا عندما ألقينا على كرة القدم كل اللوم فى هزيمتنا العسكرية .. ولكننا مع الأسف ما نزال نلعب بكرتين : كرة القدم وكرة الندم .

ولم نعد نحن بدعا فى ذلك ..

فالاتحاد السوفييتى الذى لعن ستالين وأحرقه أيام خروشوف ، أعاد نبش قبره بأصابع جورباتشوف ليبصق المواطنون (٢٧٠ مليونا) على رفاته .. أو ترابه ، لأنه كان مجرما ، ويجب أن يكون هذا القرار نهائيا . فلا أسف ولا ندم على ذلك .. ولا إدانه للملايين .. فهو المجرم وهم الضحايا . فلا يلوم أحد نفسه .. وانما اللوم على معاصرية الذين استسلموا والذين اركبوه عقولهم وقلوبهم وإرادتهم .. وعليه وحده !

لقد أوقف جورباتشوف كرة الندم ، ليتفرغ إلى كرة القدم فى أوربا وامريكا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شباب بلا شيخوخة :
آمالنا المجنونة

فى سن الأربعين وأثناء معارك البوير فى جنوب افريقيا كتب ونستون تشرشل رسالة إلى زوجته تصلها فى حالة وفاته قال : حبيبتى .. الموت ليس الا حادثا عابرا .. ولكن قلبك علمنى كيف تستطيع المرأة ان تكون نبيلة . لن أنساك . واتطلع إلى لقائك .. انظرى إلى الامام . كونى أكثر حرية . اهتمى بالأطفال .. واذكرينى !

وعاش بعد ذلك ثلاثين عاما ليعلن نهاية الحرب العالمية الثانية ومات سنة ١٩٦٥ وعمره ٩١ عاما !

وقد اندهش العالم عندما قرأ مذكرات سيدة روسية . تقول : ذلك المجرم اغتصبنى فى الفراش . ثم تركنى وركب حصانه عشرين ميلا . وعاد ليحتفل بعيد ميلاده السبعين . وهددنى ان لم اطاوعه فسوف يتزوج فتاة صغيرة !

اما هذا المجرم فهو اديبنا العظيم تولستوى ! ..

وفى الثمانين كتب الفيلسوف الانجليزى العظيم برتراند رسل : عندما كنت شابا احببت الرياضيات ، فلما وجدتها صعبة اتجهت إلى الفلسفة ، فلما وجدتها صعبة ، اقبلت على السياسة !

وفى التاسعة والثمانين من عمره دخل السجن اسبوعا ، لانه كان يتقدم المظاهرات ضد الاسلحة النووية .. وكان قد تزوج للمرة الرابعة !

ومات فى الخامسة والتسعين ! .

اما المؤرخ الامريكى العظيم ول ديورانت فقد اكمل « قصة الحضارة » بصدور الجزء الحادى عشر الذى كتبه مع زوجته اريل ديورانت . كان هو فى السادسة والتسعين وكانت هى فى الثالثة والثمانين .. ماتت الزوجة وبعدها بأسبوعين مات الزوج !

والنبى موسى عليه السلام مات عمره ١٢٠ عاما . ولذلك فاليهود فى اعياد الميلاد يقولون : عقبال مائة وعشرين عاما . وعدد اعضاء الكنيست ١٢٠ ..

اما ابونا آدم فقد انجب أول ابنائه وعمره ١٣٠ عاما . ومات وعمره ٩٤٠ عاما ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونوح عليه السلام راح يبنى السفينة وعمره ٥٠٠ عام وكان قد انجب اولاده الثلاثة : سام وحام ويافث . ومات وعمره ٩٥٠ عاما !

اما متوشالح فهو اطول ابناء آدم عمرا . مات عن ٩٦٩ عاما !

وعند الشيعة ان الامام الغائب وهو الامام الثانى عشر لا يزال حيا ، فعمره الآن حوالى ١١٥٤ سنة ..

وتبقى حكمة الطبيب جالينوس (٣٠ ـ ١٠٢ م) هى الخيط الذهبى فى الحياة الانسانية كلها . قال : يعيش طويلا من لا يشعر بأنه تقدم فى السن .. يموت شابا كل من احس ان يده لا تطوعه وانه ثقيل على قدميه ، وان قلبه لم يعد يدق !

وقال جالينوس لامرأته : مادمت تفكرين فى الموت بهذه الصورة فسوف تموتين قبلى ـ وكانت أصغر منه بثلاثين عاما ، فعاش بعدها !

قال الفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) : أن الرومان كانوا أصح الناس جسما ، ولكنهم أقصر الناس عمرا .. وكان الاغريق أصح الناس عقلا وأطول الناس عمرا .. فحياة الجسم من حياة العقل .. فالعمر يطول ويقصر هنا فى دماغك !

قال الشاعر الألمانى نوفالس (١٧٧٢ ـ ١٨٠١) وقد مات دون الثلاثين : أعتقد أننى ولدت ميتا .. فأنا منذ طفولتى أتوقع أن أموت بين لحظة وأخرى .. فأنا ميت قبل أن أعيش ! ..

أى أن الموت قرار داخلى من كل أنسان .. كما أن الحياة أيضا ! ..

* * * *

* * * *

هذا هو النوع الأكبر فى حياة الانسان المعاصر : الخوف من الموت .. أو الخوف من شىء كأنه الموت !

أما الذى كأنه الموت فهو : الشيخوخة ! .

فقد عرف الناس فى هذا الزمان أشكالا وألوانا من الموت . وعرفوا أيضا كيف يصنعون المعادلات العلمية للموت .. وذلك بصناعة الأسلحة المضادة .. فكلما اخترع الأنسان سلاحا مميتا ، أخترع سلاحا مضادا .. تماما كما صنع الأنسان الغازات السامة واستخدمها فى الحبشة ، واخترع لها الكمامة .. واخترع الشظايا فى القنابل ، فأقام المخابىء والمدرعات .. وعندما ألقى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمريكان القنبلة الذرية على اليابان ، اخترع الروس قنابل ذرية والأنجليز والفرنسيون .. وفى مواجهة الأسلحة النووية ظهرت أسلحة مضادة .. وتحقق التعادل .. وفى ظل التعادل وبسببه ، أحس الناس أنه لاموت لاحد دون أحد .. فالموت للجميع . ولأن الجميع لايريدون أن يموتوا معا ، فقد عدلوا عن الحرب التى لاتبقى على عدو أو صديق .. ومادامت أسلحة الموت قد تعادلت ، فكان الموت قد صالح الموت ، واتفقا على الحياة فى ظلال الخوف والرعب .

ومادام أحد لاينفرد بكل الأسلحة ، فإنه لايستطيع أن يقتل الآخرين وينجو هو من الموت .. فالذرة هى الطوفان الذى لانوح ولا سفينة معه !

فكأننا عندما ألغينا الموت النووى ، استأنفنا أشكالا أخرى من الموت .. فى مقدمة هذه الأشكال : الشيخوخة . فالانسان فى حالة خوف شديد أن يشيخ .. واذا شاخ توقف . وإذا توقف عن العمل أو الابداع أو الانتاج فكأنه مات .. أو مطلوب منه أن يموت !

وفى القبائل البدائية يعزلون الشيوخ تمهيدا لشوائهم وأكلهم .. فأعمار الموتى تضاف إلى أعمار الذين يأكلونهم ؟ ! ..

والبدائيون قد اقتربوا من الحقيقة ولكن على طريقتهم . فالشيوخ لهم تجاوب فى الحياة وفى استطاعتهم أن يطيلوا أعمار الشباب عندما يقدمون لهم ماعرفوا وما جربوا . فهم لايأخذون من أعمارهم ولكن يضيفون إليها ..

وفى بعض القبائل البدائية فى نيوزيلندا يأكلون قلوب الموتى إذا كانوا شيوخا . ولنفس السبب ! .

ويخافون من لمس الشباب إذا ماتوا .. حتى لاتنتقل إليهم العدوى ، فيموتون شبانا هم أيضا ! ..

وكانت العالمة الأمريكية مرجريت ميد تقول انها عندما ذهبت لجزيرة ف ـ را ـ كى ـ نو فى المحيط الهادى استقبلتها الفتيات الصغيرات بالورود .. وحمل إليها الطعام عشرات الشبان . وظلوا يفعلون ذلك كل يوم وعندما ودعوها سار وراءها الشيوخ ... ويوم وداعها سار وراءها عدد كبير من الشيوخ والأطباء .. ولما سألت عرفت مشاعرهم النبيلة . فقد كانوا يأملون أن يموت أى واحد من الشيوخ ، فيسرع الأطباء باستخراج قلبه وتطهيره فى النبيذ ثم تقديمه للسيدة مرجريت ميد، أملا فى أن يطول عمرها !

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية انشغل الناس بالحياة والاستمتاع بها ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكيف يكونون أقدر على تذوقها . ولذلك تنوعت أشكال الطعام والشراب والعلاقات الانسانية .. وظهر عدد كبير من الكيمائيين والأطباء باختراعات جديدة لاعادة الشباب .. أو اطالة الشباب ..

ففى روسيا ظهر بوجو مولتس .. وهو صاحب نظرية الخلاصات المأخوذة من « الخلايا الضامة » عند الخيول ثم حقن الانسان بها ، أما نظريته فهى : أن الشباب عضلات ، والشيخوخة ترخى العضلات ، فمن اشتدت عضلاته سار أطول ، ومن تراخت سقط أسرع ! ..

وظهرت الخلاصات الحيوانية والنباتية .. وكلها من أجل أن يطول الشباب وأن تختفى الشيخوخة .. فإذا مات الانسان كان فى شبابه .. تماما كما يموت ! ..

ولما كانت الحياة هى الحب والجنس أيضا . فقد اتجه علماء الكيمياء إلى اختراع حبوب وأقراص الاثارة الجنسية الطويلة .. وارتفعت أسعارها .. وظهرت حبوب مزيفة ، ظهرت حبوب « توتو ـ فينا ـ أو مينا » اليابانية .. وقالوا عنها كلاما كالشعر أو هو شعر : انها فى الليالى القمرية وبأيدى الحسناوات يقطفن الزهور ويضعن وريقاتها بين النهود .. وتبيت هذه الأوراق ليلة هكذا .. وبعدها ينقلونها فى بخار الشمبانيا وعلى صدى الموسيقى الحالمة ليقوم الكميائيون باستخلاص عناصر الحياة منها .. شفاء وسعادة للناس فى كل مكان وكل سن ! ..

وفى كوريا اهتدوا إلى خلاصة الجنسنج وهو أوراق وسيقان وجذور .. وهى جميعا تضج بالحياة والحيوية .. وليس على أى انسان إلا أن يتعاطى خلاصة هذه الأوراق والجذور حتى يشفى من كل داء .. أما الدواء الذى منه فهو الشيخوخة .. ولكن أسطورة الجنسنج قادرة على ذلك .. وفى كوريا نفسها أكبر دليل . ففى ريفها وجبالها أناس نسيهم الموت فعاشوا مئات السنين .. ويقال انهم عندما ماتوا فقد أمتصتهم الأرض وخرجت من قلوبهم أشجار جنرنج !

وعندما ظهر فى جبال الأورال السوفيتية ١٩٤٦ رجل زاد على مائة وخمسين عاما سألوه : ما السر ؟

قال : الزبادى ؟

سألوه : كم مرة فى اليوم

قال : الزبادى وحده ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال : بعسل النحل !

قالوا : فقط ؟

قال : والنوم مع الغروب واليقظة مع الشروق !

قالوا : فقط ؟

قال : لا خمر !

قالوا : فقط ؟

قال : ولا دخان !

سألوا : فقط ؟

قال : وزوجة واحدة !

سألوه : ولو ماتت ؟

قال : حتى لو ماتت ؟

سألوا : والأولاد ؟

قال : يسكنون معى فى نفس البيت . فضوضاء الاطفال تطيل العمر .. والنوم على الارض وفى العراء والسير على الاقدام والامتناع عن كل انواع اللحوم والسمك .. وعن الدهن والملح والسكر والابتعاد عن الطبيب والمستشفى فالله خلق الداء وهو خلق الدواء .. والداء هو الطعام والدواء هو الطعام أيضا ..

واشار بيده للصحفيين ان يبتعدوا عنه جميعا وفورا ، فقد غربت الشمس وحان موعد نومه .. وسقط على الارض كأنه طوبة .. أو كأنه مات . ووقفوا حوله يظنون انه ميت .. فهو هادىء النفس لا يتحرك .. وانما ينام على جانبه الايمن حتى الصباح . ولما جاءوا فى الصباح نهض وحياهم ثم اتجه الى حظيرة الماشية وراح يشرب اللبن من اثداء احدى الابقار !

وعكف الاطباء يدرسون ويحللون كل كلمة قالها الرجل ليعرفوا بالضبط ما هذا الذى يطيل العمر .. ويجعل الحياة شبابا دائما أو اذا كانت بها شيخوخة فهى اقرب الى الهدوء منها الى المرض .. أو الموت ! ..

وكأن سر الحياة اراد ان يظل سرا ، فقد ظهر معمرون كثيرون فى اماكن مختلفة من العالم . واحد فى ايسلاندا .. يقول انه اطول عمرا من النبى ايوب عليه السلام الذى مات عن ١٤٠ عاما .. سألوه قال : اتناول وجبة واحدة فى اليوم فى الصباح .. وانام بعدها ساعة . ثم اصحوا استأنف حياتى فى الليل .. فالحيتان تفعل ذلك ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سألوه : ماذا تأكل فى الصباح ؟

أجاب : أسماك جافة وكوبا من الخمر ونصف كوب من عسل النحل . وحجم يدى من الزبدة !

سألوه : منذ كم سنة تفعل ذلك ؟

أجاب : مائة عام على الاقل ..

- وهل تدخن ؟
- سبعون سيجارة فى اليوم !
- والنساء ؟
- لم أتزوج !
- وتعيش وحيدا ؟
- ليس وحيدا من لم يتزوج .. بل الوحيد هو المتزوج .. فزوجته تعزله عن كل النساء .. وعنها هى أيضا !
- ومنذ متى لم تعرف أمرأة ؟
- لقد تزوجت فى العام الماضى !
- تزوجت ؟ تزوجت !!
- نعم .. أسألوها ..

سألوها قالت : لا اعرف ان انام الا على ذراعه .. وهو على ذراعى ايضا ..

سألوه : ما رأيك لماذا يعيش الانسان طويلا ؟

أجاب : لانه لايشكو من الصداع .. فأنا لم اعرف الصداع طول عمرى ..

سألوه : تفتكر ما هى الاسباب التى تجعل الانسان يصاب بصداع ؟

قال : الانفعال .. انا لا أنفعل .

- ابدا ؟!
- ابدا ..
- واذا لم تجد طعامك الا تنفعل ؟
- لم يحدث ذلك قط .
- نفرض ؟!
- لم يحدث !
- اذا ماتت زوجتك ؟
- لا أنفعل فسوف اموت ايضا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ اذا انهدم البيت ؟
ـ سوف اجد بيتا آخر !
ـ اذا انكسرت ذراعك ؟
ـ سوف تبقى لى ذراع أخرى .
ـ واذا انكسرت .
ـ فعندى ساقان !
ـ واذا انكسرت الساقان ؟
ـ فعندى عينان !
ـ واذا اظلمت العينان ؟
ـ فالناس لها عيون واذرع وسيقان وسوف يعاونونى على أن اعيش بما تبقى فى جسمى !

* * * *

* * * *

ومن رأى العلماء أن هناك أملا فى أن تقصر الشيخوخة ويطول الشباب ..

بعض العلماء رأى أن الشيخوخة ظاهرة اجتماعية . وليست بيولوجية . أى ان الانسان هو الذى اخترع هذه الكلمة . وهو الذى حدد لها مدى من العمر .. الستين او السبعين وعند بلوغ هذه السن يجب ان يتنحى عن مقعده او عن مكانه من العمل أو الانتاج وعندما يجد الانسان نفسه قد « أحيل » الى المعاش او الاستيداع .. او طردوه من الكتب الى المقهى .. الى النادى .. الى الشارع .. الى بيت المسنين .. وهذا « الطرح » ـ مثل طرح البحر ـ هو الذى يجعله عاجزا عن العمل او عن التفكير ، رغم قدرته .. لأن هذه القدرة غير مطلوبة .. فالمجتمع قرر بالاجماع انه لاحق له فى ان يعمل او يعيش .. ولذلك يصاب الشيوخ فى صحة جيدة .. وانهم قد اكتسبوا هذه الصحة من الانضباط فى العمل والنوم والراحة .. وفجأة يجدون انفسهم بلا انضباط .. بلا داع لذلك .. تماما كما يتوقف الانسان مرة واحدة وهو يجرى .. او كما تتوقف سيارة مسرعة ، فيتخبط الناس فى داخلها وتنكسر السيارة نفسها . لماذا ؟ لقد برمجنا كل شىء فينا على ان يعمل وفجأة الغينا كل هذه البرامج .. كأننا القينا ماء مثلجا على وهج الحيوية والتألق ..المجتمع قد اتخذ هذا القرار لان هناك اعدادا هائلة من الناس يجب ان يعملوا .. ولذلك من الضرورى ان يتنحى بعض الناس بسبب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرض او الموت او الشيخوخة او الاهمال .. فالزحف مستمر .. ولن يتوقف ..

وعلى الرغم من أن التاريخ قد اثبت عكس ذلك .. فكثير من النابهين فى كل مسارات الحياة قد بلغوا قمة الايداع فى الستين وبعدها ، فلا يزال المجتمع بقوته الغاشمة اقوى ..

فلا نهاية للذين ابدعوا وتفوقوا حول الستين .. ففى سنة ١٩٣٩ كان تشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا فى السبعين وفى هذه السن اعلن الحرب على المانيا ، وكان اكثر الناس حيوية ..

وفى السبعين ايضا اعلن تشرشل نهاية هذه الحرب سنة ١٩٤٥ ، وكان تشرشل هذا هو اقوى من جيوش بريطانيا والحلفاء .

وفى السبعين وقف سقراط العظيم (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق . م) يتحدى القضاة والقانون ويقول انه على حق . وانه الاقوى .. ويحكمون عليه بالموت سما . ويقبل الحكم . لانه يجب ان يكون قدوة .. وحاول القضاة اغراءه بان يهرب او يعتذر ولكنه اراد ان ينهى حياته وهو فى تمام الصحة والعافية .. وان يكون اعظم واشجع من كل الشباب حوله !

وكان الفيلسوف الشيوعى الالمانى انجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) فى السبعين يقرأ سبع صحف يوميا و ١٩ مجلة اسبوعية فى ثمانى لغات ، ويتناول ثلاث وجبات فى اليوم وينام بعمق ست ساعات ، ويكتب عشرين خطابا ..

وفى هذه السن كتب العالم النفسى العظيم كارل يونج (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) كتابه الشهير « ظاهريات الروح فى القصص الخرافية » ..

ونشر اديب ايطاليا البرتو مورافيا كتابه « الحياة الداخلية »

واصبحت مصممة الازياء كوكوشانيل نيل اشهر مصممة فى العالم ـ توفيت عن ٨٧ عاما !

أما الفيلسوف الألمانى الامريكى هربرت مركوزة (١٨٩٩ ـ ١٩٧٩) فأصبح فيلسوف الشاب فى العالم كله وهو فى الثمانين من عمره .

أما المايسترو ستوكوفسكى (١٨٨٢ ـ ١٩٧٧) فبعد ان وقع على الارض وانكسرت ساقه وهو فى الثمانين عندما كان يلاعب واحدا من احفاده ، استأنف قيادة اوركسترا نيويورك .

والممثل الكوميدى المؤلف الموسيقار المخرج شارلى شابلن (١٨٨٩ ـ ١٩٧٧) فقد حصل على الاوسكار عن فيلمه « أضواء المسرح » ـ وكانت امريكا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد حرمته عشرين عاما . فكانت الاوسكار هدية ميلاده الثمانين ! ..

وعندما بلغ المهندس العالمى فرانك رايت (١٨٦٩ ـ ١٩٥٩) السابعة والثمانين انشغل بمشروع بناء عمارة ارتفاعها كيلو متر فى مدينة شيكاغو ..

والفنان العظيم مايكل انجلو مات سنة ١٥٦٤ عن ٨٧ عاما .. اما سنوات ابداعه فكانت فى الستين وما بعدها ..

وفى التاسعة والثمانين حاكمت فرنسا بطلها الماريشال بيتان بتهمة التعاون مع هتلر . ولم تعدمه . وانما اكتفت بحبسه انفراديا فى احدى الجزر ليموت بعد ذلك بعشر سنوات !

اما الاديب الساخر برنارد شو فقد مات سنة ١٩٥٠ عن ٩٤ عاما . قال شو : اعتقد ان سبب وفاتى هو ان الناس كلما رأونى اكتب كانوا يقولون : ولكنك كبرت يا مستر شو .. انهم وحدهم الذين جعلونى اشعر باننى كبرت .. مع اننى رأيت التخريف فى كل ما يقولون .. فليس فيهم واحد قادر على ان يقرأ أو يفهم ما كتبت .. فكيف اذا جلسوا للكتابة .. فاذا مت ، فليس لاننى عجزت عن الفكر والابداع ، ولكن لان الناس قتلونى !

ورأى برنارد شو معناه ان الشيخوخة مشكلة اجتماعية .. او مشكلة خلقها وعمقها المجتمع ..

فالشيخ ينظر اليه الناس إنه كان حيا ، فهذا مؤقت ، وان طالت به الشيخوخة ، فهو قد تجاوز عمره الافتراضى .. والناس يستكثرون على الشيخ أى شىء .. فإن كانوا قالوا : ما شاء الله ما يزال يمشى على قدميه ..

أى أن المشى على القدمين ليس من صفاته أو من حقه ..

وان حاول ان يجرى بدلا من المشى قالوا : يا الله حسن الختام .. زمانك وزمان غيرك .. رجلك والقبر .. رجل هنا ورجل هناك ..

أى أنهم يذكرونه بأنه انتهى أو يجب أن ينتهى .. فان كان قد نسى ذلك ، فانهم لاينسون .. كأنه يأخذ من أعمارهم ويضيف الى عمره ..

ولكن الأطباء يرون أن « الشيخوخة » حالة جسمية نفسية .. وان الطب سوف يعرف ما الذى يموت فى الانسان أو ما الذى يميت الانسان .. واذا عرف الطبيب اسباب الوفاة ، فانه سوف يحاول ان يعرف علاج هذه الاسباب .. ومن المؤكد ان نسبة الوفيات فى العالم قد نقصت . والسبب هو تطور صناعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الادوية .. وتطور ادوات الفحص والعلاج ايضا ..

وبعض النظريات تقول ان القلب الانسانى او المخ الانسانى مثل بطاريات جافة لها عمر .. فاذا استهلكنا هذه البطاريات بسرعة ، مات صاحبها معها .. واذا ليس دقيقا ، لانه ما تفسير وفاة طفل ؟ وما تفسير وفاة شاب فى غاية الحيوية وبقاء انسان مريض عشرات السنين ؟ .

ان العلم الحديث اهتدى الى بعض اسرار الخلية ..

وعلى ضوء هذه الاكتشافات المتواضعة يحاول ان يواجه مالانهاية له من مشاكل الخلايا والدم والانسجة والعضلات والغدد الصماء .. واسرار اخرى لاتظهر تحت الميكروسكوب ..

قال اينشتين العالم الفزيائى العظيم : ان العلم الحديث يشبه عود كبريت على ضوئه الخافت وعمره القصير تحاول ان تحصى عدد الرمال على شاطىء المحيط ؟!

والذى نعرفه قليل جدا .. والذى لانعرفه ويحتاج الى ملايين السنين كثير جدا . ولكن طموح العلماء اعظم من قدراتهم . ونحن ندين لهم بالفضل العظيم وهم لم يعرفوا اليأس . ونحن لم نفقد الأمل ! ..

ويقول العلماء إنهم عند سنة ٢٠٠٠ ـ سيعرفون كيف يجعلون الانسان يعيش مائة عام ! ..

فليكن . فهل يا ترى اذا عاش الانسان مائة عام ، يكون قادرا على ان يعمل .. على ان ينتج .. على ان يضيف .. أم أنه حى والسلام .. فهو ليس ميتا .. وانما لا يزال فيه النفس .. ولكن لايهش ولاينش .. حى اسما ، ميت فعلا ؟ ! ..

يقول العلماء اذا استطعنا ان نجعل متوسط العمر مائة عام ، فقد انتقلنا بالحياة خطوة إلى الامام .. والخطوة التالية ان نجعل هذه الحياة مفيدة لصاحبها وللناس .. وهم يطالبوننا بان نصبر عليهم عشرين عاما اخرى .. وهم يذكروننا بما استطاعته المضادات الحيوية .. وكيف انها اطالت عمر الحياة على الارض لمئات ملايين الناس ، كانوا يموتون لمجرد ان جرحهم دبوس أو شوكة ؟

ثم يذكروننا بما فعلته ال . د . د . ت فى الحرب العالمية الثانية فقد انقذت الجنود من أمراض البراغيث والقمل ـ المسببة لمرض التيفوس .. ويذكروننا ايضا بالمبيدات الحشرية التى ابقت لنا كل حاصلات الحقل والحديقة .. ولولاها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمات الانسان جوعا ، بعد ان انقذناه من البراغيث ومن السموم ! ..

ومع الثقة الشديدة بالعلم والعلماء وضعف الشعور الدينى ، لم يعد الناس يهتمون كثيرا بالحياة بعد الحياة .. فهم يريدون ان يعيشوا دنياهم .. اما الحياة بعد الموت التى هى تعويض اكرم ، فلم تعد تشغلهم كثيرا . « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ـ صدق الله العظيم ..

ولكن ماذا يحدث للانسان اذا لم يعد يخاف الموت ؟ لن يكون للمغامرة معنى المخاطرة ـ اى مواجهة الخطر وتحديه والامل فى التغلب عليه ، ولو كان هذا الشعور قد انعدم عند الانسان منذ وقت طويل ، ما تقدم العلم والاكتشاف .. لا برا ولا بحرا ولا جوا .. ولاختفت اهم معانى الشباب والحيوية والتضحية والبطولة .. فكل هذه المفردات تنطوى على ان هناك خوفا .. وان هناك خطرا .. وعلى ان فى داخل كل انسان قدرة فذة على الاستهانة بهذا الخطر ، والحياة من بعده .. وهذه الحياة هى البطولة ، والأبطال هم القوة المحركة للتاريخ .. فالبطولة هى توربينات تتولد منها الطاقة المضيئة .. ولا وجود لها اذا انعدم الخوف من الموت .. او السكوت المفاجىء .. والصمت الرهيب بعد ذلك ! ..

يقول الحكيم الصينى كونفوشيوس : عندما يشيخ البلبل يكون صوته شجيا ، وعندما يشيخ الانسان يكون صوته أكثر صدقا ..

* * * * *

يقول كونفوشيوس : ولكن الشيوخ عندما يصدقون وهم على فراش الموت ، فان الشباب يرون ان كلماتهم الصادقة ميته .. لا يسمعونها .. لا يأخذون بها .. فالشباب لا يسمعون الشيوخ .. وكذلك الشباب عندما تخرج منهم الحكمة وهم يلعبون ، فإن الشيوخ حولهم يرون الشباب يتلاعبون بالألفاظ فلا يأخذون بها ..

يقول كونفوشيوس : فالحكمة ضائعة .. لأننا ننظر إلى شفاة قاتليها ولا نلتفت الى ضمائرهم !

فالانسان ينسى ..

عندما يكون شابا ينسى انه سوف يكون شيخا هادئا رزينا ..

وعندما يكون شيخا ينسى انه كان شابا قلقا مندفعا !

ان زماننا يرى ان الشباب هو الامل .. وان الشباب هو المثل الاعلى ولذلك فنحن مشغولون باطالة الشباب ، حتى لا تكون شيخوخة . فإذا جاءت كانت شبابا هادئا !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجرمون وأبرياء

هذه السطور لم يكتبها أحد الأدباء « كان ذلك يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٠ .. كان ليلا هادئا . القمر فوق . ولن ينحدر الى الافق .. إلى ما تحت الافق الا بعد وقت طويل .. وفى ضوء القمر انفتحت طرقات بين الحقول والغابات .. وكانت الاشجار حراسا شهودا علينا جميعا .. ومن حين الى حين ينطلق عيار نارى من بعيد .. ولا يدل على يقظة الجنود .. وانما على ان جنديا واحدا يؤكد لمن حوله انه هو السهران وانه هو الذى يتولى الحماية .. أو كأنه اراد ان يطفىء القمر حتى تنسد فى وجوهنا كل الطرقات .. اما اوامرى فهى اطلاق المدافع حتى لا يتمكن العدو من بث الالغام بيننا .. وكانت اوامرى ان بعض دبابات الفيلق المدرع تتقدم بسرعة .. والدبابات الاخرى محمولة على اللوريات .. وكانت الدبابات على شكل طابور يمشى موازيا للاستحكامات .. اما البيوت التى ظهرت فى اوائل الطريق فقد اشتعلت فيها النيران .. وبين لحظة واخرى نسمع طلقات المدافع المضادة للدبابات والرشاشات ، ولكنها تنهمر بعيدا عنا .. وكانت اوامرى ان تتساقط امطار من النيران الكثيفة على القرى والطرق امام الفيلق المدرع . دخلنا الاستحكامات .. ٥٠٠ ياردة .. الف .. الفين .. ثلاثة آلاف .. وكان من المستحيل وسط هذا الهدير الحديدى ان نعرف ان كان العدو الفرنسى يطلق علينا نارا .. اما الناس فقد افزعتهم النيران والاصوات التى تعوى اصداؤها فى كل مكان .. اما وجوه القوات الفرنسية فقد تشوهت تماما من الذعر ..

وقد ترك المدنيون سياراتهم على جانبى الطريق .. اما الجنود فقد تفرقوا وراء الأشجار وفى الخنادق .. ولكن الشلل قد اصابهم تماما . وكنت انظر الى الخرائط امامى ، واعطى تعليماتى بسرعة عن الموقع وعن الحركة والاتجاه .. كل شى مضبوط تماما ومحكم . لقد اخترقنا خط ماجينيو . فالذى اراه ليس حلما . ولكنه الواقع . شىء عجيب حقا فمنذ ٢٢ عاما وقفنا امام هذه الاستحكامات اربع سنوات ونصفا وانتصرنا . ولكننا خسرنا الحرب .. والآن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخترقنا الخط الشهير واتجهنا الى عمق ارض العدو . ليس حلما رائعا .. وانما هو الواقع ..

لقد تقدمت الفرقة المدرعة الالمانية من الحدود البلجيكية الفرنسية والتفت حول خط ماجينو .. ولم يكن الفرنسيون يملكون مدفعا واحدا مضادا للدبابات أو للطائرات .. أما كاتب هذا الوصف وصاحب هذه الأوامر وخطة الاختراق والتقدم الى اعماق فرنسا فهو ثعلب الصحراء : ارفين روميل (١٨٩١ – ١٩٤٤) .

يقول روميل لزوجته بعد ذلك : كأننى تلميذ صغير انجز واجبه على أكمل وجه !

وعلى مثل هذه العبارة اختلفت قضاة محكمة نورنبرج التى اقيمت لمحاكمة مجرمى الحرب الالمان . فهل روميل مجرم ؟

الجواب : لا ..

إذن الرجل الذى زحف وتقدم وهدم واحرق وقتل ، لم يكن مجرما . ولو وقف امام محكمة نورنبرج لصفق له القضاة ، كما صفق له اعداؤه الانجليز والفرنسيون على حدود مصر . ولكن المجرم رجل آخر !

وقد وضعت محكمة نورنبرج قاعدة صلدة . القاعدة تقول : إن الذى خطط لابادة فرنسا وبلجيكا هو المجرم . حتى اذا لم يطلق رصاصة واحدة . اما الذى نفذ هذه الخطة ، حتى لو قتل مليون جندى ومواطن ، فليس مجرما إنه نفذ التعليمات فقط ..

أى أن صانع الاستراتيجية مجرم ، وصاحب التكتيك برىء !

ووضعت محاكمات نورنبرج قاعدة أخرى : انه لابد من محاكمة الجنرالات فى اعقاب الحروب .. الدولة تحاكمهم او الشعب ، او يحاكم الجنرالات أنفسهم .. يعترفون أو نرغمهم على الاعتراف .. والشعوب التى لا تحاكم قادتها أو يعترف قادتها ، شعوب قررت أن تكون الضحية مرة أخري ..

ونحن فى مصر لم نحاكم احدا ولم يعترف أحد بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد انتصار ١٩٧٣ فلا احد قال للعسكريين : ثلث الثلاثة كم .. ولا نحن قلنا .. فسنوات الهزيمة والنصر « كالساعة المنسية » عند كل ام .. أى ساعة المخاض والولادة .. فإذا كانت هناك ساعات كثيرة للولادة والاجهاض العسكرى والتاريخى ، ونحن لا نذكر ذلك ولا نريد ، فمن هو الذى تحكم ببراءته وادانته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محكمة نورنبرج لو اقمناها عند الكليو ١٠١ بين القاهرة والاسماعيلية ؟

وقد اختارت محكمة نور نبرج اثنين من القادة الألمان ليكونا نموذجا لمعنى العسكرية الجرمانية . العسكرية المجرمة والعسكرية البريئة . وشاءت أن تجعل كلا منهما عبرة للأجيال القادمة فى المانيا وفى اوروبا ..

ففى ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٦ وقف الجنرال يودل (١٩٨٠ ـ ١٩٤٦) رئيس العمليات للقوات المسلحة الألمانية يدلى بشهادته أمام المحكمة قال : حضرات المستشارين انى مؤمن ايمانا مطلقا بأن التاريخ سوف يكون موضوعيا ومنصفا لقادة الحرب الالمان ومساعديهم وكل القوات المسلحة الالمانية .. لقد دخلوا جميعا حربا لا يريدونها تحت قيادة لم تثق بنا ولم نثق بها الا قليلا ، مستخدمين قوات من الجيش والبوليس لم يتمكنوا من السيطرة عليها ، ومخابرات كان بعضها يعمل لحساب العدو . وكنا على يقين تام من أنه لابد ان نحمى بلادنا . اما انا فايمانى ثابت تماما بأن احدا لم يفعل مثل الذى فعلت ، ولا اخلص كما اخلصت لبلادى . فقد كان هدفى الاسمى هو حماية ارض الوطن . فلم نكن جنود الشيطان ، ولا كنا جنود جهنم ، ولا عبيدا للمجرمين . فقد عملنا جميعا من أجل الشعب والوطن . لأن الدفاع عن الوطن هو جوهر تفكيرى وايمانى . وإذا وصفنى احد بأننى خائن للتقاليد الصحيحة للعسكرية الألمانية ، أو قال احد اننى احتفظت بموقعى لطموح شخصى ، فسوف أتهمه بأنه هو الخائن للحقيقة . ففى هذه الحرب مات مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال بعواصف من القنابل وبكل الأساليب التى وجدها المحاربون مناسبة للقضاء عليهم . وفى هذه الحرب ، فإن الإجراءات مهما كانت عنيفة وتحتاج إلى مساءلة أمام القانون الدولى ، فلا يمكن اعتبارها جرائم ضد الأخلاق والضمير .

انها الحرب . وأنا مؤمن تماما بأن واجبنا نحو وطننا وشعبنا هو الغاية التى يجب أن توضع فوق كل اعتبار .. فإن أقوم بالواجب هذا شرف . وهذا هو القانون الأسمى . ويشرفنى ياحضرات المستشارين ، أننى حققت كل ذلك . وأملى أن يحل محل هذا الواجب واجب أخر أعظم وأرفع وأسعد : الواجب نحو الأنسانية كلها ! .

ولم يجد هـذا الخطاب التـاريخى الأذان التـى كـانت يجب أن تصغـى إليـه ..

وأنما أخـذ القضاة يقلبـون فى أوراقهم ويقلبـون عيـونهم فى وجهه وفي بقيـة مجرمى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرب . أما هو فقد صدر الحكم بإعدامه .. انتهى .

وفى يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٤٩ بعث الجنرال يودل بآخر خطاب إلى أصدقائه يقول فيه :

أصدقائى وزملائى . لقد وقفت فى محكمة نورنبرج التى أستغرقت شهورا ، شاهدا أدافع عن ألمانيا وعن الجنود ومن أجل التاريخ . لقد تزاحمت أمامى وحولى صور الموتى والأحياء .. لقد حكمت المحكمة ضدى . ليست مفاجأة . أما الذى سمعته ورأيته منكم ياأصدقائى الأعزاء فهو شهادة لى . أنه أعظم تكريم . أما الأن فأنا فخور وفى غاية السعادة . أشكركم وسوف تشكركم ألمانيا لانكم لم تتخلوا عن أخلص أبنائها فى ساعة موته . ولكن مستقبلكم لن يتحقق بالحزن والكراهية . فكروا بكبرياء وأحترام ، تماما كما تفكرون فى كل الجنود الذين استشهدوا فى ميادين هذه الحرب القاسية التى كان يجب أن تخوضوها . فأن أرواحهم قد استشهدت لكى يجعلوا ألمانيا أقوى . بل يجب عليكم أن تؤمنوا بأنهم ماتوا لكى تصبح ألمانيا أفضل . تمسكوا بهذه العقيدة وأعملوا من أجل ألمانيا حتى الموت !

وفى ١٥ أكتوبر بعث بآخر خطاب إلى زوجته :

يجب أن تعيشى وأن تتغلبى على أحزانك . أنشرى الحب حولك ، وساعدى المحتاجين . ولا تبالغى فى أهميتى ودورى ، ولا تعطنى أكثر مما أستحق .. فقط ماأعطيه أنا لنفسى . حتى لاتتعاظم خسارتك وأسفك . يجب أن تعرفى وأن تجعلى الأخرين يؤمنون بأننا عملنا وحاربنا من أجل ألمانيا وليس من أجل قادتها السياسيين . آه .. أننى أستطيع أن أظل أكتب هكذا حتى الموت . ولكنى أستمع الأن إلى همسات أسرتنا وإلى موسيقاها وأغانيها . هل تسمعينها ياحبيبتى . أن الجنود يجب أن يعودوا فى النهاية إلى بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم وأغانيهم ..

وفى الساعة الثانية من صباح ذلك اليوم أعدم شنقا ! .

انه نمساوى مثل هتلر ولم يكن المانيا بروسيا وكان هذا هو السبب الذى جعل هتلر يختاره الى جواره فى كل الظروف ، رئيسا للاركان الى نهاية الحرب ، ولكنه نموذج للتقاليد العسكرية « البروسية » ـ اى انه جندى فقط . عاش ومات جنديا .. ولو ردت له الحياة لاختار ان يحارب مرة اخرى .. بل الف مرة !

وقد وصفه اثناء محاكمات نورنبرج زميل له هو المهندس المعمارى الفرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اشبير الذى بنى المانيا النازية فقال : انه الرجل الوحيد الذى استطاع ان يقف فوق الموقف !

لقد عمل الجنرال يودل ست سنوات ليلا ونهارا من اجل ان يموت الملايين ، ولقد طلب من هتلر اكثر من مرة ان يعفيه من منصبه ولكن هتلر رفض ، ويودل اطاع . فقد اقسم يودل على الطاعة لشخص الزعيم حتى الموت ، وهو قسم عسكرى لا يمكن ان يحنث فيه . فظل جنديا يحارب من اجل المانيا رئيسا للاركان قبل دخول الحرب ضد بولندا .

قال يودل لزوجته : يبدو أن الموقف اخطر كثيرا مما نتصور . ولكن هذه مشكلة رجال السياسة وليست مشكلة رجال الحرب ، كل الذى اعرفه اننى اذا ركبت هذا الزورق فلا نزول منه الا بالموت !

اما دين يودل ومذهبه وحياته وموته ففى كلمة واحدة الجندية ! وقد كتبت زوجة يودل قصة حياته .. وفى هذه القصة احداث وتحليلات .

ممتعة . فزوجته هذه كانت تعمل هى الاخرى فى هيئة الاركان . وكانت منضبطه تماما . وتؤمن بأن كل شىء يهون من اجل المانيا .. وان اعظم ما فى الدنيا هى ان يكون الانسان جنديا . والسيدة لويزة يودل مخلصة متفانية فى عملها . وقد ساعدت المحامين الذين دافعوا عنه .. قدمت لهم المعلومات والوثائق . وفى كتابها حاولت أن تقول وان تستخلص المعنى والعبرة . وقد نجحت فى ذلك . ولكن لو عادت له الحياة لدفعته الى الميدان ليموت من اجل المانيا .

ورأت زوجة يودل ان محكمة نورنبرج غير دستورية . وان الشعب الالمانى فقط هو الذى له الحق فى ان يحاكم رجاله وان يحكم عليه .. وان المحكمة انعقدت وانفضت ، ولكن الشعب الالمانى هو الذى ادان المحكمة ، وان لم يكن قادرا على تنفيذ الحكم ـ اما زوجها الذى ادين وسوف يستأنف التاريخ الحكم عليه .. وسوف يحكم ببراءته . لا شك فى ذلك . فقد عاش كما مات جنديا شريفا . وهى عاشت وسوف تموت حارسة لتراث زوجها .. وهى ايضا عاشت وسوف تموت مجندة للدفاع عن الذى دافع عن شرف المانيا ..

وقد حاولت الزوجة ان تقدم للمحكمة ما يدينها هى ايضا . لأنها شاركت وعرفت وسمعت ووافقت على اشياء كثيرة جدا . وانها لذلك تستحق الادانة ، شرف الادانة امام محكمة غير شرعية .. ولكن المحكمة لم تأخذ بأقوالها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورفضت وقوفها وشهادتها لصالح زوجها وضد نفسها . وفى نهاية مذكراتها اصدرت حكمين : حكما بادانتها باسم محكمة نورنبرج ، وحكما ببراءتها باسم الشعب الالمانى !

(٣)

اما القائد الثانى الذى اختارته محكمة نورنبرج نموذجا للعسكرية الالمانية فهو : الجنرال هرمان بلاك . اعظم القواد على جانبى القتال فى الحرب العالمية الثانية . وكان يقود القوات البرية المحمولة التى اخترقت فرنسا سنة ١٩٤٠ . كما حارب فى الجبهة الشرقية . وكان مصدر القلق والارتباك فى خطوط الروس . فله قدرة فريدة على المفاجآت .. وكان يتفنن فى الحركة الغريبة والتكتيكات التى لا يتوقعها احد .. وهو المسئول وحده عن وقف تقدم القوات السوفيتية فى المجر ، حتى يتمكن هو من الانسحاب الى النمسا ، ثم يسلم نفسه وقواته الى الامريكان .

هذا الجنرال قد حارب كما لم يكن مسموحا للجنرال يودل ان يفعل . كان يحارب فى الصفوف الامامية مع الجنود . ولم يتهمه احد بانه مجرم حرب . وفى سنة ١٩٧٩ وعمره ٨٥ عاما أدلى باحاديث للصحفيين الامريكان . استهلها بقوله : اننى جندى « بروسى » مائة فى المائة . ولو عادت الحرب لاخترت موقعى وحاربت من جديد ، لاشك فى ذلك ودون أسف على أى شىء .

وقال : لكى تفهم معنى كلمة « بروسى » يجب ان تنظر الى موقع بروسيا على الخريطة . انها اقليم صغير جدا محاط بقوى عظمى ولذلك يجب ان تكون اكثر براعة وأسرع حركة من كل أعدائنا . وقد استهل ذلك الموقف الملك فريدريش الأكبر فى معركة بويتن حيث هزم قوة نمساوية تفوقه عددا وعدة . وبالاضافة الى ضرورة ان نكون اكثر مهارة ، يجب أن نكون أقدر على الحركة والمناورة من أعدائنا .

وفى عبوره سنة ١٩٤٠ لنهر الموز قال هرمان بلاك :

كان لابد من العبور . لقد تدربت على ذلك أنا وجنودى . وكانت عندى أفكار كثيرة أثناء تدريباتنا على عبور هذا المانع المائى . فكنت أقول لنفسى : كل مدفع لا نستخدمه على الأرض يجب أن نوجهه للدفاع الجوى .

قال : لقد تدربنا جميعا على عبور النهر فى زوارق من المطاط . فعندما وصلنا الى نهر الموز فى انتظار المهندسين ، لم يظهر منهم واحد .. لم يصلوا . بينما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت زوارق المطاط هناك فى انتظارنا ! . ماذا عساه أن يحدث لو لم أكن أنا الذى أصدرت أوامرى بالتدريب فى غياب المهندسين ؟ كارثة كانت من الممكن أن تقع خاصة أن هذه العملية قد تمت تحت نيران فرنسية مكثفة . ولذلك دفعت قواتى الى الأمام . لكى أعرف قدرة الفرنسيين على الصد والرد . أما الغرض من وجودى فى المقدمة ، فلكى أواجه المواقف الحرجة وأتخذ القرار السريع ، ومن غير وجودى فى المقدمة ، كان يستحيل على قواتى أن تحقق السلاسة والانسياب فى المعركة .

وفى معركة الدبابات الروسية سنة ١٩٤٢ كان يتقدم بالفرقة ١١ مدرعات عندما اتصلت به القيادة تقول ان الروس يحاولون الالتفاف حول جناحه الأيسر . وانه لابد من تطهير هذا الاختراق فورا . ولكنه فاجا الروس بعدد من التحركات التى اربكتها تماما . ونجح فى تطهير قواتهم التى اخترقت جناحه الايسر .

أما السبب فى نجاحه فهو انه يتقدم مع قواته وانه اسرع حركة . فالروس يحتاجون إلى ٢٤ ساعة لكى يحققوا ما يبلغه هو فى عشر ساعات .. وهو قد أصبح خبيرا فى التعامل مع الروس ، ولا يعرف كيف يكون رد الفعل الامريكى لو انه حاربهم . من المؤكد انهم اسرع من الروس ! .

ومما قاله الجنرال هرمان بلاك فى احاديثه التليفزيونية : بعض الناس يرى أن الهجوم يكلف قوات أكبر من الدفاع ، لا تصدق من يقول ذلك ، فالهجوم اقل تكلفة من الدفاع والمسألة نفسية . ففى الهجوم نجد ثلاثة أو أربعة أشخاص هم الذين يتقدمون وبقية الجيش يمشى وراءهم . ولكن فى الدفاع فعلى كل جندى أن يتمسك بموقعه وحده لا ينظر الى جاره . وانما فقط ينظر امامه . ان كان احد سوف يتقدم . وهو عادة لا يساوى المهمة التى يقوم بها . ولذلك فمن السهل اقتلاع اى مواقع . ولا شىء يكبدنا الخسائر الفادحة مثل دفاع فاشل ولذلك فعليك أن تهاجم ما استطعت .. والهجوم له عيب واحد : كل القوات والقيادات يجب ان تتحرك وأن تقفز . وهو مرهق تماما . أما فى حالة الدفاع ففى استطاعتك أن تدخل جحر ثعلب وأن تستغرق فى النوم !

ولما سئل عن أسلوب القيادة قال هرمان بلاك :

يجب ألا تكون للقائد خطة محددة . يجب أن يتخذ القائد من الخطط ما يناسب الدفاع الحى المتحرك أمامه . ولأن المواقع لا تتطابق عادة ، فعلى القائد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الا يتخذ الخطط التى استخدمها غيره من القادة أيا كانوا .

ولذلك يمكن أن يقال ان دراسة التاريخ العسكرى خطرة جدا .. لأنها تفرض على الدارس نظريات وخططا . هذه الخطط قد كانت مناسبة فى ظروف مضت ، ولا تصلح لظروف جديدة مختلفة . وهناك مبدأ فى العسكرية يقول : لا تعمل الشيء الواحد مرتين . حتى لو كان ذلك أسهل . فمن ادراك ربما عرف العدو هذا الشيء واستعد لاتخاذ موقف مضاد ! لابد ان تبتكر . لابد ان تعمل شيئا جديدا . فلا أحد يفكر فى أن يكون رساما عظيما اذا هو نقل لوحات كبار الرسامين .. فهذا تقليد اعمى .. ولكن الفنان الحقيقى هو الذى يبتكر هو الذى يكون له رأى خاص ومزاج خاص واسلوب خاص .. وكذلك القائد العسكرى .. فالقيادة فن جميل نمارسه بارادة حرة وخيال ، ولذلك فليس فى الدنيا فنانون عظماء كثيرون .. ولا قادة عظماء كثيرون أيضا ..

وعندما وقع الجنرال بلاك فى أيدى الامريكان رفض التعاون معهم . وكان جوهر عمله العسكرى هو ابتداع الحيل والخدع العسكرية لكى يوقع الارتباك فى صفوف العدو .. وفى صفوف البيروقراطية الالمانية .

وكان الجنرال بلاك يحارب لانه يحب العسكرية ولأنه موهوب . وهو كجندى محترف كان جادا فى عمله .

وكلاهما نموذج للجندى المحترف .

وكان يودل يترجم قرارات هتلر الى ورق وخطط .

اما بلاك فكان يقفز من مصيدة الى مصيدة حريصا على جنوده وعلى خفة دمه .

وكان يودل يرى أن هتلر هو القدر .. وانه قوة خارقة تتجاوز الصواب والخطأ . قوة يجب أن تطاع ..

ويوم اختلف يودل مع هتلر حول توسيع القتال فى جنوب جبال القوقاز باستخدام المظلات ، كان هذا الخلاف مصدر تعاسة حقيقية له .. ولكنه أطاع الاوامر .

وعندما قال بلاك لهتلر أن خللا وقع فى امداد الدبابات والعربات ، لم يأخذ هتلر برأيه . ولذلك لم يكن فشل هتلر مفاجأة له . وانما قال : هتلر لم يفلح فى السيطرة على الصناعة الألمانية .

بينما ظل يودل يحارب إلى آخر لحظة لأن أوامر هتلر هى أوامر السماء ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينما ظل بلاك يحارب أيضا ، لانه لايتقن أى عمل آخر .. كلا الرجلين نموذج ممتاز لقضية ملعونة !

كلاهما استخدم قدراته ومواهبه لخراب نصف أوروبا !

وكلاهما كان له أثر عميق على سنوات الانسحاب الطويلة . ولم يكن نتيجة لهذه الاطالة إلا مزيدا من عذاب الملايين !

ولم يتأثر كلاهما بما أحدثه من دمار وخراب فى القرى والمدن التى أحرقوها أثناء الانسحاب !

ولكن محاكمة نورمبرج ـ وهذا هو المهم ـ قد فرقت بين الرجلين .. سواء كانت هذه المحكمة دستورية أم لم تكن .. ولكن اقامة المحكمة تدل على ما الذى أراده الرأى العام فى ذلك الوقت . وقد أعدم يودل ، وأطلق سراح بلاك . لماذا ؟

أن أساس التفرقة هو : الاستراتيجية والتكتيك .

الجنرال بلاك كان بريئا فى حربه الشرسة على مستوى التكتيك ..

أما يودل فقد أعدم بسبب حربه الشرسة على مستوى الاستراتيجية ..

ومن وجهة نظر محكمة نورمبرج : يكون الفاعل مجرما عندما يخطط لاسقاط أو تدمير جيرانه المسالمين . ولكن ليست جريمة أن يقوم مقاتل آخر بتنفيذ ذلك حتى لو أدى ذلك بمنتهى التفوق والبراعة ..

ولايزال العالم ينظر باحترام إلى المقاتل الذى حارب ببراعة ، سواء كانت قضيته عادلة أو ظالمة ..

وهناك خلاف آخر بين هذين القائدين :

الجندية : دين ..

والجندية : حرفة ..

فالجنرال بلاك كان خفيف الدم ، لأنه يحارب ولم يكن متجهما . وكان ينتقل من معركة إلى معركة ، كما ينتقل الرسام من لوحة إلى لوحة . ولم يكن لذلك الانتقال أو الرسم أى مدلول دينى . وهو ينتصر فى معركة ببراعة فقط ، دون أن يقول أن هذا الذى عمله مقدس .. لقد كان الجنرال بلاك تاجرا بارعا !

أما الجنرال يودل فقد وضع القتال فوق الانسانية . وقد أقسم على أن يحارب وأن يقتل وأن ينتصر . المهم أن ينتصر . انتهى . ولذلك يجب أن يظل مخلصا لمثله الأعلى فى الجندية حتى لو أدى ذلك إلى انهيار ألمانيا . وأن يظل جنديا منضبطا أهم عنده من أن ينقذ ماتبقى من ألمانيا . فهو جندى مخلص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لزعيمه هتلر . ولذلك تأثر بجنون هتلر . فالجندية فكرة متسلطة عليه ولا علاقة لها بالعقل أو بالواقع . فهو يمشى وراء هتلر حانى الرأس .

ولا يسأل إلى أين . ولذلك فعندما أصيب هتلر بالجنون أصيب هو أيضا .

وكل دولة تضع العسكرية والجندية فى أعلى الدرجات ، لابد أن تصاب بالجنون فى النهاية .

(٤)

وشىء من هذا قد أصاب الأمريكان فى الحرب الأهلية وفى معاركهم فى الجنوب . وولايات الجنوب قد آمنت بالحرب دينا وأسلوبا للخلاص ! أسلوب أرادته السماء ، وليس على الجنود الا طاعة أولى الأمر من القادة العسكريين . ولذلك ليس غريبا أن يكون أعظم جنرالات أمريكا هم الذين قاتلوا فى الجنوب ، وأن يكون ألمع العقول الأمريكية قد حاربت واحترفت القتال فى الجنوب . فالجنرال « روبرت لى » (١٨٠٧ ـ ١٨٧٠) هو أعظم قائد وأعظم انسان أيضا .

وقد أدت براعته فى الحرب إلى عذاب مئات الألوف . وعندما عاد إلى بلده استقبلته الجماهير بحماس وبهجة لم يعرف لها مثيل . وهو قائد ممتاز وانسان نبيل . ولكن عبادة البطولة التى كانت حوله وأمامه وخلفه هى التى جعلت منه أنسانا غريبا .. غريبا عن الناس وهو الذى أفسد على أهل الجنوب نظرتهم .

إلى الدنيا .. فقد حبسهم فى الحرب .

وجعلهم يؤمنون بأنه لاشىء إلا الحرب وبالحرب ..

والجنرال لى أعظم من الجنرال بلاك وأطيب وأرق من الجنرال يودل .. ودوره فى التاريخ يشبه دورهما تماما .

والنتيجة : أن كل مجتمع يقدس القيادة ، من المؤكد أنه سوف يصاب بالجنون فى النهاية .. أما النتيجة فهى تعاسة الشعوب .

وهذا بالضبط ما أصابنا بعد الهزائم العسكرية فى سنة ١٩٦٧ وأصاب الأمة العربية كلها . ولا يزال .. ثم أن التعاسة هى التى يعيشها المجتمع الاسرائيلى العسكرى من قدمه إلى رأسه . وسوف يبقى طويلا ، مادام القلق وعدم الشعور بالأمان هو طعامه اليومى .

(٥)

أما الانجليز فهم أحسن حالا .. فقد عاش الانجليز مئات السنين ينظرون إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أميرال البحر على أنه هو البطل .. وهو القادر على أن يحل ويربط .. وعلى الحرب والنصر .. أما القادة فى البر والجو فهم دون ذلك . والنكت والقفشات والمواقف المضحكة فكانت من نصيب جنرالات البر والجو .. أما جنرالات البحر فهم أعظم وأروع .

وقد اعتقد الانجليز أن الاميرال جليكو (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥) القائد البحرى فى الحرب العالمية الأولى هو وحده القادر على أن ينهى الحرب العالمية ، إذا أراد ، فى أى يوم قبل تناول الشاى . يكفى انتصاره العظيم فى معركة يوتلاند فى شمال الدنمرك . مع أن هذه معركة صغيرة ، وانتصاره فيها لم يكن باهرا . ولكنها كانت أفضل من معارك الكثير من الجنرالات فى الجبهة الغربية . لقد استطاع أن يحتفظ بأساطيله سالمة دون أن يخسر معركة واحدة .

ونظرة الانجليز إلى الجندية لايختلف عن نظرة الألمان . والفارق هو أن الجندية عند الانجليز هى (البحرية) ..

وهتلر مثل تشرشل تماما ـ كلاهما عاش بهذه المعانى . وكلاهما عاشق للحرب . وكلاهما يرى أن السبيل الوحيد لتحقيق أحلامه هى الحرب . وان كانت نتائج الايمان بالبطولة مختلفة فى البلدين .

فالمعارك البحرية محددة وموقعها ومعاركها وكذلك انتصاراتها فنلسون العظيم (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) لم يحطم ولاية أو دولة .. ولا ادت انتصاراته العسكرية الى ان تستسلم الدولة المعادية دون قيد أو شرط .

فالاسلحة فى الحروب هى التى تحتم شكل نهاية الحرب ، وادوات البحرية متواضعة اذا قيست باسلحة البر والجو . ولكن هذه الادوات المتواضعة لم تمنع القوات البحرية من بلوغ حدود الجنون وابادة البشر ..

واذا نحن نظرنا الى واشنطن القائد الامريكى العظيم ونابليون القائد الفرنسى الاعظم ، نجد انهما متشابهان ومختلفان ايضا .

فواشنطون كان له هدف محدد هو انشاء قواعد الحكم حتى تعيش امريكا فى امان ورخاء . والذى حققه واشنطون ظل مستمرا اكثر من مائتى عام .. اما نابليون فكانت حروبه لا نهاية لها ولا حدود . قواته ضخمة ، وجيوشه فخمه لم يشهد له احد مثيلا قبل ذلك . لقد اقام امبراطورية واسعة انهارت كلها قبل ان يموت .

فإذا نحن وضعنا صور هؤلاء القادة جميعا : يودل وبلاك ولى وواشنطون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونابليون وهتلر وتشرشل فما المعنى .

ان الجنود المنحرفين لهم دور نبيل فى التاريخ . وضرورى ايضا . ولا تزال الشعوب تحترم جنودها . ومادام من حق كل بلد ان يدافع عن نفسه ، فمن حقه ايضا احترام هؤلاء الذين يدافعون عنه . والاحترام هو المشكلة هل هو احترام فقط او هو تقديس .. هل هو الاحترام مع حق التصرف أو هو التقديس والاستسلام .

ويجب الا نخلط بين التقديس وبين التمسك بالقيم الاخلاقية والدينية ومبادىء الانسانية ..

ويجب الا نعطى العسكريين قوة القدر ، قوة ما بعدها قوة .. فيكونوا انصاف آلهة أو آلهة .

ولحسن حظ الانجليز ان ابطالهم فى الحروب كانوا متواضعين . ولذلك أقاموا امبراطورية دون أن تصاب بالجنون . فهم يحترمون القائد البطل تماما كما يحترمون الملاكم البارع ـ لا أكثر ولا أقل !

أما الطاعة العمياء والايمان بضرورة الابادة الانسانية من أجل النصر ، فقد أدت بألمانيا الى الذل والهوان .

ومع الأسف فان القوات الجوية هى التى دفعت بريطانيا الى الايمان بضرورة التدمير الشامل . ففى سنة ١٩٢٠ استحدثت بريطانيا استراتيجية التدمير الجوى . وأنشأت بريطانيا اسطولا جويا لضرب الاهداف المدنية والاقتصادية فى المانيا . وسارت وراءها أمريكا وفى سنة ١٩٣٠ فتحت بريطانيا وأمريكا الطريق الى هيروشيما ونجازساكى حين استولى على جنرالات البلدين فذهب التحطيم الشامل للعدو . ولذلك كان قادة القوات هؤلاء الذين لديهم معلومات تكنولوجية جديدة .. تؤدى الى النصر على جثث مئات الالوف ..

وفى سنة ١٩٦٠ وعلى أيام خرتشوف احتل الخبراء كل المراكز العسكرية فالحرب تكنولوجية ، أى أنها حرب معلومات والمعلومات عند الخبراء .. لقد انتهى عصر الشجاعة الفردية والصبر والتضحية لأن أدوات الحرب أجهزة دقيقية معقدة تنطلق بعقول ألكترونية .. تنطلق الى اصابة أهداف وجنود لانراها .. فكل شىء علم وتدريب وممارسة ، والحل هو الأسلحة النووية .. وأصبحت الذرة هى الاله الجديد الواجب التقديس .. وقد قدسه الجنرالات كما قدس الجنرال يودل الزعيم هتلر ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى كل الحروب تسود نظريتان : نظرية العقل ورد الفعل السريع .. ونظرية الانبهار والدمار ..

والحرب العالمية الأولى كانت تطبيقا للانبهار والدمار .. ورواد هذه الحرب من مثل : فون سيكت فى المانيا وديجول فى فرنسا وفولر فى بريطانيا ، تعلموا كيف يقومون بالابادة الجماعية فى الجبهة الغربية وفرنسا مع الاسف ، لم تسمع الى ديجول واقامت خط ماجينو .. وبريطانيا لم تستمع الى فولر واقامت سلاحا للقاذفات الجوية .. أما المانيا فقد استمعت الى فون سيكت واقامت فرق المدرعات التى حققت كل ما طلبوه منها فكانت حرب عقول وحركة سريعة ورد فعل خاطف .. فحققت الانتصارات الانيقة التى قام بها الجنرال هرمان بلاك ..

وكانت الحرب الخاطفة لهتلر مذهلة .. وان لم تكن مدمرة مثل معارك الحرب العالمية الاولى .. أما الهزائم التى لحقت بالحرب الخاطفة فلأنها فشلت فى روسيا .. وفشلت بسبب وحشية البوليس الالمانى ، وبسبب الغارات الجوية المكثفة لطائرات الحلفاء وعلى الرغم من كل ذلك فان حرب المدرعات كانت هى الحرب .. فقد تمكنت جيوب صغيرة من كسب المعارك الكبرى مع القليل من الخسائر .

(٦)

ومن القصص الدينية أن الملك « طالوت » أراد أن يمتحن جنوده الذين أرهقهم السير .. فقال لهم انه سوف يمر على نهر الاردن .. وعليهم أن يرتشفوا القليل فقط .. أما الذين سيشربون حتى يرتوا فلن يحاربوا معه .. وكثيرون شربوا أما القليلون الذين بللوا ألسنتهم فهم الذين حارب بهم ..

ويقال إنه نهر الغرور .. ويقال إنه نهر الانتقام .. فالجنود الذين امتلأوا غرورا وتعطشا الى الانتقام هم الذين يرون أن الحرب حياة وأن الموت للعدو والدمار الشامل هو الهدف ..

أما الذين بللوا ريقهم ومضوا للقتال ، فالحرب قد أضطروا الى خوضها ثم هم يحاربون ويسالمون بعد ذلك ..

والقرآن الكريم يحكى لنا طرفا من ذلك « . . . قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم .. » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا النهر كأنه البطل أيضا أو عبادة البطل ويكون الثمن فادحا بعد ذلك ويصبح هذا الثمن فادحا جدا ، اذا لم نحاسب احدا من القادة على الذى فعله من اجل خراب ودمار البلاد والعباد !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعالوا نرفع أيدينا
نحن شباب مصر !

المتصوفون هم أقرب الناس إلى الحقيقة .. ولكنهم لا يعرفون كيف يقنعوننا بذلك .. فالمتصوف يحنى رأسه ويقفل بابه ويسكت ساعة ويوما وشهرا ، كأنه مات . وفجأة تلمع عيناه ويشرق وجهه وتدب فيه الحياة ويقول : وجدته ..

أما الذى وجده فهو الله .. وجه الله . نور الله .. كيف ؟

لا أحد يعرف . ولا يحق لك أن تسأل صوفيا كيف حدث ذلك .. فهو لا يعرف ..

نقرأ ما قالته رابعة العدوية (٧١٣ ـ ٨٠٩م) ورابعة القيسية ورابعة الشامية ورابعة البغدادية وراهبة الموصلية .. وتجد كلاما جميلا ورموزا عميقة . عبارات كأنها حبات اللؤلؤ أو حجرات الماس . ولا نعرف ولا هى ، كيف تأتى لها ذلك .

وما كتبته القديسة تريزة الاسبانية (١٥١٥ ـ ١٥٨٢) عن العشق الالهى .. أو انكشاف الحقيقة والحق .. كل ذلك يحيرك يدوخك .. ولكن هذه هى الحقيقة .. ولا توجد وسيلة أخرى الى مطالعة وجه الله ، أو شعاع من نور الله . كيف ؟

أما رابعة العدوية فتتغنى فى حبيبها ومعشوقها : الله سبحانه وتعالى . انصرفت عن الدنيا إليه ، وأغمضت عينيها عن كل المخلوقات وفتحتهما على الله ..

تقول رابعة العدوية :

أنى جعلتك فى الفؤاد محدثى
وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

فما السبيل إلى ذلك ؟

الصوفيون هم أقدر على ذلك .. فالصوفى ينصرف عن الدنيا ورغباتها ، ويسد أذنيه عن الناس وعينيه .. ويسد نفسه أيضا .. وينفتح على ما قلبه . ويظل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا ساكتا طويلا وعميقا .. وكما يحدث فى الليالى المظلمة أن يمرق فى السماء شهاب لامع أبيض طويل .. يضيء ويبهر ثم يختفى .. ولا يجيء هذا الشهاب الا بعد ليل طويل وصمت عميق وصفاء كامل .. والا بعد التذلل والاستسلام على أرض الله ، ولله .. هنا يهب الصوفى متحدثا واعيا شاعرا حكيما .. كذلك كانت رابعة العدوية وكانت القديسة تريزا تقول : اننى لا أجد حبيبى واقفا وراء الباب اننى أنا واقفة وراء الباب ، ولا يزال الباب يتراجع والطريق ينفتح واللون يتسع وفجأة اجد بصيصا من النور .. هذا هو حبيبى .. والقليل من الحبيب كثير . والحبيب هو الله !

ولولا ساعات وسنوات من العزلة المظلمة ، والصمت العميق ، والعشق المتفانى ، ما جاءت هذه اللحظات المضيئة .. الباهرة ..

والذى يفعله الصوفية عن عمد ، وبعد ذلك عن استسلام ، يصيب العلماء أيضا ..

فالعالم والفنان المبدع ، يكون غارقا مستغرقا ، ولا يعرف له طريقا أو هدفا .. وينطلق فى كل طريق وفى كل اتجاه .. عاما بعد عام ... وفجأة يجد النور فى اعماقه .. يجد الطريق قد اشرق ، والهدف قد اقترب ، والراحة الكبرى . ماذا حدث ؟ كيف حدث ! انه انفصل عن كل شيء ، وانعزل واعتزل ، وطال ذلك ، وتعمق واستولى عليه وفجأة جاءت لحظة النور والتنوير والجلاء البصرى والسمعى .. وفجأة وجد نفسه أمام الذى كان يريد ..

يقول العالم الفيزيائى الكبير اينشتين : انه ظل سبع سنوات مشغولا بنظريته النسبية العامة والخاصة .. يقلب رأسه فى الأرض وفى السماء ، ولا يعرف كيف يجد ما يريد .. فعنده شعور ما ، وعنده يقين ما ، ولكنه لا يعرف كيف يدلل عليه ، كيف ينقله الى الناس ، كيف يمسكه كيف يحصره فى كلمة ، كيف يحسبه فى معادلة رياضية .. لا يعرف ولا يدرى متى يكون ذلك .. ولكنه يتجمل بالصبر .. ويتوسل الى كل الذى يراه ويسمعه ويحس به أن يتريث قليلا .. أن يتوقف لعله يفهم .. لا شيء من كل ذلك .. وفجأة ، بعد سنوات من التخبط فى كل الظلمات .. انفتح نور .. هنا احس أنه ليس فى حاجة الا لوقت قصير لكى يسجل الذى رأى والذى سمع . واستغرقت كتابته للنظرية ثلاثة أسابيع !

أما هذه «الحالة» التى تسبق لحظة التنوير والانكشاف والمكاشفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والانقشاع ، فهى ضرورية . فهذه الحالة نوع من الركود أو الجمود أو هى الحضانة أو التحضير أو التحضين ، ولذلك فمن الضرورى أن نستسلم لها ..

يقول الشاعر الالمانى ريلكة : أنها تشبه الصمت الحزين الكئيب الذى يعترى الانسان عندما يجد السماء ملبدة بغيوم سوداء .. هذه الغيوم جاءت من بلاد بعيدة لا نعرفها .. وفجأة يمزق السماء برق أو يزلزلها رعد .. وفجأة تسقط الأمطار .. ثم تتكشف السماء عن شمس تبعث نورها من بعيد ..

هذه هى « العتمة » التى تسبق النور .. هذا هو « الغبش » الذى يسبق الشروق والاشراق ..

وكما يهيم الفرد فى المجهول حتى يهتدى الى النور ، فكذلك الشعوب .. تظل راكدة نائمة ، كأنها نائمة ، أو ميته .. كأنها ميته .. ويكون هذا النوم أو الموت ، تحضيرا لما بعد ذلك .. مقدمة للتعديل والتطوير .. متى ؟ كيف ؟ لا نعرف .

ولكن . لابد .. كل التاريخ من أوله لآخره به فترات نوم .. أو موت أو ما يشبه الموت .. ثم الصحوة والنهضة واليقظة والثورة ..

والذى يرى الشعوب كأنها ماتت ، كالذى يرى بعض الحشرات والطيور فى « بياتها الشتوى » كأنها ماتت .. ولكنها لم تمت . أنها قد أغفت لكى تصحو بعد ذلك ..

« والبيات الشتوى » عند الحشرات والزواحف والطيور والثدييات ، هو استعداد لمواجهة الشتاء البارد .. فينام الحيوان فى الطين أو فى الجليد .. ويكون هذا النوم من أجل ادخار الطاقة فتنخفض حرارة الحيوان ويقل تنفسه وتتناقص دقات قلبه .. وتمضى شهور الشتاء القاتل ، والحيوان قد استعد لكل ذلك ويجىء الربيع وينهض معه الحيوان يستأنف حياته من جديد .. كيف ؟ فى داخل كل حيوان « ساعة » كيميائية هى وحدها التى تنظم له الاستعداد للنوم . كيف ؟ لا نعرف . هذه الساعة هى التى تنظم له التوافق مع البيئة . فهذا الحيوان لم يمت ، ولكن كأنه مات .. والحقيقة أنه أخفى كل قدراته وأنامها وترك طاقة ضئيلة تقوم بإدارة ما هو ضرورى من التنفس والافراز ليبقى حيا ، أو كأنه حى ..

* * *

ويحدث فى تاريخ الشعوب ايضا ان تجىء الانتفاضة والنهضة والثورة بعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« موات » الشعوب ..

فالثورة الامريكية سنة ١٧٧٥ سارت على نفس القاعدة واسلمت قيادتها لجورج واشنطون ..

وكذلك الثورة الالمانية التى اسلمت الحكم لهتلر سنة ١٩٣٣

ولكن الامريكان قد احسنوا الاختيار عندما اسلموا قدرهم لجورج واشنطون . اما الألمان فقد اساءوا لانفسهم اساءة فادحة عندما استسلموا لهتلر ..

ولكن الاسباب التى دعت الشعبين لتسليم القيادة إلى واحد من زعمائهما هى هى . فعندما يشعر الشعب بان حالته تزداد سوءا يوما بعد يوم . وان هذا السوء قد شمل كل الناس .. هنا فقد يشعرون جميعا انه من الافضل ان يفعل الانسان شيئا .. أى شىء .. ويصدقون كل ما يعدهم بشىء لأنهم يريدون ذلك ويحلمون به .. يحلمون بالذى يخلصهم من الظلم والظلام .. يحلمون بالذى يعدهم بالقمر .. ويعدهم بالشمس ..

وكل الذى يعد الناس « بالتغيير » هو بالضبط من يختاره الناس زعيما عليهم ..

وفى سنة ١٩٣٩ قرر رئيس وزراء بريطانيا نيفيل تشمبرلن اعلان الحرب على هتلر . ففى ذلك الوقت احس الشعب الانجليزى بضرورة تغيير .. بضرورة ان يهتز الماء الراكد ، والنفس البليدة ، والعقل الجامد ، والخوف الشامل ، والانتظار الممل .. وبسرعة وذكاء استطاع تشمبرلن ان يعبىء الشعب الانجليزى للتغيير ووزع عليه اربعين مليون كمامة للوقاية من الغازات السامة . انه إذن التغيير القادم الذى ينتظره ويريده الجميع .. وكانت هذه « الكمامة » رمزا بليغا مقنعا !

أما الفرنسيون فى ذلك الوقت فقد أيقنوا أن حكومتهم ليست جادة فى محاربة النازى . لماذا ؟ لانها لم توزع عليهم كمامات ضد الغازات السامة !

ولكن هذه الرغبة فى التغيير بالغة الخطورة . لان الوسيلة الوحيدة للتغيير هى : الحرب . والحرب هى أسهل وسيلة تلجأ إليها الشعوب لكى تفلت من قبضة القانون والنظام من التقاليد والعادات . إن الحرب هى الرغبة العميقة فى أن تفلت الشعوب من الروتين اليومى فى حياتها .. من الملل .. من القرف .. من الضيق .. من الانتظار .. من التبلد .. من الركود .. من الإحباط ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والرجل الذى يعد الشعب بالتغيير عن طريق الحرب ، هو الزعيم الذى اختاره الشعب !

وفى مايو سنة ١٩٨٢ اتجهت الأساطيل البريطانية الى جنوب المحيط الاطلنطى لتحارب الارجنتين دفاعا عن جزر فوكلاند .. انها الحرب !

وكان الرأى العام الانجليزى فى سنة ١٩٨٢ يشبه الرأى العام فى سبتمبر ١٩٣٩ .. عندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا . ولما قررت مرجريت تاتشر محاربة الارجنتين ، لم يشعر الناس بان ٤٣ عاما قد مضت بين الحربين .. وإنما هو شعور مأسوى ممتد .. وإن كانت الحرب مع الارجنتين شيئا صغيرا لا يمكن مقارنته بالحرب العالمية الثانية ، ولكن الرغبة فى الحرب كانت قوية . وأدركت مرجريت تاتشر بذكائها وحسها التاريخى ، أنه لا إنقاذ للانجليز من الركود والجمود والخمود والقرف الذى اعتراهم ، الا هذه الحرب التى تنعش الناس وتفتح شهيتهم على الحياة ، وتجدد ثقتهم بها .. ولم يتوقع الناس أن يكون النصر رخيصا سهلا .. ولكنهم أرادوا الحرب ، ولم يفكروا كثيرا فى النصر أو فى الخسارة . المهم هو ان يطرأ تغيير قومى شامل ..

ونتائج الحرب ١٩٣٩ و١٩٨٢ كانت أقل فداحة مما توقع الناس ، ولكن الشعب كان على استعداد للمغامرة . المهم أن يفعل أى شىء . بدلا من هذا «الموات».. فكلا الحربين قد انتظرها الرأى العام واستعد لها وباركها وبذلك تمكن الشعب بهذه الوسيلة من القضاء على ما يعانيه من ملل واحباط .. ويحدث أن تمشى فى الشارع .. الشارع هادئ .. الحركة منتظمة .. رتيبة .. والناس لا ينظر أحدهم إلى أحد ولا يريد .. ويتصادم الناس أو يتفادون ذلك .. وفجأة تسمع صوت فرملة صارخة .. ويتجه الناس إلى مصدر الصوت ويجدون قتيلا ويلتفون حوله وقد تنفسوا بارتياح كأنهم يشعرون بالامتنان للقتيل ، لأنه أخرجهم من حالة الركود والبلادة .. وأنه استوقفهم ليهزهم .. ليثيرهم .. ويكون الناس أخف وزنا وأكثر ارتياحا بعد الحادث .. كأنهم كانوا ينتظرونه .. يتوقعونه .. فلما حدث، استراحوا . ؟ !

والناس فى هذه الحالة في غاية القسوة واللإنسانية .. فلم تمتد الأيدى لانقاذ القتيل أو القاء القبض على القاتل ..

أما وقوفهم وبرودهم وبلادتهم يؤكد مرة أخرى أنهم فى حاجة إلى ما هو أكثر من حادث .. إلى ألوف القتلى .. إلى الحرب !.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمؤرخ اليهودى يوسيفوس يصف لنا كيف سقطت القدس سنة ٧٠ م فى أيدى الرومان . وكيف أن اليهود عرفوا الجوع والعذاب والهوان وأكلوا الأعشاب .. وهاجموا الموتى يفتشون ملابسهم لعلهم يجدون طعاما .. ويحدثنا عن سيدة غنية أسمها مارية العازر حاصرتها الحرب . وجاعت . وكادت تموت . فلم تجد إلا طفلها الرضيع على صدرها .

قالت له : لن أتركك تعيش حتى يستعبدك الرومان بالجوع والذل ، وبعد ذلك يقتلونك .. أبدا .. أنا أخرجتك من بطنى ، أنا أعيدك إلى بطنى .. ثم قتلت طفلها ووضعته فى النار .. حتى أنضجته . وراحت تأكل منه ، وجاء الرومان وشموا رائحة الشواء فهددوها أن لم تعطهم مما عندها .. وكشفت الغطاء عن طفلها وقالت : لاتكونوا أجبن من أمرأة .. كلوا واشربوا!

يقول يوسيفوس : لقد طال الحصار وطال العذاب .. ففى هذه الحالة لايملك الانسان إلا أن يفعل أى شىء .. فيكون وحشا يفترس نفسه ، قبل أن تأكله الوحوش !

★ ★ ★

ولكن هناك أساليب أخرى لاخراج الشعوب من حالة الملل العام والقرف القومى .. هناك مشاريع للسلام ، مثل مشروع مارشال لانقاذ أوروبا من الانهيار الاقتصادى والضلال السياسى ..

كما حاول الرئيس كنيدى سنة ١٩٦١ أن يخرج بالشعب الأمريكى من القرف السياسى واليأس من الوصول إلى أى حل مع الاتحاد السوفيتى .. عن طريق الاتفاق أو الوفاق .. ولذلك قرر الرئيس كنيدى أن ينقل التنافس بين الأمريكان والروس إلى مستوى أعلى .. فكانت مشروعات الرئيس كنيدى للانطلاق إلى القمر .. وكان من رأيه ـ وهو على حق تماما ـ أن مثل هذا المشروع سوف يجذب الرأى العام الأمريكى ، ويرفع رأسه إلى أعلى ، وسوف يحشد كل الطاقات الابداعية فى هذه الحرب العلمية التى لم تنطلق فيها رصاصة واحدة .

ولكن هذه الفكرة الممتازة المريحة ، قد سقطت بسرعة عندما دخلت أمريكا الحرب فى فيتنام .

ومع ذلك يمكن استخدام الأساليب السلمية التى تستغرق الناس ، فى مشروعات ليس من الضرورى أن تكون بعيدا مثل القمر ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى الصين عندما استقرت الأوضاع للحزب الشيوعى وحكم طويلا وعميقا . كان لابد من هز السطح الثقافى فى البلاد .. فكانت الثورة الثقافية » .. غير أن الناس أحسوا أنها استئناف للقتال ولكن بأساليب أخرى ، فأخمدوها وأستغرقوا فى تطوير الصناعة والزراعة والبناء والانفتاح على الغرب وعلى اليابان وأمريكا .

ولم تسفر حرب الروس فى أفغانستان عن تحقيق الشعور بالراحة عند السوفيت .. فلم تكن لهذه الحرب أى أثر عام .. وأنما هو أثر سياسى دبلوماسى فقط .. ولذلك كان لابد من تحريك الركود والجمود وليس بالحرب ولكن بالسلام .. وتقدم الرئيس جورباتشوف بمشروعه الاصلاحى الشامل : بريسترويكا .. أى أعادة بناء كل ماانهدم وفسد .. وأن تقوم الشعوب السوفيتية كلها بالتعبير عن غضبها .. « والتنفيس » عن مشاعرها الحبيسة .. وأن ينقدوا وأن يتظاهروا .. وبعد ذلك يتقدمون يصلحون أنفسهم .. سياسيا واقتصاديا وأجتماعيا .. وأن يطالبوا بازاحة الذين أوقفوا نمو الحياة فى روسيا ، فتخلفوا عن الغرب فى كل شىء إلا فى الجمباز ! .

ولذلك فالرئيس جورباتشوف هو ضمير الشعوب السوفيتية وهو تجسيد لأعماقها فى ضرورة التغير بغير حديد ونار ودم !

* * *

وكما حدث فى مصر بعد الهزيمة العسكرية فى يونيو سنة ١٩٦٧ ، حين انهار الناس وسقطوا على الارض والى ما تحت الارض . وتداعت كل القيم والمعانى والحسابات تدفن الناس .. لقد وعدنا الناس بجنات تجرى من تحتها الانهار ، او على الاقل قناة السويس ، ذهابا وايابا الى تل أبيب وكل العواصم العربية .. وفى ساعات تبدد كل ذلك .. جاءت سنوات ما بعد الهزيمة اكثر مرارة من الهزيمة .. وتحير الناس هل يتطلعون الى بطل القومية العربية جمال عبد الناصر الذى لم ينتصر فى اية حرب عسكرية .. والذى وعد وتوعد .. ولم يسمع الناس شيئا مما قاله دراويش الناصرية الأفاقون من ان هزيمة يونيو هى انتصار لارادة مصر .. لان هذه الهزيمة كان من المفروض ان تقضى على الروح المصرية والزعامة المصرية . ولكن صلابة الارادة والعزيمة هى التى أدت الى انحسار الهزيمة ؟ !

فلم تقض على الزعيم ولكن قضت على ملايين المصريين .. المهم دائما ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبقى الزعيم ليذهب الناس فى ستين داهية .. وذهب الزعيم وبقيت الداهية فى أحضان كل مواطن .. وتحولت مصر كلها إلى سيناء التى تاه فيها موسى عليه السلام وقومه .. أصبحت مصر هى بلاد التيه .. وتاه المصريون ولم يكن لهم موسى .. ولا نزلت عليهم الوصايا العشر .. ولا المن والسلوى .. واصاب المصريون ما أصاب اهل بابل عندما انهدم بهم برج بابل .. فتبلبلت الالسنة .. ولم يعد احد يفهم ما يقوله الآخرون .. ارتبك الناس ، اختلطت الألسنة واللغات .. فكل واحد يتكلم ولكن أحدا لا يسمعه .. وكل واحد يقول ويجول ويصول .. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .. وطالت السكرة وراحت الفكرة ، والعذاب عظيم ، والعار أليم .. واستقر حال الناس على هذا الحال .. وتساوت الرؤوس بالأقدام .. وارتفعت الأقدام إلى أعلى الرؤوس .. ولم يعد أحد يعرف ما هو الفرق بين أن يمشى على قدميه أو على رأسه أو يزحف على بطنه ..

وكانت حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ .. هى الحرب الشفاء .. هى التغير الذى هو دواء .. فالناس يطلبون ذلك ، وينتظرونه . ولم يستطع أنور السادات أن يعلن أنه يستعد للحرب ، فهو يعرف النتيجة مقدما .. يعرف ان اسرائيل أكثر استعدادا ، وأمريكا من ورائها .. ويعرف أيضا أن الناس لا يريدون الحرب ، فيكفى ما أصابهم فى سنة ١٩٦٧ . وقد عرف أنور السادات كل أنواع العذاب .

فالشعب لم يجربه لا فى حرب ولا فى سلام .. وهو لم يكسب ثقة الأمريكان واليهود - وهو سوف يحارب بنفس الجيش الذى انهزم .. وهو الذى طرد الروس من مصر ، فسوف يحارب بأسلحتهم وقد يحتاج الى قطع غيار منهم .. والأمريكان لن يساعدوه على ضرب اسرائيل وهزيمة السلاح الأمريكى .. وفى نفس الوقت بحمد الله أن أحدا لا يصدقه فى مصر .. فإذا قال سوف نحارب فسترتفع ملايين الأصوات تقول : فشر .. كذب ..

ولكن عدم تصديق المصريين للسادات هو الذى أكسبه جانبا كبيرا من خداع الرأى العالمى .. وخداع اسرائيل وأمريكا . وكان موقف السادات هو أبشع عزلة عرفها زعيم فى التاريخ .. وكان لابد أن يحارب وأن ينتصر .. المهم أن ينتصر وفى ذلك رد اعتبار للجيش المصرى والجيوش العربية ، واعتذار للشعب المصرى الذى استسلم لزعيمه ، فأغرقه فى الوحل .

ولم يخف الرئيس السادات أن هذه الحرب ليست حربا بالمعنى الحقيقى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انها تحريك للموقف .

أى المواقف الراكدة .. أى الحال الجامد . الاحباط العظيم . الفشل القومى فالحرب : امتصاص لغضب الناس !

ولكن بسرعة دارت طواحين الهراء فى مصر وفى العالم العربى . يسلبون المصريين حقهم فى الراحة .. حقهم فى طلب التغيير ثم الحصول عليه ..

فقالوا : النصر صنعه نفس الرجل الذى صنع الهزيمة .. أى أن النصر من عند جمال عبد الناصر .. وأن هزيمته فى يونيو استراتيجية وانتصاره فى أكتوبر تاكتيك .

أى انه انهزم إلا قليلا ، وانتصر أيضا إلا قليلا ، أى أننا لا انهزمنا ولا انتصرنا . أى أن حالنا هو نوع من التوازن بين خيبة الأمل وبين الهوان العظيم ..

ودارت طواحين الهراء العربى . وقالوا : السادات خائن .. اتفق مع الأمريكان على قتل عشرات الألوف من اليهود .. واتفق مع الأمريكان على هزيمة الأسلحة الأمريكية التى تحارب بها اسرائيل .. وليست حرب أكتوبر إلا تمثيلية أعدها السادات وألفها عبد الناصر وأخرجها كيسنجر !

أما المعنى : فهو أن يظل الشعب المصرى فى حالة من الشك وسوء الظن .. وفى حالة من الاحباط العظيم .. لا يستطيع النصر ولا يتجرع الهزيمة .. ركود مهين لملايين المصريين .. وهذا الركود هو الذى سوف يدفع المصريين إلى التغيير العنيف .. الى الثورة على أنفسهم !

ولكن الجيش والشعب قد أيقنا بأن الذى حدث انتصار حقيقى .. وان هذه الأصوات المصرية مأجورة والأصوات العربية حاقدة .. فمصر قد انتزعت نفسها من الحضيض الى أعلى الدرجات ، شعب تخطى الهزيمة ويمشى فوق جثث اليأس ، فانتقل من أرضه فى وادى النيل الى أرضه فى سيناء . كل سيناء وطابا . وكان من آماله أن تفعل الدول الأخرى ما فعلته مصر . فأين هو وأين مصر ؟ .. تحررت مصر تماما بالحرب وبالسلام وبالعقل .. وبقيت الأرض العربية محتلة ، لأن عقولهم قد احتلها الحقد على مصر وملأت جيوبها بأموال دول الخليج .. فهى لا تريد حلا ولا خروجا من مستنقعات الاحباط التى جففتها مصر لتعيش شريفة على أرض مقدسة !

شىء عجيب جدا يحدث فى مصر وفى ليبيا .. حفلات « الزار الناصرى » لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعرف ما الذى تريد أن تقوله للناس .. وهؤلاء الناس قد تجاوزوا أعمارهم الافتراضية .. هل يريدون أن يقولوا : أن هزيمة يونيو انتصار عسكرى وسياسى .. هل يصدقهم العسكريون .. هل تصدقهم مئات الألوف من العائلات المصرية التى فقدت الزوج والابن والوالد ؟ هل يصدقهم العسكريون الذين فقدوا سيناء والجولان والضفة والقدس والقطاع وقناة السويس .. هل لأن الرئيس عبد الناصر لم يفعل ما فعله أبو الهول فى العصور القديمة عندما فضحوا أمره ، فألقى بنفسه فى الهاوية ، هل لأنه لم يفعل ذلك يظل على حق دائما .. والحق هو أن الهزيمة لم تكن إلا نصرا أخفاه عن الشعب فى يونيو ١٩٦٧ حتى يعلنه أنور السادات يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ ؟

أما المعنى الحقيقى فهو أن داروينش الناصرية وخصوصا « كدية » الزار الناصرى ، يريد أن يعيش طويلا .. أو أطول مما يجب . ولذلك فهو ينعش قصة الهزيمة من حين الى حين .. ليؤكد للناس أن الذى أصاب مصر سنة ١٩٦٧ كان بسبب أنور السادات الذى حكمها سنة ١٩٧١ .. وان نصر أكتوبر سنة ١٩٧٣ قد حققه عبد الناصر الذى مات سنة ١٩٧٠ ..

وفى مواجهة الارتباك والغياب السياسى والتاريخى وردود الفعل التى دوخت الناس ، وازاغت أبصارهم ، لابد أن يضيق الناس بهذا القرف .. وان يكفر الناس بكل أنواع القيادة والزعامة والبطولة الوهمية والبطولة الحقيقية .

ولذلك جاءت الانتفاضات الشعبية والطلابية والدينية نوعا من استخراج التغيير من بطون الناس . نوعا من تحريك السطح الساكن .. من هز الساعة حتى تمتلىء وتتحرك .. نوعا من خض اللبن استخراجا للزبدة .. نوعا من هز الفنجان العربى ، كما يفعل السعوديون ، حتى لايعطينا الجرسون مزيدا من البن المر ..

وكان من الممكن ألا تحدث هذه « الهزات » لو أن مشاريع التنمية وتوزيع الأرض على الشباب ، تمشى سليما . ولكن هناك معوقات كثيرة فى مواجهة الشباب ليس سببها أن الدولة تريد هزة شعبية .. ولكن سببها أن القائمين على اصلاح الأراضى وتوزيعها وتشجيع الشباب ، لا يدركون تماما خطورة الذى يرتكبون .. هذه هى المشكلة الحقيقية .. وهذه هى المعوقات الخطيرة .. كأن هؤلاء المسئولين يعملون بوعى أو دون وعى ، على إثارة الشباب .. على تفجير الطاقات الحبيسة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحل ممكن وسهل : أن تلتفت الدولة كلها الى ما يحقق راحة الشباب باعطائهم فرصا للعمل والكفاح واحترام تطورهم .. وفى هذه المشاريع ، تحتشد كل قوى الشعب وتتفرج على ابداع الشباب ، بدلا من أن يتفرجوا على الطوب فى أيديهم ودماء رجال الأمن .. أن مشروع كنيدى فى أمريكا قد حول العيون من الأرض الى السماء .. ومشروع مارشال فى أوروبا ، قد أضاء للملايين طريق البناء وزراعة الأرض والنفس بالحياة والأمل ..

وعندنا فى مصر كل ذلك .. ولكن عندنا أسوأ من كل شىء : وزراء جامدون ووكلاء وزارات أشد جمودا .. وسلبية ولامبالاة .. وخوف من اتخاذ القرار .. مع أن قرارا واحدا يكفى : ارفعوا أيديكم عن شباب مصر ، يرفع غضبه عنكم !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هناك أكثر من حمار دائمًا !!

فى سنة ١٥١٦ زار الرحالة « جون ليو » شمال افريقيا واقام طويلا فى المغرب . ثم جاء إلى مصر . واصدر بعد ذلك كتابه الشهير « جغرافية شمال أفريقيا » وفى مصر أقام فى ضاحية باب اللوق التى تبعد عن أسوار القاهرة حوالى كيلو مترين . وفى هذه الضاحية كانت تسكن ثلاثة آلاف أسرة من التجار والصنايعية .. وفيها هؤلاء الناس الذين يدربون الكلاب والجمال والحمير على الرقص .. وقد زارهم وتاملهم وادهشه ما رأى . وفى أحد الأيام كان فى حى الأزبكية حيث القصر الكبير للمستشار يزيك وحيث البغايا والراقصات والحظ والفرفشة . ورأى أعجب حادث فى القاهرة : رجل يركب حمارا . ولا يكاد يرى مجتمعاً من الناس حتى يترجل عن حماره ويصرخ : أنت يا حمار .. ياحمار .. أنت !

ويشير إلى الحمار ، كأنه يريد أن يقول انه لا يقصد أحدا من الناس ! ويقول صارخا : أنت لا تعرف الأخبار « المنيلة » التى تنتظرك .. تعرف السلطان .. السلطان الذى كلامه فرمان .. تعرف معنى الفرمان .. الفرمان هو أى صوت يخرج من أنف السلطان .. إذا عطس وجب على كل الناس ان تعطس .. واذا سعل فالشعب كله يجب أن يسعل .. فرمان السلطان صدر ببناء قصر عظيم .. لكل الناس .. ومسموح للحمير بالدخول .. ليس كل الحمير .. ولكن الحمير التى ساهمت بمجهودها فى بناء القصر .. اسمعنى لا تسمع لكلام الناس .. انظر ناحيتى لا تنظر للناس .. فأنت أهم من الناس .. الفرمان ينص على ما يلى : على كل الحمير ان تتجه إلى قصر السلطان .. وهناك سوف تتلقى الأوامر بأن تحمل على ظهرها الطوب والحجارة اللازمة لقصر السلطان !

وفجأة سقط الحمار على الأرض . ارجله إلى أعلى ونفخ بطنه . واطبق عينيه .. كأنه مات !

ويشتمه صاحب الحمار ويقول : تتظاهر بانك مريض . حتى لو مت يا حمار يا ابن الحمار ، سوف يضعون الحجارة فوق ظهرك وصدرك وسوف يجرونك إلى قصر السلطان .. انهض ياكذاب . انهض يا جبان .. انهض يا خائن العيش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والملح .. كيف تأكل عيش السلطان ولا تشكره على ذلك !

ثم يقترب من الحمار . ويضع اذنه على صدره . ويصرخ : مات .. الحمار مات .. كارثة اصابتنى أنا وأولادى وزوجتى وأمى المريضة وجدتى المكسحة كان هذا الحمار هو الذى ينفق علينا .. مات عائلنا مات كبير عائلتنا .. مات و النعمة ! يا نهار أسود ومنيل ! ساعدونى يا ناس ..

ويتقدم الناس متاثرين لما حدث . ويعطون الرجل بعض المال . وبعضهم يبكى فعلا لهذا المشهد الأليم .

ويعود صاحب الحمار ويقول : اسمع كلامى . سوف تندم يا حمار .. انت تسمع كلامى حتى اخره . لقد اصدر السلطان فرمانا آخر .. هو دعوة الناس الاكابر والسيدات الجميلات لحفلة كبرى . ولذلك قرر دعوة كل الحمير لنقل هؤلاء الناس الابهة لهذا الحفل ..

وتحرك الحمار .. وفتح عينيه .. ثم عاد الرجل يقول : أهم من كل ذلك .. السلطان امر بأن تأكل الحمير احسن برسيم وتشرب انظف ماء .. واهم من ذلك ان الرجال يمشون وراء الحمير .. اما الجميلات فهن وحدهن سيركبن الحمير !

وقفز الحمار سعيدا بذلك . وراح يرفع رجليه فى الهواء . ويدور بين الناس ويشمشم فى ملابسهم !

وعاد الرجل يقول للحمار : لا تستعجل ، اصبر قليلا .. فعندى اخبار اخرى .. ان حارس القصر الملكى قد طلبك منى .. لتركبك زوجته العجوز المكسحة ..

وهناك سقط الحمار على الارض ونام على ظهره ورفع ارجله الى فوق وندب بطنه واطبق عينيه ! وعاد الرجل يقول للحمار : يا أخى انت مستعجل .. انت الاخبار حتى نهايتها .. فهذه العجوز قد ماتت صباح اليوم !

وفتح الحمار عينيه . ولم يغير وضعه . ولم ينهض .. وقال الرجل : ولكنك « سيد جاد » سوف تكون من نصيب ابنته الجميلة !

ونهض الحمار بسرعة .. واخذ يرقص ويرفع ارجله الى اعلى !

اما الرجل فقد اتجه الى الحمار وقال له : أنت بتفهم كل شىء فلماذا قالوا عنك انك حمار ؟ . وهل انت تفهم الفرق بين المرأة الجميلة والمرأة القبيحة

فهز الحمار رأسه بما معناه انه يفهم . ثم طلب منه ان يختار اجمل واحدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين المتفرجين . واتجه الحمار الى سيدة جميلة وراح يشمشم ملابسها . وصفق الناس .

ثم قال له : قل لى يا سيد جاد .. هل تحب ان تكون سلطانا ؟

فهز الحمار رأسه انه لا يوافق .. فعاد الرجل يقول : افرض ، لا قدر الله ، انه طلع عليك النهار فوجدت نفسك سلطانا .. افرض ان السلطان طلب اليك ان تحكم بدلا منه .

فاتجه اليه الحمار ورفسه .

فعاد الرجل يقول : اننى اقول افرض .. افرض مجرد فرض ما الذى تعمله فى زملائك من الحمير .. خذ بالك هناك حمير كثيرة جدا فى القصر .. ولكن السلطان يثق بك انت بالذات ؟ !

وانطلق الحمار هاربا .. فقال الرجل : موجها كلامه للجمهور : انه سوف يعطى لكل الحمير اجازة !

وركب الرجل حماره واتجه الى مكان آخر !

هذا الرجل هو مؤلف ومخرج وملقن هذه التمثيلية على الرصيف .. وهى تنتقد الاوضاع فى بلاده . بما فى ذلك السلطان والشعب والحاشية التى امتلأت بالحمير .. حتى الحمار يرفض ان يكون سلطانا . واذا وافق فلكى يطلق سراح الحمير من ظلم بنى آدم !

ولأمير الشعراء احمد شوقى قصيدة شهيرة عن الأسد الذى مات وزيره فاختار حمارا ليكون مستشاره فخرب الدنيا وثارت الحيوانات ..

يقول شوقى :

الليث ملك القفار
وما تضم من الصحارى
سعت اليه الرعايا
يوما بكل انكسار
قالت : تعيش وتبقى
يا دامى الأظفار
مات الوزير فمن ذا
يسوس امر الضوارى
قال : الحمار وزيرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قضى بهذا اختيارى
فاستضحكت ثم قالت :
ماذا رأى فى الحمار ؟
وخلفته وطارت
بمضحك الاخبار
حتى اذا الشهر ولى
كليله او نهار
لم يشعر الليث الا
وملكه فى دمار
القرد عند اليمين
والكلب عند اليسار
والقط بين يديه
يلهو بعظمة فار
فقال : من فى جدودى
مثلى عظيم الوقار ؟
اين اقتدارى وبطشى
وهيبتى واعتبارى
فجاءه القرد سرا
وقال بعد اعتذار :
يا عالى الجاه فينا
كن عالى الانظار
رأى الرعية فيكم
من رأيكم فى الحمار !

ولكن السيد جاد ـ ذلك الحمار القاهرى ـ اعظم من كل هذه الحيوانات . وان لم يقل كلمة واحدة .. ولكن الذى فعله دون كلام ابلغ من كل كلام . فليس صحيحا ان الحمار « حمار » بمعنى لا يفهم .. ولكنه ذكى يتكلم بلسان الانسان ، وهو فى نفس الوقت يحتمى فى انه حمار لا يفهم ـ او مفروض ذلك !

والتقط توفيق الحكيم هذا الحمار من حوارى القاهرة وجعله رفيقا له .. والحوار بينهما لا ينتهى .. فالقول ما قال الحمار .. وكثيرا ما قال الحمار كلاما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعمق واجمل مما يقوله الناس .

ويكون المعنى : أنه حتى الحمار يرفض هذا ، حتى الحمار يرى كذا وكذا فى السياسة والادب والفن وعن معنى الحياة ومعنى الموت ..

والحكيم له مقالات طويلة وكتب موضوعها : حمارى قال لى .. انا وحمارى .. حمار الحكيم - اى الحمار الذى يملكه توفيق الحكيم .. أو توفيق الحكيم حمارا .. فهذا الحمار هو من صنع ومن صوت توفيق الحكيم .. ولا فرق بينهما . فحمار الحكيم ، حكيم الحمير ..

ومن ثلاثين عاما قرر توفيق الحكيم ان يشترى حمارا . وان يضعه فى حديقة المجلس الأعلى للفنون فى الزمالك .. وسار الحكيم على قدميه حتى امبابة .. وذهب الى سوق الحمير .. وانتقى جحشا صغيرا . وطلب الى التاجر ان يأتى به الى مجلس الفنون .. وجاء الحمار الى حديقة المجلس . والتقطت الصور لهما .

وكان من رأى الحكيم ان يتأمل الناس صورة هذا الحيوان الطيب الصبور الجميل ايضا . فاذا نظر اليه الناس طويلا قرروا ان يحتفظوا بصفاته فقط .. اما الباقى فهو الذى تحتمه الانسانية .. مثل طلب العلم والتطوير والتغيير وعدم الرضا بالقليل .. وان يقولوا : لا .. اكثر مما يقولون : نعم .. الحمار نفسه لا يقول : نعم طول الوقت .. احيانا يهز رأسه ويهز ذيله .. والمعنى : لا .. واحيانا يرفس .. ومعناها .. لا بمنتهى العنف !

كان من رأى الحكيم : ان كل فنان او مفكر له حيوان مفضل .. هذا الحيوان يطل عليه من الصفحات .. فهو يتصوره ويبعث فيه الحياة ويراه امامه على الورق .. فأدباء يرون الافاعى .. واخرون يرون الذئاب .. وفلاسفة يتخيلون الحيتان .. وبعضهم النمل والنحل .. والكلاب والاسود والابل والخيول .. ولو استطاع الحكيم ان يجعل حماره يظهر على المسرح لجعله البطل الدائم لكل مسرحياته ورواياته وافلامه !

ويجب ان يكون الحمار واحدا فقط على المسرح وواحدا بين المتفرجين .. اما ملء المسرح بالحمير ومقاعد المتفرجين ، فليس فنا ولا فكرا .. وانما هو تجريد الفن من الحكمة ، والمتفرجين من اليقظة ..

ولذلك فمسرح العبث الذى انتشر فى الخمسينات فى اوروبا والستينات فى مصر ، هو : افتراض ان الممثل ليس من الضرورى ان يقول كلاما له معنى .. ولا من الضرورى ان يفهم المتفرج .. لأنه لا معنى ولا ضرورة للكلام .. اى لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دور للأدب ، ولا وظيفة للمسرح !

أى لا امل فى شىء او احد !

وهناك نوعان من العبث :

العبث ـ الحزين اى فقدان المعنى ـ الذى عرفته المسارح الاوروبية وكذلك الفلسفة الوجودية ، بعد الحرب العالمية الثانية .. وهو عبث كئيب اسود .. تحولت فيه المسارح الى « أحواش قرافة » .. فكل شىء ميت .. المعنى والهدف والأمل .. المؤلف والممثل والمتفرج . كله مات . وليست هذه الاعمال المسرحية الا تأبينا للانسان ضحية الانسان ، امس واليوم وغدا ـ ان كان سيأتى غد وبعد غد ؟ !

ثم هذا « العبث الضاحك » .. اى الذى على مسارحنا الآن .. فالكل يضحك من الكل يأسا من الكل !

فالمسارح كلها اطلقت الحمير فى كل مكان ..

فالمسارح كلها تسخر من « السلطة » .. من قوة السلطة الغاشمة الجاهلة ..

ومن التليفزيون والصحافة لأنهما سلطة أروع ـ أى رائعة ـ ومروعة أيضا ..

وتتبارى المسارح كلها فى البحث عن فتحات أكبر فى حائط الممنوع دخولا إلى الحاكم فى ملابس نومه أو بغير ملابس .. وكل المسارح حريصة على توسيع هذه الفتحة . وكل المسارح تلف وتدور حول الحاكم حول اسمه ورسمه وجسمه .

ثم ان هذه المسارح تتابع الأحداث يوما بيوم ، وتعلق على الأخبار .. ولذلك فالمسارح تلاحق الصحف وتهاجمها ، وتلاحق التليفزيون وتسخر منه .. ولذلك يمكن مشاهدة المسرحية الواحدة أكثر من مرة .. لأنها دائمة التغير .. تمشيا مع الأحداث اليومية المحلية والعالمية ..

و « الصعايده » يقومون بدور الهنود الحمر ورعاة البقر .. فهم نموذج للسذاجة والخشونة والشجاعة والدم .. فالصعيدى انسان طيب ولكنه غليظ الكلام والملبس والسلوك . كما أنه انسان عنيد شجاع . لايسكت على الظلم ويموت من أجل الثار ـ تماما كرعاة البقر الامريكان الذين يعيشون على ظهور الخيل ويجرون العربات ، كأنه لاتوجد سيارات أو طائرات ويطلقون النار فى كل الاتجاهات ويتركون قتلاهم كأنه لاحكومة ولا دولة ..

وزوجاتهم أيضا ـ مثل زوجات الصعايدة ـ فيهن شجاعة وعندهن رأى وقرار ـ وقدرة واقتدار على مسار الأحداث ! ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاشك أننا نحسد الصعايدة .. تماما كما يتمنى الامريكان والاوروبيون : بساطة رعاة البقر .. والصعايدة هم عمال البناء ورصف الطرق وشحن السفن وتفريغها وتجار الفاكهة والروبابكيا .. وهم البوابون والسفرجية وهم العقاد وطه حسين وهم أكثر المصريين حرصا على اللهجة والتقاليد .. يسافرون إلى الخارج ويعودون وقد تنورت عقولهم ، ولكن ألسنتهم لم تتغير ..

ونحن طلبة كنا نجد متعة فى الاستماع إلى محاضرات العالم الكبير د . أحمد بدوى فالرجل تخصص فى التاريخ الفرعونى وتعلم فى ألمانيا .. ولكنه يجول ويجول - أى يقول ويقول - بجه لما أجول لك - أى بقى لما أقول لك ..

وأمتع ماكنا نحرص عليه فى ذلك الوقت عندما يناقش د . أحمد بدوى رسائل الماجستير والدكتوراة .. كنا نضحك ونندهش . فهو يقول مثلا : جابلنى بجه على صفحة كذا .. جابلنى بجه على الصفحة .. أدلى بجه فى الهامش .. وترجمة هذه الكلمات : قابلنى بقه على صفحة كذا .. قابلنى على الصفحة .. انزل بقى فى الهامش ! ..

وكذلك د . فؤاد حسنين أستاذ أساتذة اللغات الشرقية - كان يعرف ١٩ لغة قديمة وحديثة .. وفى يوم هاجم اللصوص الفيلا التى يسكنها بالمعادى .. واستطاع أن يمسك بأحد اللصوص .. ودخل به القسم ورأى مأمور القسم رجلا حافيا بجلباب أبيض وطاقية وفى يده عصا غليظة .. وشابا أنيقا .. فنظر المأمور إلى الشاب يسأله : وأين وجدت هذا اللص !

فغضب د . فؤاد حسنين وهو يقول : بجه هو اللص وأنا اللى معايا رجله .. وترجمتها : بقى هو اللص وأنا اللى معايا عصا !

واعتذر المأمور فقد اختلط عليه الأمر .. فقد ظن أن د . فؤاد حسنين هو اللص الصعيدى !

وعلى الرغم من انتشار الصعايدة فى كل مكان ، فإننا لم نستطع أن نتقن اللهجة الصعيدية .. لاعندنا وقت ، ولا يهمنا ذلك .. وانما المهم أن يضحك الناس والسلام !

فما الذى نراه فى مسارحنا .. وما الذى تراه مسارحنا فينا .. وأين الحمار .. وهل هو حمار واحد أو أكثر من حمار ؟

ولا اعتراض على الضحك .. لأن الضحك هدف .. والفن قضية فى داخل المسرح .. أو فى داخل الكتاب . الفنان لايستطيع أن يكون طبيبا يعالج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمراض .. ولا أن يكون مهندسا يقيم البيوت والجسور . وانما معركة الفنان فى داخل الفن .. فى داخل العمل الفنى .. فى الكتاب .. فى المسرح .. فى اللوحة .. فى التمثال ..

ويجب أن نفرق بسرعة بين ما يقال : الفن للفن .. والفن للناس ..

فنحن نقول الفن للفن .. مثل التفكير للتفكير .. الكلام للكلام .. فقط أن نتناقش .. وأن نتكلم .. وأن نستغرق فى كل هذا .. ولا نذهب إلى أبعد من ذلك .

وفى القرن الثامن عشر فى روسيا ترددت العبارة الشهيرة للناقد الروسى بلنسكى .. ولكننا لم نثبت بعد أن كان الله موجودا ، فكيف ننهض إلى الطعام !!

كان من الممكن اثبات أو نفى ذلك فى الدقائق السابقة على الطعام ـ فالكلام للكلام أهم من الطعام !

والفن للفن هو شريعة الهواة ..

ولكن الفن للناس .. أى لراحة الناس .. واصلاح الناس .. وتغيير مسار الحياة .. أو مساعدة الناس على اصلاح حالهم ، وعدم الرضا عنها . والسخط والثورة على كل شىء بما فى ذلك الفن الذى فتح عيونهم على السخط ـ أى أن يثور الفن على نفسه وعلى الذين ساعدوه على تغيير الأوضاع وعلى أشعال الثورة ..

والثورة الفرنسية قد قامت على أفكار الفلاسفة مثل فولتير وروسو . فقد دعوا للحرية الفردية وأصالة الانسان وكرامة الانسان ..

ولو عاد هؤلاء الفلاسفة إلى آرائهم ونشروها بعد الثورة ، لاعدمتهم الثورة بتهمة الخروج عليها !

وقد ظهر فى سنوات الثورة الفرنسية أكثر من ألفى مسرحية .. وكلها لاقيمة لها .. فقد فرضت عليها الثورة رقابتها الحديدية ..

ثم تنكرت الثورة لكل المبادىء التى قامت عليها ومن أجلها !

وقد أعترف ثوار يوليو ١٩٥٢ بأنهم تأثروا برواية توفيق الحكيم « عودة الروح » كلهم ادعوا ذلك ؟ !!

ولكن عندما أعاد توفيق الحكيم نشر بعض ماجاء فى « عودة الروح » . وجعل له عنوانا « عودة الوعى » غضبت عليه الثورة .. مع أنه لم يأت بجديد .. وأنما فقط ردد ماكان قد قاله .. قبل الثورة ! .

وفى رواية « الأخوة كرامازوف » للأديب العظيم دستويفسكى تلك الحادثة العظيمة الدلالة : أن المسيح عليه السلام ظهر فى مدينة أشبيلية فجأة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فانصرف الناس عن الصلاة فى الكنائس وساروا وراءه .. فجاءه الكاردينال يطلب إليه أن يخرج وإلا سجنه بتهمة الخروج على المسيحية .. فقد كان الكاردينال يرتدى ملابسه القرمزية الحريرية الذهبية الضخمة ..وله كرش عظيمة .. بينما المسيح يمشى حافيا عارى الصدر ..

وقال له الكاردينال : لقد تعذبنا كثيرا من أجل نشر دينك والدفاع عنه .. وتجىء أنت اليوم وتقول لنا : لن يدخل الجنة غنى إلا إذا دخل الجمل فى عين الابرة .. ان الأغنياء ياسيدى هم الذى أقاموا الكنيسة ودفعوا مرتباتنا وجهزوا الجيوش الصليبية للدفاع عن دينك .. أخرج الأن فورا والا أعدت صلبك بتهمة الكفر بالمسيحية !!

* * *

* * *

وهذا الضحك الذى هو عبث معناه : أن لاهدف من وراء الفن الجارح ليلا ونهارا . لاشىء إلا هذه التعرية .. لا أكثر ولا أقل وان كانت المسارح كلها توهم المتفرج أن لها هدفا آخر وراء هذا الضحك .. والحقيقة أنه لاشىء غير ذلك !

ففى نفس الوقت لانجد احدا يتردد على المسارح الجادة أى مسارح الدولة أى المسارح الملتزمة بسياسة الدولة ..

وان كانت الصحف الملتزمة بسياسة الدولة تعارض الدولة وتنقدها أيضا . لأن النقد مباح . ولان حرية الرأى مكفولة للمؤيد والمعارض .. ولأن صحف المعارضة تلقى اقبالا فصحف الدولة تنافسها فى نقد الدولة ..

فنحن ـ اذن ـ أمام معارضة للدولة من كل الصحف وكل المسارح ..

وكانت المعارضة فى الخمسينات والستينات خارج مصر .. فى الصحف العربية والقصائد العربية والاذاعات الأجنبية .. فالذى يريد أن يعرف الحقيقة ، عليه أن يقرأ ويسمع مايقال حول مصر وليس فى مصر .. حتى المصريون الذين اختاروا البلاد العربية كان لابد أن يهاجموا مصر . لأن هذا هو الطعام المطلوب والشراب اللذيذ ..

ولكن عندما أطلقت كل الحريات فى مصر فى عهد السادات ومبارك استقرت المعارضة فى صحف ومسارح مصر .. وعاد الكتاب الذين كانوا يقومون بدور « الفاكهة المحرمة » .. وأصبحوا فجلا وجرجيرا فى مصر .. كانوا أبطالا هناك فأصبحوا كومبارسا هنا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقناة الثالثة فى التليفزيون المصرى هى المعارضة الملونة فى داخل النظام .. ففى القناة الثالثة ترى وتسمع ما لاتجد فى أكثر الصحافة نقدا للدولة . ولكن القناة الثالثة تعرض وتناقش وتستدعى .. والهدف : النقد والاصلاح .. حرية النقد والدعوة إلى الاصلاح فى داخل النظام ومن أجله ..

والمسارح المضحكة قطاع خاص .. ونجاحها دليل على قوة القطاع الخاص لان الفنان فردى بتكوينه .. انه يختلف عن المهندس والطبيب .. فالمهندس يكون فرديا عندما يتخصص . ولكن الفنان فردى الرأى والرؤية وكذلك الممثل والمخرج . فالمسرح قطاع خاص خاص خاص ونجاحه لهذا السبب .

ولذلك فالمسرح الخاص لايمكن اذاعته من التليفزيون لانه مسرح عريان ولانه يلعن التليفزيون الذى من الممكن ان يذيعه .. وكما أن الرقص العريان المثير ممنوع فى التليفزيون ، فكذلك الاغنيات العارية : للمطرب أحمد عدوية وغيره .. ومعظم هذه المسرحيات الهزلية مكشوفة بلا سوتيان ولابنطلون ..

ومن ثلاثين عاما عرفنا « بدلة يحيى حقى » .. فعندما كان الاستاذ يحيى حقى مديرا للفنون اصدر قرارا بان تتغطى الراقصات .. فارتدت الراقصات بدلة شرعية .. غطت بطنها ومعظم ساقيها .. ورقصت .. فاذا نسيت ذلك هاجمها رجال الامن ..

ولكن كيف يضع الممثل والمؤلف بدلة يحيى حقى على لسانه ؟ ! وقد هاجمت جميع راقصات مصر الاستاذ الكبير يحيى حقى .. لانه توسع كثيرا جدا فى وضع اوراق التوت على اجساد الراقصات ..

ووجدت الراقصات اسلوبا للهرب .. فارتدين البدلة الشرعية وخرجن من البدلة بحركات جنسية غير شرعية .. واصبح من الصعب وضع قوالب من الحديد على اجساد الراقصات حتى لاتتلوى وتتأوه والمتفرجون ايضا ـ انها نفس الصعوبة التى تواجه كل من يفكر فى تغطية المسرحيات العارية لاذاعتها من التليفزيون !

هذا ـ اذن ـ هو العبث فى صورة اخرى فى صورة هزلية تمتهن المتفرج والممثل والمؤلف معا . وتؤكد له انه لا امل فى اصلاح او علاج .. وانه لامعنى للعلاج او مجرد التفكير فى ذلك . فهذه المسارح كلها لاتدل على التفاؤل وانما على قمة والشارع القديم يقول : شر البلية مايضحك .

ويقول : ولكنه ضحك كالبكا ! فالذى يضحك من عيوبنا ومنا ومن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستقبلنا .. كالذى يبكى على عيوبنا التى توارثناها والتى سوف نورثها لاجيالنا القادمة .

فالضحك يشيع فيك السلبية . والبكاء يشيع فيك السلبية ايضا . ولاشىء يدل على اننا مصريون الا هذه المسارح الهزلية وشوارع المدن الجديدة .. فالمسارح اختارت موضوعا واحدا تتناوله باشكال والوان واصوات واجساد مختلفة هو هو ..

انه مجرى ضيق بين الممثل والمتفرج .. فلا يكاد يظهر فيلم عن الحشيش حتى يظهر ثان وثالث ، حتى يضيق به الناس .. ويشعر الناس انها نكتة مكررة بايخة ..

وكذلك المجتمعات الجديدة تتشابه جميعا فى شىء واحد .. اذهب وتفرج على شاطىء زهراء العجمى .. وعلى كل المدن الجديدة .. كلها فى الصحراء ولكن الشوارع ضيقة كأنها اقيمت فى احدى الجزر الصغيرة .

فالمسرحيات كلها تنساب فى مجرى ضيق .. وكذلك سكان المدن الجديدة يتحركون فى « حوار » ضيقة . لماذا ؟

انه المزاج المصرى الذى يحب ان ينحشر فى البيت وفى الشارع .. ثم يلعن البيت والشارع .. كان الضيق بكل شىء هو الهدف من اى شىء .. فنحن حريصون على ان نظل فى ضيق .. فى ضيق .. فى المسرح ومن المسرح ، وفى المدن والمجتمعات الجديدة !

وكما ان نقد الافلام المتكررة والمسرحيات المتكررة لايمنع من تكرارها مرات ومرات .. تماما مثل نقد الشوارع الضيقة فى المدن الجديدة التى تقام فى الصحارى ، لم يمنع تكرارها .. كان احدا لايأخذ النقد ماخذا جادا . بل لاتأخذه بجدية . فلا المسارح جادة . ولا النقد جاد . ولا المؤلف ولا الممثل .. ولا المشاهد وهذه هى قمة العبث .. وقاع اليأس ! فعلا . نحن غارقون فى الضحك . أى أننا ضحكنا ونضحك حتى غرقنا فى أنفسنا وبأنفسنا !

كان الفيلسوف الالمانى المتشائم شوبنهور يضيق بالذين يتهمون فلسفته بالغموض وكان يقول : هل فى كل مرة يمسك أحد كتابا من كتبى ثم يسمع صوت حمار ينهق ، لماذا يكون هذا هو صوت المؤلف دائما ؟ !

معك حق .. انه ليس صوت المؤلف دائما . وانما صوت المتفرج والممثل والمخرج والناقد !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو تكلم المسرح لما وجد فى وصف نفسه كلاما افضل من الذى قاله الشاعر الحطيئة . قال فى وصف نفسه :

ابت شفتاى اليوم الا تكلما . بشر ، فما ادرى لمن انا قائلة ..

ارى لى وجها شوه الله خلقه . فقبح من وجه وقبح حامله !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحدة من تلك الليالى

٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٣ مدينة بورتو فينو ـ على ساحل الريفيرا الايطالية ـ فندق بلافستا الغرفة رقم ٣٤٥ ـ السرير الذى على يمينك .. وهذا الكوم من البطاطين يتحرك تحته فى قلق شديد يرتعش من البرد : أنا .. وفى جيبى ورقة مطبوعة عن مواليد برج الأسد .. البرج يقول : هذا العام بداية قوية سريعة دافئة سعيدة يابختك !

كنا سبعة تفرقنا ليلة رأس السنة .. طبعا .. ولم نتناقش فى أسباب ذلك . ولكن الأسباب معروفة لدينا .. واسعدنى أن نفترق . فقد عشنا طويلا معا . لم يعد لدينا جديد نراه ونقوله ..

ماذا قال الفيلسوف نيتشه ؟ قال : ان العباقرة هم الذين يعيشون فى القمم الباردة .. كل واحد قمة .. والمسافات بيننا تتسع بمرور الوقت .. والبرودة مع العزلة والحرية اشرف من دفء الخنادق والزنازين والتصاق الاجسام مع رائحة العرق !

اذن لتكن هذه الليلة هى بداية القمم الباردة .. فكل ما فى الدنيا كذب فى كذب .. أنا الحقيقة الوحيدة .. أنا حقيقتى المؤكدة .. فلتكن سهرتى مع كل ما هو يقين وما هو مؤكد ـ قالها الفيلسوف نيتشه أيضا ! .

اذن لابد أن أجد عذرا اهرب به من الصديق الوحيد الذى لن يجىء ولكنه سوف يرسل لى سيارته ، ليكون عامنا الجديد سعيدا مع عدد من طلبة جامعة روما .. طلبة قسم الفلسفة .. كلهم فلاسفة .. لغتنا واحدة .. قضايانا واحدة .. ومشاكلنا .. ولسنا فى حاجة الى كلام كثير ليفهم كل منا الأخر .. ولكنى لا أريد لا فلاسفة ولا طلبة .. ولا أحب أن التقى ، فى هذه الليلة ، بهذا الطراز من الناس . انهم يجعلوننى أحس كأننى أرى نفسى فى المرآة .. ان لم يكونوا مثلى تماما .. فهم مثلى تقريبا . وأنا لا أريد ان أكون حتى مع نفسى .. أريد أحدا يسلبنى من نفسى .. يسرقنى .. يخطفنى .. يضيعنى فلا اعرف من هو ولا من أنا .. ولا أين ولا متى .. لقد تعبنا من تقليب أنفسنا .. ولا نريد أن نجد أنفسنا .. نريدها ان نضيع ونحن معها .. وان يولد عام جديد ، دون أن ندرى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وان نولد من جديد ..

المهم ان اهرب من هذا الصديق .. انه انسان طيب . ولكنى مللت الطيبة والصداقة والزمالة .. واللغة الواحدة .. واحساسى بأننى طفل يستحق عناية الجميع ..

ماذا قال الفيلسوف شوبنهور ؟ قال : ولا حتى اعز الناس اليك يساوى ان تضحى من أجله .. امك مثلا ؟ انها ليست احسن الناس ولا أصدق الناس .. وإذا كانت حين رأتك دمعت عيناها .. فالكلاب تفعل ذلك والقطط والتماسيح .. انها غريزة الأمومة الحيوانية .. ولكن الأمهات تلد وتموت أبناؤها وهى لا تموت .. وتلد من جديد .. كأنها ما ولدت ولا تعذبت .. والمولود القديم .. وكل امرأة تحاول أن تؤكد لك انها أمك .. أحب الناس اليك .. وفى اللحظة التى تحس انك طفلها تنقلب الى افعى تلتف حولك .. وتنفث سمها .. لتصبح ضحيتها .. فلتكن على مسافة واحترس .. فكل أم كانت زوجة .. وكانت محبوبة .. وكانت عاشقة قبل ذلك .. وفى الوقت المناسب تظهر العاشقة والخائنة ! ! .

اذن سوف اجلس بعيدا اتفرج واراجع تطبيق نظرية شوبنهور على هذا العدد الهائل من الجميلات .. جميلات فعلا .. حيوية وشباب ودلال .. ما هذا الذى فى العيون .. فى الصدور .. ما هذا الذى عندما تغطيه المرأة تكشفه ، لانها تريدك ان ترى .. فاذا ضبطتك وانت ترى .. احمر وجهها .. مع انها تقصد ان تلفت العين وتستدرج الايدى ..

وماذا قال عالم النفس فرويد قال : كل شىء له معنى جنسى . كل شىء . اعطنى اية كلمة .. اى تعبير .. اى شىء يتناوله الانسان كطعامه او شرابه .. وانا اجد له المعنى الجنسى الحقيقى والذى نحن نتستر عليه .. لكى نقنع انفسنا وغيرنا اننا اناس مهذبون . مع ان التهذيب معناه : ان نضع على الحقيقة الفاضحة منديلا ورديا رقيقا .. نغطيها ولا نخفيها .. بل نغطيها لنلفت اليها العيون اكثر : وهكذا الفستان والسوتيان والمايوه ..

وقد سأله احد تلامذته : تقصد سيادتك كل شىء له معنى جنسى ؟

قال : نعم كل شىء .. عاد الطالب يسأله : كل شىء .. قال فرويد : اى شىء وكل شىء حتى هذا السؤال .. حتى سؤالك هذا له معنى جنسى .. لانك تريد ان تسألنى ان كانت ملابس الراهبات لها دلالة جنسية .. نعم لها دلالة .. فالاسود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يرمز الى « التعتيم » التام على كل جسمها .. والابيض حول رأسها يرمز الى النور والفضيلة والتوبة والسلام الذى تعيش فيه .. والذى تدعو كل الناس اليه .. ولكن من الذى عرفها بكل ذلك ان لم تكن هى رأته أو مارسته .. ان الراهبات مثلنا تماما ، يعرفن ويسكتن ونحن ايضا نعرف ونسكت .. وانت بالذات لان لك اختا راهبة .. وأنت كنت تحبها .. وانك لا تزال تحبها ، وهى التى تشغلك ليلا ونهارا .. اليس هذا هو شعورك ؟

وهز الطالب رأسه بان هذا شعوره بالضبط .. وانه لا يعرف كيف يتخلص من هذه المشاكل .

قال الاستاذ فرويد : ولماذا تتخلص من كل ذلك .. فالطعام له مشاكل .. والماء والنوم والسهر كل شيء له مشكلة .. ولكن لابد من كل شيء ..

« يخص » عليك يا استاذ فرويد لقد افسدت كل هذه الابتسامات الساحرة .. افسدت هذا الجمال .. هذه اللوحات البديعة .. هذه التماثيل .. كم ساعة جلست كل واحدة امام المرآة وعند الحلاق وعند الخياط .. ووحدها تحت الدش وفى البانيو .. ونظرت الى نفسها عارية .. الى هنا والى هناك .. وخصوصا الى هناك ثم الى هنا .. وتخيلت عيون الرجال .. وعين حبيبها بالذات ..

ولكنى لست واحدا من كل هؤلاء الرجال .. فانا بصعوبة وجدت منضدة فى أحد الأركان .. منضدة صغيرة . موقع يرى كل الداخلين والخارجين .. وان كان الجميع يدخلون ويفسح بعضهم لبعض المكان والطريق .. والوجوه مثل المصابيح كلها مضاءة .. وكلها وردية .. حتى الزجاجات من كل حجم ولون .. مثل العيون والخدود والماس على الصدور وفى الأصابع .. والأذرع والسيقان .. فى نعومة الأكواب والكاسات وفى لمعان الشوك والسكاكين .. وانا هناك بعيدا كاننى احسب ما يأكل وما يشرب الناس .. او كأننى ضمير طردوه بعيدا .. فهذه الليلة يجب ان ينام فيها الضمير .. ويصحو على مهل غدا .. او كأننى حسود عزول احترم نفسه فتزحزح وانسحب متخفيا فى آخر فندق .. أو كأننى لست هناك .. لا وجود لى ..

فماذا قال فيلسوف الوجودية سارتر : نعمة كبرى .. ان تكون والا تكون .. فاقصى درجات الحرية الا تكون ملفتا للعين او للأذن .. تقول ما يعجبك ولا يحاسبك احد .. كأنك وحدك فى هذه الدنيا .. او كأنك صنعت الدنيا على مزاجك .. جعلت كل الناس خدامين السيادة ونزعت لسان كل واحد منهم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفقأت عينه وسددت اذنى ..

ثم قلت وفعلت ما بدالك .. فلا احد يحاسبك على شيء ..

ووجدت نفسى فى الركن تماما كما قال الفيلسوف سارتر .. ورحت اجرب هذه الحرية فقلت بصوت مرتفع : ياللى كان يشجيك انينى ..

ونظر بعض الناس بالقرب منى ولم يفهموا .. وعدت اقول : الاولة فى الغرام .. والثانية والثالثة من غير ميعاد راحو وفاتونى !.

وتعالت الأصوات ولم يعد احد يسمعنى . فوقفت فوق المقعد ثم فوق الترابيزة .. ونظر بعض الناس ولم يعرفوا ما الذى اريده بالضبط .. وكان فى نيتى أن أقول نكتة بالعربية ولكن شعرت باننى تجاوزت حدود السخافة والعبث الوجودى .. فانا اعرف مقدما ان احدا لا يفهم . ولكن ما هو شعورى أمام نفسى وانا ارتكب هذه العباطات باسم الفلسفة الوجودية .. واجعل من نفسى واحدا من فئران وقطط وكلاب المعامل فكل ذلك استطيع ان اعمله دون ان ابهدل نفسى هكذا ..

يقول الفيلسوف الوجودى البير كامى : ليس قبل ان يتأكد لديك انك سخيف ، تستطيع ان تتحدث عن حريتك فى ان يكون لك معنى ولك دور فى هذه الحياة .!

ياسيدى احسست فعلا اننى سخيف .. ولكن لا اعرف ماهو دورى كل الذى اعرفه هو انه من الممكن ان اشارك فى سهرة جميلة بديعة .. وان اغنى وان أرقص وان أكون لحنا وآلة موسيقية وان وان .. ولكن حاولت ان اتفلسف فازداد احساسى بانه ليس اسخف من الفلاسفة فى مثل هذه الليلة . ان سارتر نصف اعمى وكامى نصف أطرش .. وشوبنهور نصف اعرج .. ونيتشه نصف مجنون .. فاية قدرة لدى هؤلاء العظماء على ان يجدوا المتعة بين هؤلاء الناس العقلاء الاسوياء ؟!

اذن .. ملعونة الفلسفة والفلاسفة فهؤلاء الناس الذين امامى سعداء .. دون تفكير فى أية نظرية يطبقونها .. سعداء لان السعادة ارادة .. كما ان التعاسة ارادة .. خرجوا من بيوتهم وفى نيتهم ان يضحكوا .. بل انهم قرروا المرح والمتعة منذ ايام .. استعدوا جميعا لذلك .. وهذا الذى امامهم هو ادوات السعادة .. وفى هذه الليلة لست فى حاجة الى نكتة لكى تضحك .. ولا الى روشتة طبيب لكى تتبخر همومك .. وتتخلص منها وتعرفها .. ولست فى حاجة الى كشف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حساب يقول لك : ان لك ملايين فى البنك ومثلها تحت البلاطة .. ولا فى حاجة الى قارىء كف او قارئة فنجان او ضاربة ودع لكى تقول لك : غدا اسعد يوم فى حياتك ..

واحسست بالبرد الشديد .. فالمطر غزير .. والرياح عاصفة .. وركن القاعة الجميلة بارد جدا .. ثم اننى احرق نفسى وابدد طاقتى .. ولذلك قررت ان انسحب نهائيا .. واستقبل العام الجديد نائما .. او وانا احلم بكل هذا الذى رأيت .. وهذه الاحلام هى وحدها التى تجعلنى انام بعمق ..

فماذا قال فرويد ؟ قال : ان كل انسان يحلم .. كل يوم .. ولكنه عندما يصحو فانه ينسى احلامه .. والاحلام هى تعويض يومى عن الذى فقده الانسان فى اليقظة .. فالاحلام تعوضنا عن خسائرنا ومتاعبنا وبهذا التعويض نسعد وننام ! ..

المشكلة الأولى : الغرفة بغير النزيف اليومى .. لم ألاحظ ذلك من قبل !

المشكلة الثانية : بها بطانية واحدة .. وانا لا يكفينى فى مثل هذا الجو البارد اقل من خمس بطاطين او عشر فانا لا اضيق ابدا بالاغطية مهما كانت كثيفة او ثقيلة ..

المشكلة الثالثة : اننى لو فكرت فى أن اطلب من أى انسان ان يعطينى بطانية فان احدا لن يفعل .. وسوف يظن اننى سكران على الآخر .. واننى سوف اتغطى بالبطانية فى المطبخ .. او سوف الفها حول احدى الجميلات واخطفها او اخنقها .. او اننى سوف اخلع ملابسى كلها واتغطى بالبطانية .. ولو تسللت الى احدى الغرف المجاورة اجمع البطاطين فمن يدرى ماذا يقال وماذا يحدث .. وكيف تمضى تلك الليلة ..

المشكلة الرابعة : المكان الوحيد الذى يمكن ان أنام فيه يقع الى جوار باب الفندق .. فالى جوار الباب توجد غرفة صغيرة يتركون فيها البلاطى وفراء السيدات بالمئات .. آه .. لو القوا كل هذه الملابس الدافئة وتركونى أنام حتى الصباح .. ادفأ وانعم وارقى وارق ليلة .. ولكن كيف ؟ .

المشكلة الخامسة : كيف اتمارض لينقلونى الى احد المستشفيات .. فأنام فى غرفة دافئة حتى الصباح .. ولكن نفرض اننى تمارضت .. فما هو نوع المرض .. معدة .. قلب .. مخ .. امعاء .. ومن الذى ينقلنى الى المستشفى واذا نقلونى فسوف يتركونى حتى الصباح لأن الاطباء سهرانون جميع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وماذا يحدث لو وقعت فى يدى طبيب شاب وجدنى « لقطة » وراح يتسلى بى .. ولابد أن يكون فى غاية الضيق لان الدنيا كلها تأكل وتشرب وترقص وهو ، لأنه ما يزال صغيرا ، تركوه فى المستشفى .. وسوف اكون احد ضحاياه ..

ودون حسم لكل هذه المشاكل اندفعت الى الدور الارضى .. الى القاعة الكبرى .. حيث الناس قد تحولوا الى اناس اخرين .. ارق .. الطف .. اقل قدرة على تمييز بعضهم البعض .. فوجدت من يدعونى الى ان اجلس معه .. جلست .. اقترب منى ليقول لى : معك زوجتك ؟

قلت : لا ..

قال : عاقل !

قلت : وانت ؟

قال : مغفل !

قلت : لماذا ؟

قال : لان زوجتى جاءت مع عشيقها وأشار والكاس فى يده الى سيدة جميلة تعانق رجلا تريد أن تنفذ من قفصه الصدرى ..

قلت : ولماذا لا تقوم وتضربها قلمين ؟

قال : ابوس ايدك .. اضربها نيابة عنى ! انها تحب الرجل الذى يضربها بالجزمة .. صدقنى ..اقسم على ما اقوله .. جرب .. لا تخف ..

فنهضت لا اعرف كيف .. واقتربت منها .. وابعدتها عن الرجل الآخر .. واندهشت هى .. وفزع الرجل الذى كان مخمورا جدا .. وقلت لها : عندى رسالة اريد ان ابلغها لك !! (وصفعتها على خدها .. وكأننى اصفع الدنيا كلها) ..

ونهض الزوج وقد انحنى ورفع كأس الشمبانيا : فى صحة اشجع رجل فى العالم !

بمنتهى الصراحة احسست اننى انما صفعت نفسى بكل قوتى .. فانا دايخ وقلت : للرجل : اسم سيادتك ايه .. شوبنهور .. نيتشه .. سارتر .. افلاطون .. شمشون الجبار ..

قال : بل انت شمشمون .. ولحسن حظك .. انك شمشمون بلا دليلة .. ولكن سوف تكون لك دليلة .. فالله عندما خلق شمشمون خلق له دليلة لكى تهدمه ..

ونظرت الى زوجته التى ما تزال ترقص .. ثم لاحظت انها تحنى رأسها لى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكأنها سعيدة بما حدث .. فهل اقوم واضربها قلما اخر لاضاعف سعادتها وسعادة زوجها ..

قال الاديب الفرنسي استندال : لا تضرب المرأة بوردة .. اضربها بشجرة ورد !

وقال استندال : القبلة ليست الا ما تبقى من عملية قديمة .. كان الرجل يأكل شفتي المرأة .. لكي يميزها عن النساء الأخريات .. ولكن الرجل عندما عجز عن اقتناء عشرات النساء لم يعد فى حاجة الى ان يترك اثرا فى شفتيها أو أى مكان اخر من جسمها .. فالقبلة هى الرمز الباقى !

قال زوجها : الآن تستطيع ان تفعل ما عجزت عن فعله من عشر سنين .. اذهب اليها وعانقها اجعل الدم ينزف من شفتيها !

★★★

الان استطيع ان اذهب الى المستشفى ، فقد احست بالقرف والمغص المفاجيء وضيق النفس والعرق .. فقلت للرجل : ارجوك ان تساعدني لكى اذهب الى غرفتى ؟

قال : غرفتك انت .. ولماذا ؟ وبشجاعة لا اعرف من اين جاءتنى سددت فمه بالفوطة !

★★★

★★★

كيف مضى الوقت بهذه السرعة .. كيف وجدت الطريق الى غرفتى مفروشا بالبطاطين .. لسبب لا اعرفه لاحظت ان كل من يدخل غرفة ، يلقى بالبطانية امام الباب .. ثم يغلق الباب .. شيء غريب .. وجمعت عددا من البطاطين واسعدنى ذلك ..

ووضعت احدى البطاطين تحت « عقب » الباب .. وعلى السرير بطانية .. وعلى المخدة .. وعلى الأرض أمام السرير .. آه لو استطيع ان اغطى الجدران والسقف .. وبملابسى كاملة القيت بنفسى فوق السرير .. وفوقى بقية البطاطين .. وخلعت حذائى .. والكرافته .. ووضعت جواز السفر تحت المخدة .. واكتشفت اننى نزلت القاعة الكبرى ونسيت فلوسى .. وكان الدفء جميلا .. ولكن النوم لا يجيء .. فالموسيقى عاوية والصرخات .. والضوضاء فى الغرف المجاورة .. طبعا انهم لا يتشاجرون على بقاء البطانية .. وانما على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخراجها من الغرفة فهى : خشنة .. وهى باردة .. وهى كئيبة اللون والرائحة والملمس .. ثم انها صغيرة اذا تغطى بها القدمان تعرى الصدر والرأس .. واذا غطيت الرأس بردت القدمان ..

ودق جرس التليفون : سنيور منصور ؟

قلت : نعم ..

قال : سيارة تنتظرك ..

قلت سيارة من ؟

قال : هنا السائق سوف يتحدث اليك ..

وحدثنى السائق .. إن صديقى قد ارسل السيارة ولابد ان اذهب .. وان السائق قد اخطأ فى البحث عنى .. فذهب الى فندق اخر .. ثم جاء الى هذا الفندق وراح يبحث عنى فى كل مكان .. ولم يتصور ان احدا فى ليلة رأس السنة ينام فى الساعة الحادية عشرة .. دون ان يتناول عشاءه .. فقال انه يحمل عشاء ساخنا .. اذن هناك اصدقاء توقعوا ان اموت جوعا .. وسويت ملابسى .. وتمنيت لو أخذت هذه البطاطين معى .. فانا لا اعرف حجم السيارة .. ولا اعرف كم طول الطريق ..

وكانت الأمطار غزيرة .. والهواء باردا .. ولا أحد يمشى فى الشارع .. ولكن الموسيقى تجىء من كل مكان .. واعتذرت للسائق اننى افسدت عليه السهرة .. واننى نسيت تماما ان احدا سوف يذكرنى فى تلك الليلة .. ولكن صداقة العمر الطويل هى التى جمعت بينى وبين صديق ايطالى من اصل نمساوى اجداده اقاموا فى مدينة المنصورة طويلا .. وكنا زملاء الدراسة .. وكان من امانينا ان ندخل الازهر الشريف .. وان نكون من علماء الدين .. هو كان يريد ان يعقد مقارنة بين الاديان كلها .. ليقول فى النهاية ان كل شىء موجود فى الاسلام .. وانه لذلك قرر ان يختار الاسلام دينا عن اقتناع ، لا لان والده مسلم .. واما انا فلم يكن واضحا بالضبط لماذا ادخل الازهر .. هل لان عمى من رجال الدين .. هل لان والدى كان شاعرا متصوفا .. هل لاننى حفظت القرآن الكريم صغيرا جدا .. وان النور والايمان وجميل الكلام قد دخل قلبى وعقلى فى سن مبكرة .. فانا عندما اتجهت الى دراسة الفلسفة كان الامل هو ان اصل الى الايمان عن طريق العقل ، وليس فقط عن طريق القلب ..

وكانت السيارة كاديلاك .. الكرسى الخلفى نصف سرير .. اللمس حرير ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسوست رفيقة .. ومددت يدى الى السندوتشات .. ساخنة .. والى ترموس به شوربة والموسيقى جاءت من الراديو .. وتمددت فى المقعد الخلفى ونمت .. ورأيت فيما يرى النائم .. اننى واننى .. كلامك مضبوط ياستاذ فرويد .. واحسست كأننى عدت الى بطن امى .. فهذا الدفء .. وهذا الظلام .. وهذه الراحة .. كاننى ماأزال جنينا .. تمام كلامك ياستاذ فرويد .. ولا اريد ان اصحو .. ولا ان اخرج .. ولا ان اسمع .. ولا ان اذهب الى أبعد من السيارة .. اذن لقد كانت النبوءة صحيحة : بداية قوية سريعة دافئة .. السيارة قوية وسريعة ودافئة ..

وعندما اشار لى السائق ان انزل .. تمنيت الا يصر على ذلك .. ولكنه قال : لم يعد فى السيارة بنزين .. ولابد ان ابحث عن سيارة اخرى .. فنحن عند اطراف المدينة ..

فقلت : ابدا .. والله لن اخرج .. سوف ابيت هنا .. انا سعيد جدا اذهب انت ..

وصحوت بسبب دقات على زجاج السيارة .. انه رجل البوليس يتأكد ان كنت حيا او انهاجريمة قتل فقلت له من فتحة النافذة : كل سنة وانت طيب .. السائق ذهب يحضر سيارة اخرى !

فضحك رجل البوليس : سائق .. أو سائقة هاها .. موسيقى .. ونبيذ وقبلات .. كل سنة وانت طيب !

ومددت يدى افتح الراديو .. يقول : وفى آخر لحظة ترك العاملون بالفندق كل مافى ايديهم وراحوا يخمدون الحريق .. وقد سألنا السيدة فرانشيسكا جورا سكى فقالت إن الخسائر تبلغ حوالى مليون ليرة .. وسوف نوافيكم بآخر أخبار فندق بلافستا ! ..

اذن الفندق احترق .. وقد نجوت .. فهذه السيارة ليست الا سفينة نوح الدافئة التى توقفت عند مدخل المدينة ..

فعلا .. لقد كانت السنة الجديدة قوية وسريعة ودافئة .. ويابختى .. فقد نجوت من الحريق ومن الطريق .. وانكتب لى عمر جديد مع العام الجديد ..

والحمد لله اننى مازلت حيا ، وانك .. واننا !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعيش الخضر يسقط الحزب

هذه النكتة يرويها ابن خلدون . قال انه حدث ان كان احد اباطرة الفرس فى اجتماع له ، ان اقتحمت بومة قاعة الاجتماع ووقفت على رأس المستشار .. ثم جاءت بومة أخرى ووقفت الى جوارها .. تعانقا اول الأمر ، وتشاجرتا ثم تعانقتا ، ثم وقفتا ظهرا لظهر . فسأل الامبراطور مستشاره وكان يعرف لغة الطير : مامعنى هذا ؟ قال المستشار : يامولاى انهما عاشقان كانا قد اتفقا على الزواج ، فعندما طلب منها ان تتزوجه عانقته ، وعندما ذكر لها المهر تشاجرت معه .. قال الامبراطور : لاافهم ..

قال المستشار : كان وعدها بمهر عبارة عن عشرين « خرابة » فغضبت .. فقال لها ان عاش هذا الامبراطور فسوف أجعل المهر الف خرابة ؟ ! هنا أدرك الامبراطور المعنى المقصود . وكان امبراطورا ظالما فاسدا .. فوعد بأن يستقيم وان يحكم الشعب بالشعب ..

هذا ماوعد به الامبراطور الفارسى .. أما امبراطورنا الذى يحكمنا والذى سوف يخرجها ويقعد على كومها فهو : التكنولوجيا الحديثة .. التى صنعت الطائرات والسيارات وسفن الفضاء فلوثت الماء والهواء والتربة والطعام !

ومن أجل هذا الطاغية قامت جماعات وجمعيات حماية البيئة فى العالم كله .. تحاول أن تنقذ ما تستطيع من براثن المصانع والورش وعادم السيارات والطيارات ..

هل تعلم اننا نستخدم مائة وخمسين ألف مليون طن من المواد سنويا لادارة مصانعنا ، وان هذه المواد تترك سموما فى الأرض والسماء والماء والدماء .. هل تعلم ان ما تستهلكه سيارة واحدة من الهواء يكفى لاعاشة مائة شخص .. هل تعلم ان فى العالم ٣٥٠ مليون سيارة ؟ !

واهتمامنا ـ فى مصر ـ بزراعة الأشجار يرجع الى أيام الرئيس محمد نجيب ، الذى زرع شجرة فى كوم أوشيم ، هذه الشجرة ماتت قبل ان يموت ـ كانت بداية ..

تماما كما أن الأستاذ توفيق الحكيم قد امسك مقشة وكنس جانبا من أحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شوارع القاهرة .. فعاد التراب الى مكانه قبل ان يضع الحكيم مقشته على الأرض كانت بداية ـ دعوة الى النظافة .. نظافة الأرض واليد والضمير ..

ويوم دعونا الى تشجير المقطم ، اختلفنا على نوع الأشجار وعلى الجانب الذى يجب ان نبدأ بزراعته .. واختلفنا على وسائل المواصلات السلكية ـ أى الترام المعلق .. ولم نفعل شيئا ـ فقد كانت دعوة الى شيء .. فبدأنا بالكلام وتوقفنا بالكلام عند حدود الكلام !

ويوم اقتلعت كلية زراعة القاهرة نخيلها الذهبى ، كان تتويجا للاهمال والاستخفاف العلمى على أرفع المستويات .. فإن لم تكن دعوة علمية للقضاء على بقية النخل والأشجار فى مصر ، فهى اقصى ما يمكن ان يبلغه بلد من احتقار الناس والعلم والعلماء لجماعات وأحزاب البيئة فى كل مكان ..

أما التصحيح الوحيد فهو ما فعله محافظ القاهرة يوسف ابو طالب حين اقام الحديقة الدولية ـ انها أيضا بداية تستحق عظيم الاحترام . ولكن تمشيا مع التقاليد المصرية العريقة ، اخشى أن تكون هى البداية والنهاية ..

ولكن انشغال المصريين بالأشجار والعدول عن تجريف التربة واستنكار اقامة البيوت عن الأرض المزروعة ـ أرضنا المزروعة لم تزد كثيرا عما كانت عليه أيام الخديو اسماعيل : خمسة ملايين فدان ؟ هذا الانشغال يدعو الى الاهتمام . والى التفاؤل أيضا . ولكن عيب الاهتمام المصرى انه أيضا يستند الى أسوأ ما لدينا من التقاليد وهى الدعوة الى تشكيل لجنة .

جماعة . جمعية .. حزب .. لأن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا بمفرده . ولكن نعجز تماما ، فلابد من تشكيل لجنة . فكأننا عندما تولدت لدينا الفكرة ، دبرنا وأدها فورا ـ مع الأسف !

من يدرى ، لعلنا نصدق هذه المرة مع أنفسنا ، فاهمين لقدراتنا ، مكسوفين من عجزنا ـ لعل وعسى ! ويطالب بعض المثقفين بانشاء « حزب الخضر » diegrunen كالحزب الذى أنشيء فى ألمانيا .. ووجد صدى شعبيا ودخل البرلمان وله ثمانية وعشرون مقعدا ووزراء للبيئة فى بعض الولايات الألمانية .. ولكن هذا الحزب يتضمن كل العناصر التى سوف تنسفه من داخله .. فالحزب الذى كان مفاجأة حتى للشعب الألمانى ، مفكك الأجنحة .. غريب الأطوار .. فهو يبعث بأربعين شخصا يسهرون ليلا ونهارا الى جوار شجرة عمرها مائة وخمسين عاما قررت الدولة اقتلاعها لاقامة أحد الفنادق .. وتبقى الشجرة .. وهو نفس الحزب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى ينادى بحرية الشذوذ الجنسى .. وهو الحزب الذى يدخل أعضاؤه البرلمان بالزنوبة والجينز وفى يد كل واحد وردة .. وحاول أحد الأعضاء ان يضع على رأسه زوجا من الحمام ، وحاول آخر ان يربط بقرة عند باب البرلمان اشارة الى ضرورة شرب اللبن الطبيعى وليس اللبن المشع ..

* * *

ولنبدأ من البداية ..

عرف العالم كله ثورة الشباب فى الأعوام الثلاثين الماضية . وكان شيئا جديدا . فالغاضبون الساخطون أكثرهم من الطلبة . انهم متمردون على الدولة ومؤسساتها وعلى سيطرة الأساتذة ..

واتخذ الغضب فى بريطانيا ضيقا بالتعاليم الجامعية .. ثم كفرا بالمسرح الرسمى الوقور ..

فكانت المسرحية العارية والشاذة التى تصطدم بالمتفرج وتهزم الوقار التقليدى عند المؤسسات المسرحية والفكرية فى بريطانيا ..

ثم ظهرت « الخنافس » ـ مجموعة من الشبان الفلاحين موهوبين فى الغناء والأداء والتأليف والتلحين . أطالوا شعورهم ـ مع أن الخنافس ليس بها شعرة واحدة . ولكن أخطأت الزميلة مى شاهين فى ترجمة الكلمة الانجليزية .. ولما حاولنا تصحيحها ، لم تفلح فقد انتشرت الكلمة التى هى تلاعب بكلمتين انجليزيتين معا : الخنافس والصخب : beetie , beat ..

وانتشرت الخنافس واستحقوا أرفع النياشين .. فقد كسروا احتكار الأمريكان للأغنية الراقصة .. ويوم افتتحوا محلا لهم ، ذهب زعيم العمال هارولد ويلسون رئيس الوزراء وزوجته ورقصا حتى الصباح ـ فهما من أبناء الطبقة العاملة !

واكتسحت موسيقاهم وأزياؤهم وشعورهم الطويلة أوروبا وأمريكا ـ وكسبت بريطانيا مئات الملايين ..

وفى نفس الوقت ابتدعت « مار كوانت » موضة المينى جيب .. والميكرو جيب .. وظهرت السيقان الجميلة فى بريطانيا وأوروبا وامريكا . وجاء السياح يتفرجون على أجرأ ما صممت بريطانيا وابدع ما عرضت .. وكسبت مئات الملايين .. ألوف الملايين .. واستحقت مارى كوانت أرفع أوسمة الدولة ..

فكان ذلك كسرا لاحتكار فرنسا للموضة !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظهرت المسرحيات الحديثة ، وكان ذلك كسرا لاحتكار امريكا وفرنسا للريادة المسرحية ..

وفى فرنسا ثار الطلبة على برامج التعليم .. وعلى تحكم الأساتذة .. واستخدموا القنابل والمسدسات ..

وفى سنة ١٩٧٠ اتخذ الغضب شكلا ارهابيا ولم يكن سياسيا كله .. كان العداء للرأسمالية واضحا . فظهرت عناصر يسارية متطرفة .. وكان هدف الشباب : حماية البيئة والسلام العالمى والحرية الاجتماعية .. ومع ظهور الدعوة لانشاء « حزب الخضر » انتعشت جماعات الخنافس . والهيبز والبانك . وكلهم من ابناء الطبقة الوسطى . وليسوا من أبناء العمال .

وفى سنة ١٩٦٨ تركزت المظاهرات فى جامعة السربون فى باريس .

وفى نفس الوقت ظهرت « الألوية الحمراء » فى ايطاليا ..

ولكن ألمانيا اتخذت شكلا مختلفا وأسلوبا مغايرا أول الأمر .. فظهرت الجماعات الخضراء .. ثم جماعة الخضر .. وكانت أفكارها أبسط ، ولذلك كانت أسرع انتشارا ، وأكثر عنفا فى الهجوم على النظم القديمة وعلى كل الأجيال السابقة ، التى كانت سببا فى خراب ألمانيا .

وقد أكدت ثورة الخضر وجود فجوة سحيقة بين الأجيال ـ أجيال مضت وتوشك أن تختفى ، وأجيال ظهرت وتوشك أن تتسلط ..

وفى سنة ١٩٨١ أجرى استفتاء بين الشباب الأوروبى حول موضوع واحد هو : هل توافق على القيم الأخلاقية التى تعلمتها من والديك ؟

٣٨ ٪ من الألمان قالوا : نعم .

٥٠ ٪ من الفرنسيين قالوا : نعم .

٧٧ ٪ من الأمريكان قالوا : نعم .

فالخلاف واضح فى ألمانيا بين الجيلين .. لأن الألمان بتكوينهم متطرفون . مزاجهم لا يطيق الحلول الوسطى .. والرقص على السلم .. ثم ان الأجيال الألمانية الجديدة ترفض الانضباط والطاعة ـ كما فعلوا أيام النازية . فقد عانى الألمان كثيرا من هذه الطاعة العمياء والاستسلام للطاغية .

والشباب الألمانى يستمتع بألمانيا الحديثة ، ألمانيا ما بعد الحرب ، التى نهضت بسرعة : صروحا ومصانع ورخاء وتقدما علميا رهيبا . وهم لاشك معجبون جدا بأبائهم وأجدادهم الذين أخرجوا ألمانيا من الانقاض الى الأبهة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصرية . ولكنهم ضد هذه « المادية » ـ أى ضد البناء والتعمير الذى أدى الى تلوث البيئة وشق الشوارع فوق الغابات ، وبناء المطارات على الأرض المزروعة . والشبان الألمان مختلفون عن آبائهم الذين كان شعارهم : دعونا نقيم مدنا ونرصف شوارع ، وبعد ذلك نفكر فى اسم المدينة وأسماء الشوارع وأسماء الأحزاب والجمعيات التى تبنى كل ذلك .. ولكن الشبان يريدون تسمية المدينة والشوارع والأحزاب من أجل وقف العقلية المادية البحتة التى لا يهمها عاشت الأشجار أو ماتت .. عاشت الأطفال أو ماتت .. استعدت الشعوب حولها للقتال أو لم تفعل !

والشباب يرون أن المدنية الحديثة ليست لها روح . ليس لها طعم . باردة جامدة .

ومع الثورة على المادية العلمية تتولد أفكار أخرى خطيرة : وهى الدعوة الى المثالية وعبادة البطولة واستعادة كل ما هو جرمانى . وعدم الاعتذار عن الذى حدث أيام هتلر ، فقد كان ذلك أيام هتلر ، وهتلر لم يعد موجودا .. ولا ألمانيا النازية ، فلماذا تعميق الشعور بالذنب عند الشباب .. اذا كان أجدادهم أجرموا ، فلماذا نعاقبهم هم ؟!

ان جماعة الخضر وضعت المواطن الألمانى الشاب أمام خيارات عديدة : أما أن نرضى بما هو كائن وهو رائع عظيم ، وأما أن يستعيد ما قد كان أيام النازية ، وأما أن يدعو بانقاذ المانيا من الألمان ، ويطلب السلام والحياة للجيل الجديد ..

فهل يا ترى هذا الاتجاه منتشر عند كل الشبان دون الخامسة والعشرين ؟

عند الشباب كل انواع الاتجاهات : الرجعية والثورية والفوضوية . ولم يعد أحد الآن يسأل : كم عدد الخضر من الألمان ، وانما السؤال هو : الى اى حد اصبح الألمان خضرا ؟

فبعد الحرب العالمية الثانية ، انكسر الألمان وراحوا يمشون الى جوار الحوائط المهدمة ، يحلمون ببنائها . وأعادت معاهد التدريب المهنى استخدام العصا لضرب العمال حتى لا يقلدوا الأمريكان فى الرخاوة والطراوة ومضغ اللبان ووضع الأيدى فى الجيوب عندما يتحدثون الى الأب أو الرئيس .. وقامت ألمانيا الحديثة .

ثم جاءت ثورة الشباب ، الأولى من نوعها فى أوروبا . واهتزت القيم وتمزقت البنطلونات وخرج الدخان من الأنوف وامتلأت الأفواه باللبان ، ولم تعد طاعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأب واحترام الأم ، وتقديس النظام ، مما يباهى به الألمان .

وكان لهذه الثورة صداها فى فرنسا .. فقامت ثورة الطلبة ضد الجامعات العتيقة وسيطرة الاساتذة والآباء . ولكن طلبة فرنسا تقدموا باقتراحات للاصلاح . وهى معقولة ومقبولة . ولكن بسرعة ركبها المتطرفون السياسيون ..

ثم اتخذ المتطرفون مدينة برلين مركزا ومنطلقا ، وفى جامعة برلين القى الفيلسوف الألمانى هربرت مركوزة محاضراته الملتهبة .. دعا الشباب الى ان يظل شبابا . لأن آباءهم لم يعرفوا الشباب ، فقد ولدوا رجالا محرومين من نعمة الاعتراض والتمرد اما اجدادهم فقد ولدوا عبيدا ساقهم هتلر بالملايين الى الموت ومن ورائهم خراب ألمانيا واقبولة . ولكن بسرعة ركبها المتطرفون السياسيون ..

ثم اتخذ المتطرفون مدينة برلين مركزا ومنطلقا ، وفى جامعة برلين القى الفيلسوف الألمانى هربرت مركوزة محاضراته الملتهبة .. دعا الشباب الى ان يظل شبابا . لأن آباءهم لم يعرفوا الشباب ، فقد ولدوا رجالا محرومين من نعمة الاعتراض والتمرد اما اجدادهم فقد ولدوا عبيدا ساقهم هتلر بالملايين الى الموت ومن ورائهم خراب ألمانيا واعدام الضمير الوطنى والاخلاقى .. قال مركوزة : أيها الشباب كونوا شبابا . ليس عندكم ما تعتذرون عنه . شىء واحد اذا اعتذرتم عنه فعذركم غير مقبول : انكم شباب !

وتحولت الكلمات الى مسدسات وقنابل وحاصروا اكبر دار للصحافة والنشر فى برلين دار اشبرنجر التى تصدر عنها مجلة « درشبيجل » الشهيرة ..

وفى سنة ١٩٦٨ ظهر للشباب زعيم اسمه دوتشكه . اصابه رصاص البوليس .. فمات مشلولا سنة ١٩٧٩ فى التاسعة والثلاثين من عمره !

وانتشرت الدعوة الى الاصلاح فى الجامعات والمدارس والمستشفيات والشركات ـ بين التلاميذ والطلبة والباحثين والمرضين . لقد هيأوا الأذهان كلها للاعتراض والمناقشة والمساومة .

وظهرت بين الشباب الألمانى « الخلايا الحمراء » للمتطرفين الشيوعيين ، وكانت عنيفة جدا يتزعمها شباب تمرس على التنظيم والتنظير ـ وهم الآن فى الأربعين من العمر . وانتهى دورهم العنيف بعد ان اعتدلت جماعة الخضر ..

ثم ظهرت جماعة « الفاشية الألمانية اليسارية » ـ وهو الوجه القبيح لجماعة الخضر . فقد كانوا يعترضون الأساتذة وهم يحاضرون . ويصرخون ويطلقون اصواتا قبيحة فى المدرجات والمعامل .. وفشلوا لأنهم اصطدموا بالاحترام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العميق عند الألمان للعلم وقاعات المحاضرات والمعامل .. وكان الخضر يرفضون اعتراض الاساتذة فى المدرجات .. فقط عندما يخرجون . تماما كما لا يعترض احد منهم ، مهما كان ملحدا ، رجال الدين فى الكنيسة ـ امامها فقط .

وفى جماعة الخضر ظهرت الفتيات يتزعمن الفكر والتطبيق العنيف ـ اكثر الخضر من الفتيات حتى اليوم .

ظهرت جودرون اسلين وهى ابنة قسيس . والصحفية أولريكه مينهوف ـ وكانت محررة لامعة جريئة وأما لطفلين . مقاتلة مكافحة لاتلين دفاعا عن المساواة والسلام الاجتماعى .

وانضم اليها عشيقها اندرياس بادر وهو ابن لاستاذ جامعى .

وفى سنة ١٩٧٢ بدأت الاعتداءات على البنوك بالقاء القنابل . واعتقل هؤلاء الثلاثة . وكان الحكم عليهم بالسجن المؤبد . ولم يؤد ذلك الى اسكاتهم فى السجن أو خارجه . بل تناثر العنف فى أماكن اخرى .

وفى سنة ١٩٧٣ ظهر « الجيش الأحمر » واغتال ٢٩ شخصية وجرحوا ٩٣ وخطفوا ١٦٢ واستولوا على خمسة ملايين مارك من ٢٥ بنكا . وفى ابريل سنة ١٩٧٧ بعد انتحار الصحفية اولريكة مينهوف ، اغتالوا النائب العام سجفريد بوباك .. ثم اغتالوا رئيس مجلس ادارة بنك درسون : يورجين بونيو ـ اغتالته الارهابية المعروفة سوزانا البرشت ، ابنة أحد اصدقائه ـ عمرها ١٩ عاما .

ولما سئلت عن السبب قالت : كرهت الذين يأكلون الكافيار .

وانتشر الفزع فى ألمانيا كلها . وتكدس السلاح فى البيوت . وقام الأغنياء بعمل حراسة خاصة بهم .. وكذلك البنوك والشركات .

وقد صور الأديب الالمانى هينريش بيل الحائز على جائزة نوبل حال المانيا فى ظل الارهاب فى روايته « شبكة الامان » : أن الأغنياء الالمان والحكام الالمان اصبحوا سجناء فى بيوتهم ـ أما السجانون فهم حراسهم !

وهو أول من نبه الشعب الألمانى إلى خطورة الارهاب . لأنه سوف يؤدى إلى أن يصبح « قوانين الطوارىء » هو القانون العادى .. امرا واقعا .. ومن خلال الطوارىء سوف يعود الالمان دون أن يشعروا الى ما هو اسوأ من النازية ! وهكذا يساهم الشباب فى تضييق حرية الفرد ، بينما هم يسعون الى توسيعها وتقديسها !

وفى سنة ١٩٧٧ اختطفوا اشلاير رئيس شركة مرسيدس ، التى هى نموذج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكل ما يكرهون فى المانيا : القوة والعظمة والتضخم الحديدى والنظام والانضباط والرأسمالية التى لا تهزمها الحرب . ثم طالبوا مقابل الافراج عنه اطلاق عشرين سجينا . ولكن المستشار الالماني هلموت شميث رفض المقايضة ، ورفض الحوار ! ثم خطفوا طائرة المانية مسافرة من جزيرة ميوركة الاسبانية وارغموها على الهبوط فى روما .. ثم مقديشيو عاصمة الصومال .. وهددوا بقتل جميع ركابها . ولكن فريقا من ألمانيا تدرب على مكافحة الارهاب مستخدما اسلحة غير معروفة ، انقذوا الركاب بعد ان قتلوا ثلاثة من مختطفيها . فانتحر الارهابيان بادر واسلين فى السجن .. ثم ان الأرهابيين قتلوا رئيس شركة مرسيدس وتركوه فى احدى السيارات !

وقد أدى هذا العنف الى انصراف الشبان عنهم واحتقارهم لهذا الاسلوب فى فرض الرأى والحوار الدموى .

وفى سنة ١٩٨٠ قرر زعماء « الجيش الأحمر » ان يوضحوا برنامجهم السياسى دون عنف . فارتبطوا بجماعات أخرى اوروبية . وكانت سياستهم مقاومة حلف شمال الاطلنطى وقواعده ومؤسساته فى المانيا واوربا كلها ، وكذلك قادته العسكريون . ولكن هذا الحزب محدود وعاجز . وفى اقسام البوليس الالمانى صور قبيحة لشبان مطلوبين للمحاكمة ـ أكثرهم من ذوى اللحى والغضب والمرارة والحقد ـ انهم حقا احفاد هتلر !

فيكف واجه البوليس هذه التيارات الغريبة عن المجتمع الالمانى ، وعن العقلية الالمانية .. صحيح ان كارل ماركس المانى ، ولكنه فيلسوف ـ اخر الفلاسفة الكبار . أنه شخصيا لم يضرب احدا بطوبة ، ولكن باسمه ارتكبت أبشع الجرائم فى العالم .

لقد كان البوليس الالمانى من أيام المستشار بسمارك فى اواخر القرن الماضى سلاحا قويا قاسيا . فكيف يكون سلوك البوليس فى بلد ديموقراطى ؟ .

يجب أن يكون الطف وأكثر مرونة ـ وهذا ما لم يجريه البوليس الالمانى . ولذلك كانت حيرته عظيمة فى مواجهة الشبان الصغار ذوى الأفكار الكبيرة والامال الذهبية . كان البوليس فى ازمة . وكان أول امتحان له عند زيارة شاه ايران لبرلين . تظاهر الطلبة . واصيب احدهم برصاص البوليس ، مما اشعل الغضب على البوليس من كل الشعب الالمانى . ثم ما الذى يفعله البوليس فى مواجهة المظاهرات ضد النشاط الذرى . أنها أحداث جديدة لم يستعد لها . ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتدرب على مقاومتها .. أما أكبر المظاهرات التى شهدتها المانيا كلها فكانت احتجاجا على عمل ممرات لمطار فرانكفورت أكبر المطارات الدولية فى المانيا . وكانت المظاهرات ضد قطع الأشجار وازعاج الناس وتهديد أمنهم وصحتهم .

ثم أن هذا المطار سوف يكون أكثر استعداد لاستقبال الطائرات الحربية الامريكية . وانضم الى « الخضر » اليساريون والفوضويون . ولم يفلح البوليس فى حفظ الأمن . فالاعداد كثيرة ، معظمها من الأطفال والشباب . وطاش الرصاص واصاب كثيرا من الابرياء واخطأ البوليس . فاقتحم شقة القنصل البريطانى وقتله خطأ سنة ١٩٧٦ . وقتل شابا كان يتسلق أحد البارات ، فقد ظنوه هاربا .

وأخيرا تقرر أن يحمل البوليس سلاحا ، دون عنف .. وفى سنة ١٩٧٤ عندما قرر ثلاثة من الشبان ان يرتادوا حمامات السباحة عراة ، جاء البوليس يحمل المدافع الرشاشة ولم يلق تدخلا من الجماهير ، واقتاد الثلاثة الى السجن .. واعتاد الناس على رؤية المدافع الرشاشة فى ايدى البوليس ، ولكنه منظر أقل قبحا من جرائم الارهابيين وقتل الابرياء !

والبوليس الالمانى لا يرقى إلى مستوى البوليس الانجليزى الذى تربطه صداقة حميمة بالشعب ـ والذى عاش وسوف يعيش على احترام عميق متبادل .

* * *

* * *

وفى أثناء كل ذلك كانت جماعة « الخضر » تنظم صفوفها وتوضح فلسفتها وتنشق وتنسق أجنحتها المختلفة حتى صارت حزبا ـ وان كانت هى ضد « التخرب » ضد القيود الذهبية الصارخة .

و « حزب الخضر » يستهوى الشباب لأنه صوت احتجاج على الجامد البارد اللا إنسانى .. وأصبحت « جماعة الخضر جزءا » من حزب الخضر الذى ضم كل انواع الغاضبين والساخطين من المهتمين بالسياسية والاقتصاد والدين والحرية الجنسية وحماية البيئة الهوائية والمائية والترابية والحيوانية والانسانية .

فحزب الخضر يطالب بترشيد استهلاك عناصر البيئة . وهو سىء الظن بالتكنولوجيا الحديثة والطاقة النووية . وهو يدعو الى ذلك بهدوء واعتدال . وبعض الأجنحة تذهب فى دعواها إلى الحياة البدائية وكراهية العلوم الحديثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعشق الحقول والغابات والى تبسيط الحياة الاجتماعية .

وهم ضد الحرب والحشود العسكرية والقواعد والاحلاف .

وبعضهم يريد السلام المسيحى بالضبط كما نادى به السيد المسيح فى « موعظة الجبل » الشهيرة التى جاء فيها : طوبى لانقياء القلب . طوبى لصانعى السلام . طوبى للمطرودين من أجل البر . طوبى لكم اذا طردوكم !

وقد انضم إليهم الشواذ جنسيا وساروا فى مظاهرات يطالبون زواج الرجل من الرجل والمرأة من المرأة .

وتعالت أصوات الشيوعيين والفوضويين والعنصريين الذين يؤمنون بتفوق الجنس الارى الجرمانى على كل الاجناس ـ انها النازية الجديدة ؟! .

وعلى الرغم من أن لها جماعات مشابهة فى اوروبا ، فإن الخضر الالمان أقوى وأعمق . لأسباب : فالدعوة للسلام عند الالمان أقوى . فقد تعذبوا بويلات الحرب .

كما أن كل مؤسسات حلف الاطلنطى وقواعده موجودة عندهم . ثم ان لدى الالمان هذا الشعور العميق بأنهم مصدر القلق فى اوروبا كلها .. ورغبتهم فى انهاء اللوم والاذلال الامريكى للشعب الالمانى ، فى السينما والاذاعة والتليفزيون .

كما أن ألمانيا دولة مكدسة بالسكان وعندهم غابات شاسعة فتناقصت وأرضها تلوثت وسماؤها تسممت . لكثرة المصانع الضخمة وهم يكرهون الأرض العارية من الأشجار .. عندهم جنون الخوف من الفراغ . وهم يفضلون الغابات على الحدائق . ويفضلون البيوت القديمة الدافئة على البيوت الحديثة ذات التدفئة الصناعية ، ويحنون إلى التماسك العائلى الذى سبق ظهور النازية . ويعشقون أخلاق الريف .

وفى انتخابات احدى الولايات الالمانية سنة ١٩٧٩ ، دخلوا البرلمان بعد أن حصلوا على النصاب القانونى وهو ٥٪ من أصوات الناخبين . وفى ولايات اخرى حصلوا على اكثر من النصاب ـ انتصار عظيم لهذه الجماعة الجادة المعتدلة .

وفى سنة ١٩٨٣ دخلوا البرلمان الاتحادى « بوندستاج » بثمانية وعشرين عضوا .. بالبنطلون المكرمش والقمصان بلا اكمام والاحذية الكاوتش وغصون الاشجار فى ايديهم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى أول جلسة أعلنت زعيمة الحزب بتراكيلى : نحن حزب ضد الأحزاب ! وكان مظهرهم سيئا فى داخل البرلمان ، حتى ندم الذين انتخبوهم . فليس عندهم وعى سياسى ولا تجارب فى المناورات الحزبية .. ثم انهم يختلفون معا امام الأحزاب الأخرى ويتبادلون الألفاظ والحركات النابية ..

وفى داخل الحزب قد اتخذوا قرارا ان تتغير هذه الوجوه البرلمانية كل انتخاب فلا يبقى فى موقعه احد .. وهكذا عليهم أن يجربوا دائما ، دون ان يكون عندهم رصيد من التاريخ .. وطلبوا من زعيمة الحزب بتراكيلى ان تنسحب . انتهى دورها . ولابد من أخريات يظهرن مكانها ..

بترا زعيمة الحزب ولدت سنة ١٩٤٧ .. امها المانية وابوها بولندى . ثم هاجرت الى امريكا فى الثالثة عشرة تزوجت امها ضابطا امريكيا ايرلنديا اسمه : كيلى .

واتخذت بترا اسم زوج امها . اما نشاطها لمناصرة حقوق المرأة والملونين فى امريكا فقد بدأ مبكرا . وكانت ممن يقدسون القس مارتن لوثر كنج . وعملت بعد ذلك فى بلجيكا . ثم عادت إلى المانيا . فى غاية الحيوية . تنام اربع ساعات من أى يوم . عصبية تتكلم بسرعة . ولكنها لطيفة ذكية . عندما قابلتها من سنوات وجدت على مكتبها خطابا من السفير الأمريكى يقول لها : صحتك .. اهتمى بصحتك لتصبحى قادرة على حماية صحة الآخرين !

ونظرت الى وجهها .. انه شاحب . والعينان غائرتان . وتمد يدها دائما تسوى شعرها ، مع أنه قصير لا ينزل على جبهتها .. اما التدخين فهى تشعل واحدة من واحدة .. وتشم رائحة اظافرها لاقتراب نهاية السجائر منها ! والبن يجرى فى عروقها - فهى لا تشرب غير القهوة .

وحزب الخضر ممزق :

بعضهم يرى ضرورة الجلوس فى مقاعد السلطة والمشاركة فى الحكم ..

وبعضهم يرى ان يكونوا جماعات ضغط فى الشوارع - أكثر حرية وأكثر جماهيرية .. ومطمع كل الاحزاب السياسية .

وفى سنة ١٩٨٥ اختارت احدى الولايات وزيرة للبيئة من حزب الخضر ..

وفى مدينة تيبنجتن الجميلة قامت المظاهرات .

والمدينة جامعية - اى قامت من اجل الجامعة . ولا توجد بها مواصلات من أى نوع - منعا للضوضاء .. وهى المدينة التى ولد فيها اعظم الشعراء الالمان :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هيجل واسير الشعراء الالمان : هيلدرلن . وفيها « حديقة التأوهات » . اى ملتقى العشاق من طلبة الجامعة . وقد حاولت الدولة ان تفتح فيها الشوارع فثار الخضر . واصروا على ان يكون الشارع دائريا خارج المدينة دون اقتلاع لشجرة واحدة !

وفى المدارس نصح المدرسون تلامذتهم بالا يسرفوا فى استخدام الورق .. فكل ورقة جاءت من شجرة قطعوها .

وكثير من المواطنين يشربون اللبن فى الزجاجة ، لا فى العلب الورق . ويسافرون الى الريف ليشربوا اللبن الطبيعى لا اللبن الصناعى الذى دخل المصانع فاطلقت العادم يلوث الهواء .

ويستخدمون الطاقة الشمسية بدلا من الكهرباء والغاز .

وبعضهم يمشى على رجليه . ولا يستخدم السيارة .

وفجأة نشرت الصحف ان جناحا من حزب الخضر يطالب بالغاء الزواج .. ويطالب باباحة العلاقة الجنسية بين الأطفال والشبان ـ وقد خسر حزب الخضر كثيرا بسبب هذه الدعوات الشاذة الشائنة !

كما أنهم استباحوا ممتلكات الأخرين . فكلما وجدوا شقة خالية ، اقتحموها . واقاموا فيها ـ فافزعوا الناس !

ثم ظهرت كل أنواع الغضب والسخط ، الذين اطالوا شعورهم ، والذين حلقوها . والذين اسرفوا فى مظاهر الرجولة وفى مظاهر الانوثة .. وزادت حالة الانتحار الجماعى .

إن هؤلاء الشبان يعبرون عن المانيا .. بلد حاصرتها الجغرافيا وخنقها التاريخ !

* * *

ولكن شيئا جديدا بدا بوضوح وفى هدوء أيضا . فقد ظهر جيل جديد مختلف . وفى داخل حزب الخضر .. انهم أكثر هدوءا . أكثر اناقة . وحفاوة بمظهرهم . يفخرون بانهم المان . وانهم كانوا اعظم دولة ، واليوم ، وغدا سوف يكونون كذلك . وانهم ينتظرون وراءهم فى غير ندم ، وحولهم فى غير خوف ، وأمامهم فى غير قلق . وانهم يعجبون بالابطال .

وقد أدى ظهور لاعب التنس بوريس بيكر الى اشتعال الروح الوطنية فى بلاده . ايقظ الايمان بالبطل . وابرز تعطشهم الى عباقرة فى الفن والأدب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والموسيقى والسياسة والعلوم . ان بوريس بيكر لم يخطر على بال احد أن يكون هكذا صغيرا وان يكون بطلا عالميا . أن المانيا هى أم الابطال فى كل التاريخ وليس بوريس بيكر الا باكورة البطولة .. كأن المانيا تذكرهم بأنها قادرة على أن تلد ابطالا حيث لا يتوقعون منها ذلك !

وبسرعة شديدة بدأ حزب الخضر فى المانيا يقتلع اشجاره السياسية والفكرية من قلب الشعب الالمانى .

ولكن هذا الحزب هو الذى شاء الا يكون حزبا ، وأن يكون امشاجا من كل شىء .. فهو كل شىء ، وليس شيئا . وهو يقاوم اعمق اعماق الالمان : النظام والانضباط واحترام العلم وتقديس البناء !

إن الذى اضافوه الى اعمار الاشجار ، خصموه من اعمارهم . ولذلك سوف تبقى جماعات وجمعيات حب الحياة الخضراء .. اما الحزب ، فقد عرفت ماذا اصابه ..

فهل يعيش حزب الخضر فى المانيا بعد أن فشل فى أن يكون حزبا فى أية دولة اخرى ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دماء بلا جروح !

وأنت فى الطائرة مثل المقعد الذى تجلس عليه أو تتمدد فوقه .. فى حالة استسلام . تحاول أن تنام .. أو تنام . ويكون النوم اختصارا للوقت وغيابا عن الطائرة حتى لا تفكر فى هذا الموقف الخطير . وكل شىء عندك : يجوز .. أن تصل الطائرة ويجوز الا تصل .. فالخوف يرفرف حولك .. فراشات صغيرة ، أو غربانا .. ولكن الخوف يخرج من أعماقك ويدور حولك .. ولكنه فى الطائرة إذا اهتزت فأنت تربط الحزام وتتجمد على مقعدك ، فأنت ـ اذن ـ تهرب من الطائرة إليها .. تهرب منها وتلوذ بها .. تماما كما تضرب طفلك فإذا هو يختفى فى ملابسك ، يهرب منك ويأوى إليك .. وتحاول أن تنشغل عن الطائرة وأنت فيها .. بالأكل .. بالقراءة .. بالانسلاخ عنها .. أى بابعاد فكرة أنك فى الهواء بين السماء والأرض .. وأنك تحاول أن تجعل للهواء قوة الأرض .. فترفض الخوف وترفض الخطر .. وتمد نفسك باليقين والثبات والشجاعة .. ويحدث ذلك فى كل مرة تسافر فيها ، ولو سافرت ألف مرة .

ويقترب المضيف منى ويعطينى خطابا لكى أقرا . وقرأت واندهشت . ومددت يدى الى داخل المظروف فوجدت قطعة من القطن .. ولم يكن ذلك جديدا .. وعاد المضيف المصرى ، ونحن فى طريقنا الى المانيا . وقلت له : أعرف هذا الشخص .. واعرف صاحب القصر وقد تغديت عنده فى باريس فى العام الماضى ! .

وانشغلت بالتفكير فى هذا الموضوع الذى جاءنى مثل « طوق نجاة » لينقذنى من الاستسلام والسلبية المملة فى الرحلات الجوية .. وفجأة جاءت مضيفة مصرية أيضا ومعها زميل يقول : لقد حدث شىء عجيب جدا .. فأنا لم أكد أمسك هذه القطنة التى رأيتها سيادتك حتى غرقت كفى بالزيت .. مع أن القطنة ليست بها زيت .. وليس فى الطائرة طعام به زيت .. وزميلى قد رأى ذلك .. وفجأة اختفى الزيت !

وأمسكت القطنة بيدى وضغطت عليها بباطن الكف .. هذه الكف وتلك الأخرى .. ونظرت أرى أى أثر للزيت . فلم أجده . وأقسمت المضيفة أن هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدث الآن ، مع أنها لاتصدق مثل هذه الخرافات . كيف حدث ؟ هل معقول ؟

شكرا . لقد وجدت الموضوع الذى سوف يشغلنى طول هذه الرحلة ذهابا وإيابا . والآن يمكنهم أن يتركونى وحدى . وتركونى . وجعلت أدير هذا الحادث وكثيرا غيره ..

ما هذا الذى يحدث لتماثيل بعض القديسين والقديسات .. تدمع عيناه .. أو يرشح زيتا أو سوائل ملونة .. أو دما ؟ ثم يحدث أيضا لبعض الناس ؟

أكثر من ذلك كيف يصاب بعض المسيحيين بما أصاب السيد المسيح عليه السلام ، فتظهر أثر المسامير التى دقت فى جسده الشريف ، فى أجسادهم هم .. فى أيديهم .. فى ظاهر الكف وفى باطنها وأحيانا فى صدورهم وفى أقدامهم .. وأحيانا يسيل الدم من خدودهم وجباههم ؟ كيف ؟ أى نوع من الناس هؤلاء ؟ وفى أية ظروف نفسية أو صحية ؟ وكيف أن قطعة من القطن مسحوا بها كفا أفرزت زيتا تنال هذا الزيت إلى أجسام أخرى رغم جفافها تماما وخلوها من رائحة الزيت ؟ .

فى التاريخ أكثر من ٧٠٠ حالة معروفة ومرصودة ومسجلة . وكلها ذات معنى واحد : هو أن أحد المؤمنين وهو يصلى أمام الصليب ، أو وهو مريض يتوجه بصلاته وقلبه وكل مشاعره إلى المسيح ، فجأة تظهر على جسمه فى أماكن مختلفة كل أثار عذاب المسيح المصلوب والذى دقوا المسامير فى أماكن مختلفة من جسمه وراح الدم ينزف منه .. وتظهر فى أجساد هؤلاء الناس بقع فى ظاهر الكف أو باطنها أو باطن القدمين أوظاهرهما أو أحد جوانبها .. كيف يستطيع أنسان أن يستشعر عذاب المسيح ، فيصاب بوخز الأبر والمسامير ويتوجع ؟ ماهذا العقل الأنسانى الذى يستطيع أن يستحضر العذاب وأن يصاب به ؟ كيف ينقل العقل إلى الجسم صورة تاريخية فتنطبع على الجسم ؟ لاأحد يعرف .. ولا أحد يعرف ما هو الفرق بين العقل والنفس والمخ والوجدان والتفكير ولا ماهى وسائل انتقال الأفكار أو الخيال أو الصور .. ولا أحد يعرف بالضبط ماهذه القدرة الخارقة التى لدى الانسان ، على نفسه وعلى قلبه وعلى جسده ؟ ولكننا نرى أثر كل ذلك ، وليس لدينا تفسير علمى مقنع لكل هذا ..

أن « ثوب تورينو » أى الثوب الموجود الأن فى مدينة تورينو الايطالية قد ظهرت عليه صورة للمسيح ، كما ظهرت جروحه . هذا الثوب قديم . وقد أثبت التحليل الذرى أخيرا ، أن الثوب قديم ، ولكن ليس من أيام السيد المسيح ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أى ليس هو الثوب الذى التف به جسده الشريف ـ اقرأ العدد الأخير من مجلة « تايم » الأمريكية .

الصورة التى أرتسمت على القماش هى وجه لانسان . وعليه أثار الألم والعذاب ، كيف انتقلت هذه الصورة .. من الذى استطاع أن ينقلها بالنظر إليها ، أو عندما مسح بها وجهه .. كيف تنقل صورة العذاب من وجه إلى قماش ـ هذا هو اللغز الذى لم يعرف له أحد حلا !

وأحدث ما قرأنا هو عن فتاة فلسطينية ظهرت عليها « سمات » السيد المسيح .. أثار المسامير والدم ينزف ..

وقبل ذلك فى سنة ١٩٨٥ نشرت الصحف البريطانية عن زوجة سائق كانت تصلى فى احدى الكنائس عندما راحت تصرخ وتئن وتنهار . ونقلوها إلى بيتها ، ليروا بوضوح أثر المسامير فى كفيها وقدميها . كيف ؟ !

ولما سألوها قالت : انها أحست بوخز الأبر .. ألوف الأبر .. والمسامير ألوف المسامير .. وفجأة ظهرت بقع زرقاء وسوداء فى يديها وقدميها . كيف ؟ وقد لاحظ بعض الآثريين أن الحمار الذى كان يركبه السيد المسيح قد برز على ظهره صليب .. ثم ظهر هذا الصليب على ظهور حمير كثيرة من سلالة هذا الحمار ؟ !

★ ★ ★

★ ★ ★

ولكن أول حادث شهير فى التاريخ المسيحى كله هو الذى أصاب القديس الأيطالى فرانشسكو الأسيزى وهو ابن تاجر قماش غنى . وفى أحد الأيام وقع فى أيدى خصوم والده . حبسوه وضربوه وعذبوه . وجاءت تجربة السجن والعذاب نقطة تحول فى حياته . فقد خرج من السجن انسانا آخر رقيقا شديد الحساسية وعميق الايمان .. وقرر أن يهجر الدنيا ويعيش للدين . وارتدى ملابس الفقراء . وراح يتسول ليستغنى عن فلوس والده .. وقالوا : مجنون .. ولكنه مضى مع الفقراء يساعدهم ويشجعهم على الفقر وعلى مد أيديهم . وعندما علم بأن احدى الكنائس فى حاجة إلى فلوس استولى على الأقمشة فى دكان أبيه وباعها ودفع فلوسها للكنيسة . وذهب الأب يشكو للقضاء . ثم طلبت المحكمة من الابن أن يعيد أموال أبيه .. وفى المحكمة قدم للقاضى حقيبة امتلأت بالذهب . ثم القماش الذى أخذه من دكان أبيه . وأعلن فى المحكمة : أن أبى فقط هو الذى فى السماء ، فليس لى أب على الأرض !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجاء القديس فرانشسكو إلى مصر يبشر بالمسيحية والزهد فى الدنيا .. وعاد من مصر مصابا برمد صديدى . لم يبرأ منه . وان كان أطباء ذلك العصر قد كووه بالنار فوق عينيه . ولكن ظلت عيناه مريضتين .

وفى أحدى المرات كان يصلى أمام الصليب عندما ظهرت عليه « سمات » السيد المسيح : مسامير فى باطن الكفين والقدمين .. وأعجب من ذلك أن القديس فرانشسكو لم يشعر فقط بأثر المسامير ، بل أن الجلد نفسه قد تحول إلى مسامير مشدودة بارزة . هذه المسامير الجلدية قد برزت من باطن الكفين ..

والشىء الغريب حقا هو أننا لانعرف بالضبط أين كانت المسامير التى دقها الرومان فى جسد المسيح .. هل فى كتفيه .. فى كفيه .. فى قدميه .. فى جنبيه .. نحن لسنا على يقين من مواضعها .. وانما الفنانون هم الذين صوروا لنا كل ذلك .. ولانعرف حجم المسامير ولا عددها .. هل هى خمسة أو ستة أو عشرة .. وهل هى فى باطن أو ظاهر الكفين .. أو الرسغين ، كما جاء فى ثوب تورينو ..

والأعجب من كل ذلك أن الدم ينزف بغير جروح .. فلا توجد جروح وأنما نحن أمام ظاهرة دم يرشح .. ينز .. دون أن يكون هناك أية جروح سطحية أو عميقة . فاذا نحن مسحنا الدم بقطعة من القماش ، وجدنا الجلد تحته سليما تماما .. ويختفى الدم ثم لايلبث أن يسيل من جديد .. كيف ؟

★ ★ ★

★ ★ ★

هناك بعض الناس لديهم القدرة الفذة على أن ينقل أية صورة منه إليك مثلا هناك رجل روسى يقول ، لك : هل رأيت قصر عابدين ؟

فتقول : لا رأيته ولا رأيت صورة له ..

فيطلب اليك أن تنظر الى عينيه .. فاذا بك ترى فى عينيه صورة لقصر عابدين .. الأبواب والبلكونة والميدان ..

وفى الريف المصرى يفتحون المندل ..

وذلك بأن يأتوا بفنجان به نقطة من الزيت .. ثم يقلبون الزيت فى الفنجان .. ويطلبون اليك أن تنظر فى الفنجان .. وأن تركز على قاع الفنجان . ويقال لك : الوجه الذى أمامك هو الرجل الذى سرق جاموستك .. انظر اليه جيدا .. انه يمشى .. امش وراءه .. المكان الذى يقف عنده ، ستجد فيه جاموستك .. انظر بعناية .. انظر !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكون صاحب الوجه هو اللص ، ويكون البيت الذى تراه هو الذى اخفى فيه الجاموسة .. وتذهب لتجد جاموستك ؟

كيف نقل اليك الصورة .. أو كيف نقلها بعينه الى الفنجان .. أو كيف نقلها الى عينيك .. وكيف نقلتها أنت الى الفنجان !

هناك رجل روسى جاء اسمه فى كل الكتب التى درست ظاهرة « الادراك خارج الحس » .. هذا الرجل يطلبون منه : نريدك ان تتخيل السد العالى .. هل تراه الآن بوضوح ؟

فيقول : نعم ..

ثم يقولون له : انظر الى عدسة الكاميرا .. هذه الكاميرا .. انظر .. حاول ان تركز تماما ! ويلتقطون له صورة .. وعند طبع الصورة يجدون عينى الرجل وقد ارتسمت فى كل منهما صورة السد العالى .. كيف ؟ حدث ! ولكن كيف نقل صورة السد العالى الى عينيه ومن عينيه الى الفيلم ؟

بعض الناس لديهم هذه القدرة الفريدة على نقل الصورة الى أجسادهم والى الأشياء الخارجية ايضا .. ولا يوجد اى تفسير علمى لهذه الظاهرة !

وهناك حادثة السيدة الالمانية هلينا كرانتس .. هذه السيدة لديها قدرة غريبة على ان تقرأ الصحف بقدمها .. يأتون لها بصحفية بعد ان يعصبوا عينيها .. ثم يضعون الصحف تحت قدميها .. وتقرأ العناوين فتقول العنوان الرئيسى باللون الأحمر .. والصورة التى على اليسار للرئيس الامريكى .. والعنوان الذى يليه .. والذى يليه ..

وهى تقرأ بقدمها اليمنى فقط .. وليس بكل القدم .. وانما باصبعها الأكبر ..

واعجب من ذلك انها تنقل هذه العناوين الى الكاميرا اى ان العناوين تنقل من قدمها الى عينيها فاذا نظرت الى الكاميرا انطبعت الصورة على الفيلم .. فاذا طبعوا الفيلم وجدوا العناوين مطبوعة على القدم .. كيف ؟ لا تفسير علميا حتى الآن ..

وكانت السيدة اذا ذهبت الى المطاعم خلعت نعليها ووضعت قائمة الطعام تحت قدميها .. ومن الغريب انها لا تقرأ الا بقدم واحدة ، ولكن لابد من وجود القدم الأخرى الى جوارها فوق الورق ولا تقرأ الا فى النور نور النهار .. أو المصابيح .. والا بعد ان تكون قد اغمضت عينيها تماما .. ؟ !!

★★★★

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكما ان لبعض الناس القدرة الغريبة على اجسادهم ، فان هناك اناسا اخرين لهم قدرة يمكنها السيطرة على اجساد الاخرين ـ وذلك عن طريق العلاج الروحى .. والامثلة كثيرة جدا .. ولكن من أشهر هذه الحوادث ما وقع فى القصر الامبراطورى فى موسكو ..

ومن المعروف ان عددا كبيرا من نسل الملكة فيكتوريا مصابون بسيولة الدم .. اى أن الدماء تنزف منهم ولا تتوقف حتى الموت .. ولذلك يعيشون على دماء الآخرين . التى ينقلونها اليهم .. ولكن لا فائدة .. ومن بين احفاد الملكة فكتوريا الاميرة اليكس التى تزوجت القيصر نيقولا الثانى ، فانجبت له اربع بنات وولدا .. اما الولد فهو الذى اصيب بمرض سيولة الدم ، اى الانسكاب الدائم وعدم التخثر .. واقسم افراد الاسرة المالكة فى روسيا الا يبيحوا بسر هذا الامير المسكين الذى سوف يرث الامبراطورية ..

وفى ذلك الوقت كان يرتاد الريف فى صحارى سيبيريا رجل غريب عجيب .. ضخم طويل عريض خارق العينين شهوانى متوحش .. وهو من رجال الدين ولا علاقة له بالدين .. ولكنه اتخذ الدين طريقا لاشباع جوع وعطش جنسى دائم .. وكانت لهذا الرجل قدرة فائقة على علاج المرضى الذين يحار الطب فى علاجهم .. بالنظر واللمس .. وانتشر اسمه فى كل مكان .. وتسامع به اهل موسكو وبحثت الملكة عنه واستدعته وعرضت عليه ابنها الكسندر .. ـ ولم يكد الامير يرى هذا الفلاح راسبوتين حتى جعل يضحك من شكله ومن ملابسه ومن لهجته الريفية وكان راسبوتين يضحك ايضا لعلاجه الامير وطلب اليه راسبوتين ان ينزع ملابسه .. واستاء الامير من هذا الامر الخشن .. ولكن لم يكد راسبوتين ينظر اليه حتى خلع الامير ملابسه كلها .. مع ان راسبوتين كان يريده أن يخلع قميصه فقط .. ورأى راسبوتين الجرح الذى يسيل دما دون توقف ووضع راسبوتين اصبعه على مكان الدم فتجلط وتخثر ووقف فورا .. كيف ؟

وتقدمت احدى الوصيفات من راسبوتين تشكو من ان ذراعها اليمنى ملتوية وانها لا تستطيع ان تفردها .. وانها ولدت هكذا من خمسة وعشرين عاما .. فما كان من راسبوتين الا ان مس ذراعها وملأ عينيه من عينيها واعتدلت الذراع لاول مرة !

اما الامبراطورة فعندها انزلاق غضروفى واوجاع مزمنة فى الفقرات الاولى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من عمـودها الفقرى وبمرور اصـابع راسبوتين على العمـود الفقرى ذهابا وايابا اختفى الآلم تماما !

وجاءه احد الفرسان يسخر منه وقال : وانا عندى انزلاق غضروفى ..

فقال له راسبوتين : احذرك اذا كنت تدعى هذه الاصابة فاذا مررت بيدى على ظهرك ، فسوف يوجعك حتى الموت لانك تكذب وتسخر منى احذرك !

فقال له الفارس : اننى مصاب على اثر سقوطى من فوق حصانى من خمس سنوات ..

وعاد راسبوتين فحذره مرة اخرى ولكن الفارس اصر على اقواله .

ومرت يد راسبوتين على ظهر الفارس الذى راح يصرخ ويسقط على الارض ويتقلب ولم يستطع راسبوتين ان يزيل عنه الالم ..

وهناك حادثة مشهورة لراسبوتين ايضا .. فقد جاءته احدى الاميرات الجميلات .. وصارت عشيقة له بعد ذلك فقد آمنت به ولما عرفته آمنت به اكثر .. وفى يوم فكرت فى القضاء عليه .. فقد غارت من نساء كثيرات كن عشيقات له ايضا .. وقد ادرك ذلك بقدراته الهائلة على معرفة افكار الناس وقال لها : سوف اعاقبك يوما واحدا .. وبعد ذلك فلن اراك مادمت تفكرين فى قتلى ..

ومد يده الى عينها اليمنى فنزلت دموعها دما .. وعينها اليسرى فنزلت دموعها بلا توقف !

واوقف دموعها فى اليوم التالى .. فما هذا كله ؟

انها قدرة بعض الناس على التأثير فى اجسام الاخرين وقدرة بعض الناس على التأثير بعقولهم فى اجسامهم .

★★★★

وليست هذه القدرة قد انفرد بها الانسان بل الحيوانات ايضا .. فالحيوانات التى تتكيف مع البيئة فتغير مظهرها لكى تختفى بين الاشجار وبين الزهور .. والتى تغير لونها هى ايضا قد اكتسبت هذه الصفات بمرور الوف السنين .. اى ان هذه الحيوانات لديها القدرة العجيبة على ان تقاوم وان تتلون وان تتكيف بمرور الوقت ، حتى لا تموت . مثلا هناك نوع من الفراش قد ظهر على اجنحته عيون كبيرة تخيف اعداءه .. كيف استطاع هذا الحيوان الصغير جدا ان يكتسب هذه الوقاية من الخطر .. لابد انه فعل ذلك بنفسه فى ملايين السنين .. وان هذا التكيف قد ادى الى تغيرات عضوية وكيمائية ايضا . فارادة الحماية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبقاء عند الحيوان والحشرات قد جعلته يغير من مظهره ومن وظائفه من اجل ان يعيش .. وكما ان الانسان ايضا عنده ارادة الحياة والبقاء والتفوق فعنده ايضا ارادة الموت .. كان يرفض الشفاء .. أو كان ينتظر الموت ويعمل له .. وان يريد الجروح .. وان يريد النزيف .. وان يريد ان يكون له صورة من السيد المسيح ومن عذابه على الصليب ..

ولذلك وجدنا عددا كبيرا من الذين ظهرت عليهم « سمات » المسيح يصابون بها يوم الجمعة .. لأن الرومان وضعوا المسيح على الصليب يوم جمعة .

وان يكون جروحهم فى اعياد الصليب او اعياد القيامة او اعياد بعض القديسين .. ثم ان كثيرين ماتوا فى الثالثة والثلاثين - أى فى سن السيد المسيح .. فهم قد ارادوا العذاب مثله .. فكان لهم العذاب وارادوا الموت فى يوم عذابه .. وارادوا الموت فى مثل سنه .. فكان لهم ذلك ؟

كان هذه الارادة قد وضعت فى اعماق كل واحد منهم « ساعة سحرية » تدق وتدق ثم تتوقف فى الوقت الذى تحدد لها .. او كان كل واحد منهم بارادته وقدرته على نفسه قد اخفى فى اعماقه « برنامجا » كالذى يوضع فى العقول الالكترونية .. وقام العقل والجسم وبقية الوظائف بتطبيق البرنامج حرفيا دون تدخل من صاحب البرنامج لانه قد وضع البرنامج وتركه وقام العقل والجسم بكل العمل .

وعندما هبطت الطائرة المصرية فى مطار فرانكفورت بالمانيا سألت عن اقرب المكتبات الدينية .. واشارت البائعة بيديها ذهابا وايابا الى اكثر من الفى كتاب .. كلها من هذا الموضوع قلت : اريد احدثها ..

قالت : ليس احسنها ولكن اقربها الى العقل الحديث انه هذا الكتاب .. !

وعنوان الكتاب « الايحاء الذاتى - تفسير لظواهر سمات المسيح على اجسام المؤمنين وتفسير حالاتهم المرضية النفسية والجسمية مع اهتمام خاص بحالة السيدة هيلنا كرانتس » ..

ومن رأى المؤلف الالمانى ادورد جولدتسفيك ان الانسان يوحى الى نفسه باشياء كثيرة وان الذين يمارسون اليوجا فى الشرق والغرب يعرفون هذه القدرة عند الانسان فهو يوحى الى نفسه بانه سليم وبانه مريض وبانه شبعان وبأنه عطشان وبأنه شاب .. وبأن الأوجاع التى فى قدمه لا وجود لها .. وانه لذلك يستطيع أن يمشى دون تعب ودون خوف .. وان التدريب المستمر عند اليوجا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتوج الانسان ملكا على عرشه الجسدى .. وان بعض اليوجا استطاع ان يتوقف عن النفس دقائق .. وان بعضهم بلغ مرحلة رفيعة جدا مين التدريب ومن التحكم فى الجسم حتى اوقف قلبه .. ثم جعله يدق بعد ذلك .. الى هذه الدرجة يمكن للانسان ان يحكم ويتحكم .. انه فى حاجة الى ممارسة والى صبر والى شجاعة وإلى ارادة فجسمك خاتم فى اصبعك ـ لو اردت او احسنت الارادة ..

وكثير من الذين ظهرت عليهم سمات السيد المسيح مرضى .. ولكن مرضهم هذا لا يدل على انهم عاجزون عقليا وان ارادتهم مريضة كأجسامهم فبعضهم كان يقضى الشهور على الماء وفتافيت الخبز .. منتهى القوة والسيطرة على رغباتهم الجسمية ..

فهؤلاء الناس لديهم قدرة هائلة على الايحاء الذاتى بانهم مرضى فى حب المسيح ومرضى يريدون ان يحملوا عنه العذاب .. بعض عذابه .. ويريدون منه ايصالا باستلام هذا الامل .. ويكون وصل الاستلام اثارا على ايديهم واقدامهم كانها توقيع السيد المسيح بعلم الوصول والموافقة ايضا ..

أما اختلاف اشكال الجروح ومواقعها فتفسيرها : ان هؤلاء المؤمنين هم الذين يتصورون هذه المواقع للجروح وحجمها وشكلها ..

ويقول المؤلف د . جولد تسفيك ان بعض هؤلاء الناس يرفض ان يكون صورة اخرى للمسيح وان يكون عذابه قد انتقل اليه تماما .. فهو لا يحب ان يكون مثله .. لان فى ذلك تجاوزا لمكانه كانسان .. وفى نفس الوقت لا يستطيع ان يتحمل نفس العذاب .. ولو اصابه نفس العذاب لمات فورا .. ولذلك فهو يطمع فى ان يطول عذابه فى حب المسيح .. فهو ـ اذن ـ الذى يفرض على جسمه صورة الالم كما يتخيله هو ..

ولعل هذا يفسر ما قاله القديس بولس الرسول فى رسائله الى اهل غلاطية .. قال فى الاصحاح السادس : لا أريد متاعب ولا مشاكل فاننى حامل فى جسدى سمات الرب يسوع ..

أى ان كل انسان يحمل هذه القدرة على نقل صورة العذاب وصورة صاحب العذاب .. وان بعض الناس لديهم هذه القدرة على ان يوحوا لانفسهم بها كلها .. او بعضها ـ والله اعلم !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو عبقرى وهى عبقرية

العبقرية هى الموهبة الفذة على العطاء !

من علامات العبقرية ان يقف الناس جميعا ضدها !

الانسان يولد عبقريا ، ولكنه يصير موهوبا !

العبقرية هى تلك القدرة الهائلة على ان تجمع وتربط وتحلل .. وتحرك الدنيا بعد ذلك !

كما ان الماس يقطع الماس ، فالعقل يجلو العقل .. والنتيجة هى هذا الذى نسميه بالعبقرية !

العبقرية تحتاج الى صبر شخص واحد ، وصبر الشعب بأكمله ايضا !

التقاليد هى قاتلة العبقرية !

العبقرية هى ان تكون عاشقا للألم !

الذكاء ينمو وتظهر أزهاره وثماره بسرعة ، العبقرية تنمو ببطء وتظهر أزهارها وثمارها كل الف سنة !

العبقرية لها صفات ثلاث : انها فردية .. فردية .. فردية !

العبقرية هو الشخص الذى يحقق انجازات عظمى .. ويصعد ويصعد ثم يسحب السلم وراءه !

المواهب تنبتها الأرض ، العبقرية تمطرها السماء !

الموهبة تجعل الصعب سهلا ، العبقرية هى التى تجعل المستحيل ممكنا !

العبقرية مثل النسور تعيش على ما تصيده ، المواهب كالغربان تعيش على ما يقتله الآخرون !

الطبيعة ام الموهبة ، العبقرية ام الطبيعة !

العبقرية ١٪ أرق و٩٩ عرق !

والسؤال : لماذا العباقرة رجال وليس بينهم امرأة واحدة ؟!

ولماذا ترهق المرأة نفسها بحثا عن الأسباب التى جعلت عددا كبيرا من الرجال مواهب فذة ، ولم تجعل مثل هذا العدد ، أولم تجعل اطلاقا واحدة من النساء كذلك ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأهم من ذلك : ولماذا هذا السؤال ؟ ولماذا هذه القضية .. وما المعنى ؟.

انها المشكلة القديمة التى تتجدد من حين الى حين . مشكلة الفوارق بين الرجل والمرأة . وهل هناك مساواة تامة .. أو بعض المساواة الاجتماعية والسياسية .. أو المساواة الكاملة فى وظائف الاعضاء .. او المساواة التشريحية ..

هذا السؤال يدل على قلق المرأة .. وعلى عدم شعورها بالأمان .. وانما شعورها وقع عليها ، ولا يزال . والظالم دائما الرجل ، فهو القوى القادر على فك السلاسل من يديها الى رجلها الى لسانها . فاذا كان العبيد قد تحرروا ، فان المرأة هى آخر العبيد .

ومن الطبيعى مادام الرجل هو الحرية .. فتاريخه فى ممارسة الحرية قديم جدا . ومن ثمرات الحرية : القدرة .. وفتح المواهب من كل لون وحجم .. بينما الضغط والكبت والقهر يقتل مواهب المرأة فى كل مكان وزمن .

فاذا كان هناك مليون رجل حر ، فان عشرات من النساء الاحرار .. ومن المليون حر ان يظهر عدد اكبر من الرجال وبعض العبقريات .. ومن ثمرات القليل من احرار النساء لا تتولد الموهبة تظهر العبقرية ..

ولا شيء يدل على قلق المرأة وأرقها وحيرتها الا الموضة .. فالموضة هى الطالعة النازلة ، الواسعة والخانقة . طالت الاكمام ارتفع الذيل .. واذا ارتفع هبطت فتحة العنق .. واذا قصر شعر تدلت اقراطها والسلاسل المعدنية من رقبة واذا برز صدرها توارت ارداقها ... والالوان حائرة الملابس والشعر والعيون .. كل شيء فى مكانة حائر بين الرقبة والذيل والاكمام وتضخمت النظارات السوداء وسقطت ، على الأنف وانحنى العنق بما يعطى انطباعاً بان المرأة ضعيفة النظر .. وبانها لا تقوى على حمل النظارة السوداء .. والمرأة تحب ان تكون ضعيفة .. واهية .. منكسرة .. رقيقة والحقيقة انها ليست كذلك ـ انها تبدو فقط .

يقول الاستاذ العقاد ، أعدى اعداء المرأة الفكر العربى الحديث : ان حياة المرأة هى تتجمل وتتعرض وتنتظر ..

اى تضع كل زينتها ، اى كل اسلحتها وذخيرتها الحية ، وتعرض نفسها على الرجال ، وتتربص وتنتظر ماذا يقولون وماذا يفضل بعد ذلك ..

والمرأة تمضى وقتا طويلا جدا من أجل ان تبدو أجمل ، فاذا عرضت كل ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الرجال ، فهى تتيح لهم فرصة ان يعبروا عن الذى رأوا ، وعن الذى يريدون ويقررون .. وهى تتيح لنفسها فرصة ان تختار .. فما الذى تختاره ؟

انها تختار انسب الرجال لان يكون أنسب الآباء لطفلها .. فكل هذا الجمال والتجميل من اجل اقوى الرجال وأغناهم .. أقواهم جسميا واجتماعيا وأقدرهم على اقامة العش وحماية الصغار فيه .. الطيور تفعل ذلك .. فالانثى تدور حول العش ..

أو بالقرب منه .. ويظهر الذكور واحدا بعد واحد .. كل واحد ينفخ ريشه ويبرز منقاره ويلفظ صوته .. ويستعرض قدرته فى منازلة الذكور الاخرى .. فاذا استطاع كل ذلك ارتضته الانثى .. وملكة النحل تخرج من الخلية ومن ورائها كل الذكور .. وتطير عاليا وبعيدا ويتهالك الذكور من الأرهاق .. فلا يبقى الا ذكر واحد هو اقواها .. هذا الذكر تختاره لها .. وترى ذكور النعام تروح وتجىء وتهدد بعضها البعض وتتضارب وتنزف دما .. فلا يبقى الا القادر على حماية المنطقة والانثى وتبادل النوم على بيضها بعد ذلك ..

ففى الوقت الذى تنام فيه الاناث على البيض .. أو تحمى الصغار ، يكون الذكور فى اماكن اخرى تقاتل وتجمع الطعام ثم تعود لحماية الأم وصغارها .. وفى رحلات الذكور بعيدا بحثا عن الطعام ومقاومة لقوى الطبيعة ومنازلة للاعداء والمتعصبين .. استطاعت الذكور ان تكتسب قدرات جديدة متنوعة .. واستطاع الذكور من الانسان ابتداع اساليب جديدة فى الحصول على الطعام وتقطيع الاشجار واختراع أسلحة القتال .. أسلحة الحرب والسلام ..

فالمرأة هى صانعة الحياة ..

ولكن الرجل هو الذى يطور الحياة ..

فالمرأة هى الأم . ومن أجل ان تكون أما ، فانها تختار اقوى الرجال . ومن أجل ان تبقى الابوة طويلة ، يجب ان تدفع الرجل فى حبها .. فى الارتباط بها والحرص عليها والدفاع عنها والتضحية من أجلها ..

ولأن المرأة شديدة القلق ، لا تعرف الامان .. لانها ضعيفة .. ولان فترات مرضها طويلة ، فلابد ان يكون فى حمايتها وصغارها ، من هو قوى قادر على العطاء وعلى ان يجدد عطاءه من أجلها وصغارها ايضا .. وكان لابد ايضا من أن تتأكد لها هذه العلاقة الضرورية .. فكانت قوانين الزواج التى تضعها الدولة والمجتمع والدين ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل الامومة قد عوقت المرأة ؟

نعم . ولكن الامومة هى مالا نهاية له من العطاء والحماية والحضانة والتربية من أجل استمرار الحياة .. حياة المرأة وحياة الرجل والمجتمع وبناء الحضارة ..

فالمرأة تنفرد بالأمومة .. اعظم وأروع شكل من أشكال الابداع .. انها الموهبة الفريدة التى تقدر عليها المرأة ولا يستطيعها الرجل ، انه أروع واعظم فارق بين الاثنين ..

ولكن التساؤل من حين الى حين عن : أيهما اعظم .. ايهما اقدر .. ايهما اكثر عطاء .. ايهما اعمق تضحية : المرأة أو الرجل ، هذا السؤال معناه ان المرأة لا تزال تحب ان تلعب دور « التضحية » وان الرجل هو المعتدى .. هو القاتل !

ولكن يجب ألا ننخدع بهذا الدور .. فالمرأة لا تكره أن تلعب هذا الدور .. وانما هى تحب ان تبدو الضحية .. الضعيفة .. المغلوبة على أمرها .. المثيرة للشفقة .. فإن حدث فإن المرأة تحب أن تنظر من وراء الدموع .. فالدموع لا تدل على انها بالغة الألم شديدة الحزن .. وإنما الدموع هى نشاط زائد فى غددها الدمعية .. غسيل لعينيها لترى أوضح وتنفذ أعمق .. فالمرأة تكون فى تمام قدرتها على الملاحظة وهى تبكى ..

ولكن الرجل اذا بكى انسدت الدنيا امامه .. قامت الدموع بدور الطوفان يقطع المواصلات ويهدم البيوت ويعطل الحياة كلها .. ولا كذلك دموع المرأة ..

والمرأة تحب أن تكون الضحية لمن يفترسها من الرجال الذين تحبهم .. ففى شعورها بالضعف أعظم متعة لها .. وفى شعور الرجل بأنه القوى الجبار الوحش الكاسر - أو الذى يقوم بهذا الدور ما يضاعف سعادتها ايضا ..

فهذا الظهور بالضعف أو التظاهر ، يقوى قدرتها التفاوضية ..

والرجال يضيقون بدموع المرأة .. لانهم لا يعرفون أن الدموع لا تعنى شيئا خطيرا . بل أن الدموع تؤكد لنا خطأ تربويا هاما . فنحن عندما كنا صغارا قيل لنا : الدموع للمرأة . والرجل لا يبكى !

وهو خطأ تربوى . فالمرأة لانها تبكى فإنها تفرج عن نفسها ، تخفف من توترها فالدموع صحة . والرجل لأنه لا يصح أن يبكى ، فإنه يضغط على نفسه ويكبت ويكتم .. وهذا الضغط يؤدى الى احتباس رغباته وغضبه وإضطرابه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقلقه .. ولذلك إذا بكت المرأة استراحت ، وإذا بكى الرجل مات .. وكثيرا ما رأينا الام التى تقول انه لا حياة لها بعد موت عزيز عليها .. تبكى وتصرخ وتلطم وتمزق ملابسها وتضع الطين على رأسها وتتمرغ فى الارض .. ثم لا شىء بعد ذلك . فكل هذا الذى فعلته ، هو تنويع لاشكال من التخفيف من الألم والتوتر النفسى والعضلى .. بينما الرجل يبكى جالسا ، ثم يسقط ميتا !

فالحزن يقتل الرجل ، ولكنه لا يقتل المرأة .. والعش والبيت من صنع الرجل للمرأة وأولادها ..

ولكن زراعة الارض من صنع المرأة .. فعندما أقامت فى البيت ، وغاب عنها الرجل فى الغابات ، راحت تقلم الاشجار .. ولما تعرضت الارض لاشعة الشمس ، قامت الشمس بتشقيق التربة ، ثم دفع الهواء بذور الاشجار الى الشقوق ، فكانت الزراعة التى طورها الرجل .

والرجل هو الذى اقام الاسوار واخترع الابواب والنوافذ والمفاتيح والاقفال والاسلاك الشائكة والاسلحة .. ثم من أجل بقاء البيت والام والاولاد ، كان الاتفاق على عدم الاعتداء والتعايش السلمى والسلام ..

★★★

وأساس هذه التساؤلات ذات المعنى الواحد ، وفى مناسبات متعددة : ان المرأة تشكو من ظلم الرجل . ولو أعطاها المساواة ، لكانت فى مثل قوته وعظمته .. ولكنه لم يفعل ..

ومعنى ذلك ايضا : ان المرأة غير راضية عن انوثتها .. وانها كانت تتمنى ان تكون رجلا ..

ولذلك ظهرت فى التاريخ « بنات الأمازون » وهن نساء قطعن أثداءهن حتى لا يرضعن طفلا ، واقمن فى جزيرة نائية بعيدا عن الرجال حتى لا يحملن .. أى حتى لا يضعفن ويلزمن البيت فى فترات الحمل والولادة والحضانة واشتغلن بالزراعة والصناعة والقتال ـ دون حاجة إلى ذل الرجل .. ودون استسلام لضعف الانثى !

ولم تستطع المرأة أن تقاوم طبيعتها طويلا .. فاستسلمت للرجل .. أو أن الرجل هو الذى أبطل عزلتها ، وأنهى مقاطعتها الشاذة لطبيعة الانسان ..

وفى كل مرة تستشعر المرأة الظلم الواقع عليها يتأكد عندها أن الرجل قوى يزداد قوة ، وان المرأة ضعيفة تزداد ضعفا . ويوم سارت النساء فى نيويورك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاريات الصدور تماما كان ذلك احتجاجا على انوثتها .. فإن كان الرجل يريد ان يرى ثدييها .. فهى تعرض النهدين ولا تشعر بأدنى حرج لانه هو الذى طلب اليها بإسم الاخلاق والدين والغيرة على ملكيته الخاصة ، أن تخفى المرأة صدرها وأن تشده بالسوتيان ليبدو رجراجا مستديرا .. فإذا كان هذا هو الذى يريد والذى يعجبه ، فالمرأة قد مزقت السوتيان وكشفت الصدر استخفافا بكل قيود الرجل ..

وبعض النساء سرن عاريات تماما .. أى أن المرأة لا يهمها ان تطيع الرجل وأن تخفى ما يريدها ان تخفيه ..

فهى فى حالة غضب وسخط وتمرد على أنوثتها ، وعلى مفهوم الانوثة الذى ابتدعه الرجل . وهى ثائرة على استسلامها التام لكل ما جاء فى قاموس الرجل ، قيدا حديديا وذهبا على سلوك المرأة !

يقول المؤرخ الكبير توينبى أن أعظم حدث فى تاريخ المرأة فى كل العصور هو يوم قررت من ثلاثين عاما أن ترفض اى أجر إضافى لكى تعمل فى يوم اجازتها - انها رفضت أى مبلغ من المال ، ثمنا لحريتها.. حريتها فى الا تذهب إلى المكتب أو المصنع .. وان تقول للرجل المدير وصاحب الشركة : لا .. للرجل وللفلوس التى يدفعها ثمنا لاستعبادها .. ثمنا لحريتها فى أن تتساوى بكل الرجال فى كل وقت ..

ويقول توينبى : وأعظم ما فى هذا القرار ايضا انها رفضت ان تذهب فى يوم اجازتها إلى أحضان رجل .. أى رجل .. انها تريد أن تكون حرة تماما من سلطة الرجل المدير والرجل الزوج والعاشق !

ولا تزال المرأة ترى ان حريتها فى أن تقول للرجل : لا .. حتى لو لم يكن لهذا الرفض أية نتيجة !

فهى قد قالت : نعم كثيرا وطويلا ، وجاء دورها فى أن تقول : لا ..

ولكن لا تستطيع ان تقول : لا .. دائما ، فالمجتمع من صنع الرجل . والقانون من صنع الرجل . والمثقفون من الرجال أكثر ويزدادون عددا وعتادا ..

ولذلك فالمرأة لابد أن تساير الرجل وأن تهادنه وأن تسير إلى جواره وان ترضى بأن يتفضل عليها بأن يدفعها امامه أو يجلسها بدلا منه .. ولذلك فالمرأة التى تعمل تستعير أساليب الرجل فى الحياة معه .. فهى تقصر شعرها وتتكلم بصوت عال وترتدى البنطلون والقميص .. وتجلس على طرف المقعد والمكتب ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتدخن .. وإذا تحدثت إلى الرجل فإنها تقترب منه ، بما يدل على أنها مثله تماما .. وانها لا تخاف منه إذا اقتربت أكثر .. ومن الممكن أن تشتبك معه .. فى الكلام وبالأيدى ايضا ـ لا خوف عندها . فهى تدخل عالم الرجال بشروط الرجال . وهذا الدخول والخروج جعل المرأة أقل قلقا وتوترا وخوفا .. ولكن هذا الاقتراب من الرجل لا يعطيها قدرته على الابداع والمغامرة والاقتحام فى كل المجالات ..

ولكن إذا كانت المرأة لم تتفوق على الرجل فى مجالات كثيرة ، فإن قدرتها على الصبر تضرب أرقاما قياسية .. فآلام الحمل والولادة لا يقوى عليها الرجل .. وفنون التمريض فى المستشفيات لا يقوى عليها الكثير من الرجال ايضا .

والمرأة اعتادت فى كل تاريخها ان تستند إلى أحد .. ان تعتمد عليه .. ان تتحايل على كتفى الرجل .. على أن يبنى العش وأن يحميه .. وهذا الاعتماد على الرجل يسعدها ويسعد الرجل أن يكون هذا قويا مسيطرا متسلطا سيدا ..

ولذلك فالرجل هو الذى تفوق فى كل فنون المرأة . أى فى كل الأعمال التى تقوم بها المرأة .. فهو أحسن الطهاة .. وأحسن مصممى الأزياء ومصففى الشعر وأحسن أطباء الولادة ..

يقول الاستاذ العقاد أيضا : ان المرأة تبكى طوال حياتها ألما وحزنا على فقيدها ، ولكن ليست من الأديبات والشاعرات من استطاعت ان تبلغ عظمة الرجال فى بكائهم وحزنهم .. رغم أن البكاء من أخص خصائصها .. فإذا ذكرنا ـ مثلا ـ الخنساء وهى ترثى أخاها ، لوجدنا ان المتنبى وابن الرومى والاعشى والبحترى قالوا ما هو أعظم وأعمق وأروع ..

ولو قرأنا كتاب « اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام » للمؤرخ السورى عمر رضا كحالة لوجدنا أكثر من ثلاثة آلاف شاعرة .. ولكن ليس بينهن « الشاعرة » التى تستوقفك وتجعلك تحاول حفظ بيت واحد مما قالت .. ولا واحدة .. بل لو حاولت ان تتذكر من شاعرات العرب خمسا فقط ، ما استطعت . لانهن « ناظمات » أية شاعرات متواضعات القيمة الفنية والجمالية والفلسفية !

أما الفيلسوف الألمانى شوبنهور وهو أستاذ العقاد فى كراهية المرأة واحتقار قدراتها ودورها فى التاريخ فهو يرى ان المرأة ليست هى أنثى الرجل .. وإنما أنثى الرجل قد انقرضت لاسباب غير واضحة لدينا .. وأن المرأة هى من سلالة حيوان قريب الشبه بالانسان .. وقد قفزت الى فراشه فى غياب نصفه الآخر ! ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبسرعة توافقت معه وتأقلمت وتكيفت .. ومن حين إلى حين تظهر المرأة على حقيقتها ، فإذا هى مختلفة عن الرجل فى كل شىء ـ فهى ليست أنثى الرجل ، وإنما هى تذكرنا بالانثى المفقودة .

ويرى شوبنهور ايضا . ان مشكلة المرأة هى انها تحاول اقناعنا بأنها النصف المفقود .. وهذه المحاولة هى مصدر تعاستها وشقاء الرجل أيضا .. تحاول ان تقنعنا بشتى الحيل والبدع والاكاذيب والمؤامرات ، انها النصف الضائع ، ونحاول ان ننسى ذلك ، ولكن لاننا لم نفلح فى العثور على نصفنا الضائع فإننا نرتضى « بدل الفاقد » ! !

ويقول شوبنهور أيضا : لولا هذه المعارك الداخلية التى عوقت مسيرة الرجل وآخر تطور المرأة فى اللحاق بالرجل ، لكانت الانسانية تقدمت اعظم وأعمق وأروع ولكنها المرأة البديلة لا تكف عن اقامة المعارض فى كل بيت . من أجل الاعتراف بها . فإن اعترف الرجل طالبته بأن يتعاقد معها ، واى تعاقد معها أن يشهد كل الناس على ذلك .. انها « تورط » الرجل بالحب .. والاولاد .. وإنها وحدها الضحية !

أى أن أعظم إنجازات الرجل هو التخلص من قيود المرأة ومشاكلها .. وهذا يؤكد حرية الرجل مرتين : مرة لانه استطاع ان يتخلص من كل مشاكل وعقبات المرأة البديلة ، ثم عندما يخلص من بعض ذلك ، حقق كل انجازات الحضارات الانسانية ؟ !

للكاتب الامريكى إيزال دينسن قصة جميلة موضوعها : أن راهبات فى أحد أديرة البرتغال يضعن ملاءات السرير البيضاء لأميرات الأسرة المالكة . يجب أن تكون الملاءة ناصعة البياض . فإذا سقطت عليها دماء العذرية ، ظهرت البقعة الدموية واضحة لكل عين . ففى « الصباحية » العروسين يعلقون الملاءات البيضاء من الشرفات ويجىء الاسقف الاكبر ويقول باللغة اللاتينية : Virginem. eam.. tenem ومعناها : أقرر أنها كانت عذراء ! ثم تعاد الملاءة الناصعة البيضاء الصارخة الدماء إلى المتحف لتكتب عليها الراهبات بالدهب اسم الاميرة دليلا على طهارة الأميرة وفضلها .. وتكون هذه الملاءة من مفاخر الأسرة المالكة ..

وعندما ذهبت الاميرات لمقابلة الراهبات للفرجة على هذه الصناعة وأهدافها النبيلة .. مادمت الراهبات تعرضن على الأميرات ملاءات جديدة البياض ـ دون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان تكون عليها بقع ولا مواد مشغولة بخيوط الذهب .. وبلا أسماء .. !
ونظرت الأميرات بعضهن إلى بعض فى حسرة .

اما حسرة على الاميرات اللائى لم يكن عذارى . وأما الحسرة على أنه كان فى استطاعتهن الا يتعذبن بالفضيلة وقيود الفضيلة !

أما معانى القصة فهى : ان الرجل فرض على الفتاة ان تكون عذراء إلى ليلة الدخلة .. وفرض على الراهبات ان يكن عذارى حتى الموت ..

الفتاة تحرص على عذريتها ، ولكن الرجل لا يحرص على طهارته .. أى أن الرجل يريد للفتاة التى سوف تكون زوجته ان تظل عذراء ، بينما يعتدى على فتيات آخريات .. على عذرية فتيات اخريات !

وهو الذى يفرض على الراهبة ان تظل دائما عذراء ..

فلا توجد قاعدة واحدة للفضيلة .. ولا توجد شروط واحدة للعذرية .. الرجل هو الذى يضع القواعد المتضاربة وهو الذى يفرضها بقوته ، ولا يهمه ما يصيب المرأة من قلق وحيرة وخوف . أنه اراد ، ولا اعتراض على إرادته .. فالمرأة مواطنة فى دولة المتناقضات التى إخترعها الرجل وأملاها بالقوة على المرأة !

★★★

تقول الأديبة الوجودية سيمون ديبوفوار فى كتابها « الجنس الثانى » انهم فى جنوب فرنسا يبعثون بقطعة من القماش عليها بقعة دم إلى أقاربهم فى أمريكا اللاتينية ـ يؤكدون أن ابنتهم ليلة دخلتها كانت عذراء ـ شرف ريفى ما بعده شرف .

وأن قطعة القماش هذه ليست إلا رسالة من رجال فرنسا إلى رجال أمريكا اللاتينية بأنهم لا يزالون يتمسكون بالفضيلة . وأن الفضيلة هى كمال المرأة ، وعظمة الرجل ..

وترى سيمون ديبوفوار ان هذه أعظم أكذوبة فى العلاقات بين رجل وامرأة .. الرجل فرض الفضيلة على المرأة ، ولكنه لم يفرضها على نفسه .. أن المرأة تحب أن تعيش كريمة شريفة .. يسعدها أن تكون للرجل الذى تحبه وتختاره أبا لأولادها حارسا سيدا لها بشرط أن يكون هو الآخر ملتزما بنفس القيود التى وضعها على حياة المرأة وأفكارها ..

ولكن الرجل لأنه الأقوى الأغنى الأكثر حرية ، يستخدم معيارين : أخلاقيات المرأة .. وأخلاقيات الرجل .. أخلاق العبيد وأخلاق السادة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولذلك فالرجل هو الذى فرض الحرب على المرأة .. وهو الذى اختار للحرب ميدانها فى البيت .. فى جسم المرأة .. هو الذى اختار الحرب ونوع السلاح

أما الفيلسوفة الألمانية الوجودية « حنا أرنت » فتقول : إن الاكاذيب متبادلة .. هو يكذب على المرأة ، وهى تكذب عليه أيضا ..

هو يقول : انها الجنس اللطيف ، وهى تقول : إنه الجنس العنيف .. هو يريد شعرها الحرير وهى تريد شعر شمشون المجعد .

فلا هى ضعيفة لطيفة ، ولا هو عنيف جبار .. ولكن يرضى المرأة ان تجعله يحب ضعفها .. فتعطيه المزيد مما يحب .. ويرضى غرور الرجل ان يقال له إنه قوى جبار فيزداد قوة أو يتظاهر بالعنف والقسوة والغيرة والموت فى سبيلها ..

وتقول السيدة حنا أرنت : تراشق الاكاذيب بين الجنسين هو الذى جعل الحرب سجالا بينهما .. ولولا هذه الحرب الضيقة النطاق ، ما كان للحياة معنى أو طعم .. ومن الحرب إلى وقف اطلاق النار ، إلى إطلاق النار ثم وقف القتال والمفاوضات والوساطات .. ووضع الأطفال فى المناطق المنزوعة السلاح والألغام بين الرجل والمرأة ، هى التى جعلت المرأة تستخذم أقوى اسلحتها لاستدراج الرجل إلى العش . وإستعانة الرجل بأقوى اسلحته هى التى جعلت المرأة تطارد الرجل .. فالشد والجذب هو الحياة فالحياة هى هذه الاكاذيب واختراع حقائق جديدة تتحول إلى أكاذيب تتحول إلى حقائق .. إلى غير نهاية !

★★★

ومن قال ان المرأة ليست عبقرية .. إنها كذلك .

لقد استطاعت ان تجعل وحشا كاسرا هو الرجل يقيم لنفسه مصنعا للقيود الذهبية والأقفاص الفضية .. ثم ادخلته هذا القفص الذى هو من صنعه واقنعته المرأة بأن هذا القفص هو أعظم قصور الملوك فى العالم .. وإنه صاحب التاج وإنه الملك .. ثم إنها استولت على كل أمواله .. فالمرأة هى أكبر قوة استهلاكية فى الدنيا ..

ثم من الذى أوهم الرجل واقنعه بأن المرأة التى تقف على باب القصر تتسول فضله وكرمه هى الضحية فى أوسع قفص .. إنه فى القفص .. يغوص فى أعماق المحيط ويعود مجنونا بالعزلة فى القفص .. ورغم حريتها فهى تفضل ان تكون سجينة على بابه .. ولكن غرور الرجل هو ان يكون وحده بعيدا عنها .. فى السجن .. فى القمة .. هذه الخدعة من صنع المرأة ايضا فأى عبقرية للرجل ؟ !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميكى ماوس والسلام العالمى !

يحتفل العالم بمرور ٦٥ عاما على ميلاد شخصية « ميكى ماوس » الذى اخترعه المنتج السينمائى الأمريكى والت ديزنى (١٩٠١ ـ ١٩٦٦) فأسعد به ألوف ملايين الأطفال .. فشخصية الفأر ميكى قد الهم الأطفال والآباء والمدرسين : ان الذكاء يغلب القوة .. وان القط مهما كان طويلا عريضا قادرا على ان يسحق الفأر الصغير بيديه .. فإن هذا الفأر بذكائه قد افلح دائما فى ان ينتصر على القط .. ألوف المرات والوف الحكايات .. وظهرت شخصيات كاريكاتورية كثيرة تصور هذا الصراع بين القوة الغاشمة وبين الذكاء والخيال والحيلة .. وانتصر الذكاء دائما !

وفى نفس الوقت تعمقت كراهية الأطفال للقوة .. وكراهية الانسان لكل من هو باطش لا يعرف الرحمة .. أو لأنه قوى فإنه يحتقر الضعيف والصغير .. و « ميكى ماوس » هو المواطن العالمى .. لأن ميكى ماوس يرضى غرور ملايين الناس الذى هم ضعفاء .. ويسعدهم ان يكون النصر حليفهم فى النهاية .. وان الانسان من الممكن أن يكون قويا جاهلا وان يكون قويا مضحكا .. وان قوته الحيوانية كارثة عليه .. وفى نفس الوقت من الممكن ان يصل الانسان بذكائه وصبره وايمانه بنفسه الى ما لم يبلغه الأقوياء .. أقوياء العضلات وأقوياء المال والمركز ..

ونحن نعيش فى عصر « الانسان الصغير » .. أى فى عصر الجماهير .. رجل الشارع .. الناس الضعفاء إذا وقفوا فرادى ، والأقوياء إذا وقفوا معا .. ولذلك فمئات الملايين من « ميكى ماوس » قادرون على كتابة التاريخ وتسييره حسب هواهم ..

★ ★ ★

ولذلك فميكى ماوس كان تعبيرا صادقا عن قوة العقل التى هى أعظم من صلابة العضلات !

وهذه القصة لها اصل تاريخى دينى قديم ..

ففى « التوراة » وفى « القرآن الكريم » أيضا قصة انتصار الفتى داود النبى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والملك على والعملاق الجبار جليات .. والمعركة التاريخية التى كانت بينهما .. والتى انتهت لصالح الفتى الصغير الذكى ، وانهزم العملاق المدرع بالحديد والنحاس ..

ففى سفر صموئيل الأول الاصحاح ١٧ : « .. فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات .. طوله ست اذرع وشبر . وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابسا درعا حرشفيا .. فوقف ونادى صفوف اسرائيل لهم : لماذا لا تخرجون لتصطفوا للحرب .. اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل الى . فإن قدر ان يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيدا . وان قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون انتم لنا عبيدا وتخدموننا ..

« فقال شاول لداود لا تستطيع أن تذهب الى هذا الفلسطينى لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب » .

« فقال داود : كان عبدك يرعى غنما فجاء اسد ودب وأخذ شاة من القطيع . فخرجت وراءه وقتلته .. وانقذتها من فمه . ولما قام على امسكته وضربته فقتلته .. الرب الذى انقذنى من الأسد والدب ينقذنى من هذا الفلسطينى .

« فقال شاول : اذهب فليكن الرب معك » .

« وألبس شاول داود ثيابه وجعل خوذة من نحاس على رأسه والبسه درعا . وتقلد داود سيفه فوق ثيابه وعزم ان يمشى لانه لم يكن قد جرب ..

« فقال داود : لا اقدر ان امشى بهذه لانى لم اجربها .

« ونزعها داود عنه .. واخذ عصاه بيده وخمسة حجارة من الوادى ومقلاعا فى يده وتقدم نحو الفلسطينى .. ولما رأى الفلسطينى داود استحقره لانه كان غلاما » .

« قال الفلسطينى لدواد : وهل انا كلب حتى انك تأتى إلى بعصا »

« ولعن الفلسطينى دواد وآلهته .. وقال لداود : الى فأعطنى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية » .

« قال داود : انت تأتى الى بالسيف ودرع وترس . وانا أتى اليك باسم رب الجنود اله صفوف اسرائيل .. هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك واقطع رأسك . واعطى جثث جيش الفلسطينيين لطيور السماء وحيوانات الأرض .

« ومد يده واخذ حجرا وضعه فى المقلاع وضرب الفلسطينى فى جبهته فسقط على وجهه على الأرض . وضرب الفلسطينى وقتله وقطع رأسه . فلما رأى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلسطينيون ان جبارهم قد مات ، هربوا .

الصورة التى امامنا : ان جليات كان قد تذرع بالحديد والنحاس .. طويل .. عريض .. مخيف .. فخرج اليه شاب صغير .. نظر اليه فوجد جبهته عارية .. فأطلق حجرا على رأسه فسقط القوى الجبار .. وداود هو الملك النبى عليه السلام .

وفى التراث اليهودى ان داود هذا كان راعيا للأغنام .. وان اباه كان يراه اقل جمالا ووسامة من اخوته ..

وفى التراث اليهودى ان داود عندما راح يجمع الاحجار من الوادى ، كانت الاحجار هى التى تقفز الى يده .. كأنها تعرف الهدف من اختيارها .. أو انها تتسابق لتنال شرف القضاء على الجبروت والقوة العمياء .

وكان داود عاقلا حكيما وكان محبا للحياة أيضا . وكان شاعرا يرتل المزامير .. سفر « المزامير » فى التوراة هو من تأليف نبى الله داود ..

فهو قد جمع كل ما فى الدنيا : الملك والنبوة وحب الحياة والخوف من الآخرة .. السيف والقلم والفصاحة والبلاغة وجمال الصوت ..

« واذكر عبدنا داود ، ذا الايد ، انه أواب . انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق . والطير محشورة ، كل له أوّاب وشددنا ملكه واتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين .. »

« وعلمناه صنعة لبوس لكم ، لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون » .

« وأتينا داود منا فضلا : يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . »

القرآن الكريم يصوره هكذا قويا والجبال والطيور كلها تصلى معه لله .. وكانت له صناعة .. وكانت له قدرة على ان يجعل الحديد يلين يصنع منه الدروع ..

المؤرخ الاسلامى أبو جعفر الطبرى قال لنا : ان داود إذا رتل المزامير فان الطيور والحيوانات تتساقط من النشوة فى الكلام . وكانت الطيور والوحوش فى الغناء وراءه حتى تموت جوعا .

وقال ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسمع ابا موسى الاشعرى يرتل القرآن لقد أوتى ابو موسى مزامير داود .. يحكى لنا القرآن الكريم قصة داود وجالوت ـ القرآن الكريم يسميه جالوت : ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .
فهزموهم بإذن الله وقتل دادو جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء .. »

ان من عادة داود الملك ان يتعبد يوما ويمكث بين الناس يوما وان يجلس لنسائه قال ان داود طلب من الله سبحانه ان يعطيه ما اعطى الانبياء قبله . فقال له ان الله ابتلاهم جميعا . ابتلى ابراهيم بذبح ابنه ، وابتلى اسحق ، وابتلى يعقوب بالحزن على ابنه ، وابتلى ايوب بالمرض والفقر . وطلب داود ان يبتليه الله وان يعطيه قوة .. فقيل له : ولكنك مبتلى !

اما بلاء داود فحب الجمال .. جمال الانسان وجمال الكلام والغناء ..

وفى يوم رأى داود حمامة من ذهب فمد يده اليها فهربت منه .. فسار يطاردها حتى وقفت على سطح بيت .. وكانت على السطح امرأة جميلة . نفذت الى قلبه وعرف ان زوجها واحد من جنوده فأرسله بعيدا بعيدا حتى مات .. وتزوجها وكانت أم الملك النبى سليمان عليه السلام . وكانت لداود تسع وتسعون زوجة .

وفى يوم عبادته وصلاته فوجىء برجلين دخلا عليه . وادهشه ذلك ففى مثل ذلك اليوم لا يلقى احدا . وقالا له انهما جاءا يحتكمان فى امر خطير .

احدهما قال : اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة وهو يريد ان يستولى على نعجتى لتكون له مائة نعجة .

فسأله داود : يريدها دون رغبتك ؟

قال : نعم .

قال داود : اذن هذا ظلم وسوف اضربه حتى أحطم عنقه .

قال له : ولكنك لا تستطيع لانك يجب ان تضرب عنقك اولا .. فأنت اخذت زوجة رجل أنت قتلته ؟

وعرف داود هذا البلاء .. وسقط ساجدا يطلب المغفرة من الله .. ومن يومها حتى مات ، لم يرفع رأسه الى السماء ، خجلا من الله !

والقرآن الكريم يقول : « وهل اتاك نبأ الخصم اذا تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . ان هذا أخى له تسع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة . فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه . وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب . فغفرنا له ذلك . وان له عندنا لزلفى وحسن مآب يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . » .

ويقال فى التراث اليهودى فى كتاب « الاجادا » ان الحجرة التى صوبها داود الى جبهة جالوت قد سددتها الملائكة .. فهى حجرة موجهة !

يقول الله تعالى فى هذا المعنى « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » .

أما أروع ما فى هذه القصة ان داود استخدم « المقلاع » والمقلاع هو بالضبط ما نعرفه اليوم باسم الصواريخ التى تحمل الاقمار الصناعية الى ما حول الارض .. فالصواريخ حاملة الاقمار .. تندفع وتدور بقوة حول الارض ليكتسب القمر قوة فى اندفاعة اكبر واكبر وبعد ذلك يوجهونه الى الكواكب الاخرى ..

و « المقلاع » هو ذلك الحبل الذى نضع فيه حجرا . ونلفه حولنا مرة بعد مرة ، فيكتسب المزيد من القوة حتى اذا اطلقنا سراح الحجر اندفع الى هدفه بعنف ..

الصراع بين داود وجالوت هو جوهر الصراع فى العالم كله : القوة الغاشمة التى نريد ان نطوعها ان نرشدها .. ان نعقلها .. ان نربطها .. ان نتقى شرها ..

فكلما اخترع الانسان سلاحا ، اخترع سلاحا مضادا له .. فكلما ظهر جالوت حاولنا ان نجد سلاحا اخر يقوم بدور داود ..

فالاسلحة الهجومية : جالوت .. والاسلحة الدفاعية : داود ..

فلنفرض مثلا أن صاروخا عابرا للقارات انطلق نحونا وفى مقدمته رأس نووى .. واتجه إلينا . وهذا الصاروخ لأنه قادم من مكان بعيد لابد أن يكون كبيرا قويا قادرا على أن يجتاز المسافات الطويلة ويقاوم جاذبية الأرض واحتكاك الهواء ..

وبسرعة نطلق عليه نحن قذيفة صغيرة لها رأس نووى .. هذه القذيفة بها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلسكوب وبها عقول الكترونية .. التلسكوب يرصد الصاروخ .. والعقول الالكترونية تحسب سرعته واتجاهه وموقعه .. وبسرعة جدا يتحدد مسار القذيفة الصغيرة لترتطم به وتنفجر ويتحول الاثنان الى تراب ذرى !

وإذا حدث فهو كارثة على الجميع . وهى نقطة تحول فى صناعة الاسلحة . لأن جوليات عابر القارات قد تصدى له داود الصغير وفتك به ! والمعنى أن داود الصغير قد انتصر على جالوت الكبير ..

ولكن من الممكن أن ينتصر جالوت أيضا ، إذا هو استخذم الأجهزة المضادة للعقول الالكترونية وقرون الاستشعار التى استخدمها داود !

بل ومن الممكن أن يكون داود نفسه عبئا على الدول التى تنتجه واذا اضافت إليه الكثير من العقول الالكترونية وغيرها من أجهزة الانذار والرصد المعقد .. فيكون فادح الثمن ويكون أكبر حجما . فى هذه الحالة تكون خسارة داود مخيفة . ويكون ثقيلا على ميزانية الدول الغنية القوية ..

فقط إذا كان داود رخيصا ، هنا تكون مصيبة جالوت لاحد لها !

ومن الممكن أن تنتقل المعركة بين داود وجالوت إلى البحر .. فيكون جالوت سفينة حربية ضخمة أو حاملة طائرات جبارة . ويكون داود غواصة ذرية . والامريكان والروس يتنافسون اليوم فى بقاء الغواصة أطول مدة ممكنة تحت الماء .. بعيدة عن العيون الالكترونية وكاميرات اقمار التجسس .. والغواصة الواحدة من هذا النوع تتكلف ألف مليون دولار . بسبب الأجهزة الهائلة المعقد التى تحملها والتى تجعلها قادرة على البقاء تحت الماء شهورا طويلة ..

فما الذى يمكن أن يفعله داود فى مواجهة هذا الجالوت الذرى .. إنه فى حاج إلى جهاز صغير . هذا الجهاز يجب أن يلتصق بالغواصة المعادية . ومن جس الغواصة يذيع المعلومات الخطيرة عن قوة محركاتها وحجمها ومكانها ع الأرض وفى الماء ثم يحدد للغواصات أو الطائرات الطريق إلى ضربها

وهذه الحيلة عمرها ثلاثة آلاف سنة استخدمها السكان الاصليو لاستراليا . فقد كانوا يصيدون السلحفاة المائية عن طريق نوع من السم أسمه « السمك المصاص » يطلقونها على السلاحف فتلتصق ببطنها وتظل تمتص دمها .. وتتركها تنزف حتى تموت .. وحينئذ ينتزعون السمك المصاص ويطلقو على سلحفاة أخرى وهكذا .. ويطلقون السمك المصاص أيضا على سد القرش .. والنتيجة فى كل الأحوال مهلكة .. فسمك القرش لا يكاد يشم رائ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدم حتى ينطلق إلى السلاحف . وهنا يهجم عليه السمك المصاص .

ولكن استخدام داود لمثل هذه الاسماك الالكترونية التى تلتصق بغواصات جالوت الذرية أمر صعب .. بل مستحيل .. فلو اكتشف الروس أن الامريكان قد الصقوا مثل هذه الأجهزة بغواصاتهم ، كان ذلك عملا عدوانيا مباشرا .. ربما أدى إلى الحرب !

★★★

ولقد رأينا فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ما فعله داود المصرى والسورى ضد جالوت الاسرائيلى . اسرائيل عندها دبابات امريكية حديثة . والمصريون والسوريون عندهم صواريخ موجهة . هذه الصواريخ كانت تفتك بالدبابات . لأن الصبواريخ دقيقة التوجيه . وقد أدى استخدام هذه الصواريخ الى انقلاب فى موازين القوى .. فلم يعد ممكنا منذ حرب أكتوبر الاعتماد على الدبابات فى كسب المعارك ـ كما فعل روبيل فى الحرب العالمية الثانية !

فهذه الصواريخ التى استخدمها المصريون والسوريون قد أهلكت الدبابات .. وهذه الصواريخ تحتاج فقط الى شجاعة الجنود ..

وإذا كانت هذه الدبابات تستطيع أن تواجه مثل هذه الصواريخ اذا رافقتها صواريخ موجهة .. واذا ساندتها قوات برية بارعة التدريب !

وهذه الصواريخ صغيرة ورخيصة بينما الدبابات غالية الثمن ..

والصاروخ هنا : داود ..

الدبابات : جالوت ..

ولأن هذه الصواريخ لم تظهر فى الحرب العالمية الثانية استطاعت الدبابات الالمانية وقوات صغيرة سنة ١٩٤٠ ، ان تسحق القوات الفرنسية الأكثر عددا !

★★★

واستخدام العقول الالكترونية وقرون الاستشعار والليزر ، جعل الحرب معركة معلومات .. فهذه العقول الالكترونية تعرف مكان وسرعة وحجم القوات المعادية ..

وبسرعة تطلق عليها القذائف الموجهة بمنتهى الدقة ..

والذى يستطيع ان يحصل على المعلومات أسرع وأصدق ، هو القادر على دقة التصويب والاصابة والدمار ، والانتصار فى النهاية ..

فالحرب لم تعد حرب قوة ، وانما هى حرب معلومات ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يعد جالوت صاحب المدرعات قادرا على النصر ، وانما داود صاحب العقل الالكترونى ..

ولذلك رأينا السفن الحربية الضخمة تغرقها زوارق الطوربيد حاملة الصواريخ الموجهة الكترونيا !

وهكذا صارت الطائرات والدبابات ضحية سهلة للصواريخ الموجهة ..

إنها قوة المعلومات وليست قوة النيران ..

والذى يدافع أحسن حالا من الذى يهاجم .. فالمدافع واقف على أرضه وحوله كل العقول وقرون الاستشعار والتصنت ، بينما المهاجم قد عرض نفسه واسلحته للعقول التى ترصده وتحدد مساره وهدفه وقدرته .

وبريطانيا فى الحرب العالمية الثانية افلتت من قنابل وصواريخ هتلر بسبب محطات الرادار على كل شواطئها .. فالانجليز اخترعوا الرادار فى ذلك الوقت .. وكان بدائيا ولكن هذه الأجهزة الرادارية كانت تنقل إليهم معلومات سريعة عن الغارات الالمانية ، هى التى أعدتهم وحشدتهم لمقابلتها ..

الرادار هو داود ..

والصواريخ الالمانية هى : جالوت .. واستطاعت الارجنتين فى حرب جزر فوكلاند سنة ١٩٨٢ توجيه الاساطيل البريطانية وان تغرق عددا كبيرا من السفن .. فقد كان لدى الارجنتين سلاح طيران صغير ولكن فى غاية الكفاءة .. ثم أن الأرجنتين استخدمت الصواريخ الفرنسية « اكزوسيه » المهلكة .. هذه الصواريخ كانت تنطلق على سطح الماء .. وكان الماء تحتها يكسبها سرعة وتصويبا أدق .. ولم يحدث ان طاش صاروخ واحد بسبب العقول الالكترونية والكاميرات فى مقدمته ..

والطيران والصواريخ الارجنتنية هى : داود .

واساطيل بريطانيا القوية الجبارة هى : جالوت ..

فكأننا قد عدنا الى ما كان عليه العالم فى القرن الثامن عشر .. عندما كانت الجيوش الصغيرة المحترفة المدربة تستطيع ان تواجه الجيوش الكبرى .. وفى كثير من الاحيان ، كان الصغير المدرب تدريبا جيدا ، ينتصر على القوى الغاشمة .. حدث عندنا أيام عرابى بقواته التى أمضت الليل كله فى الذكر والدعاء على الانجليز ، حتى سقطوا من الاعياء فلما كان الصباح داهمتهم القوات البريطانية المدربة الواعية !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندنا مشكلة الآن :

فجالوت الغاشم القوى ، لم يعد له وجود الآن ..

وداود العاقل الذكى لم يعد له وجود أيضا .. فكل الدول تحاول أن تجعل من جالوت وداود شخصا واحداً : قوة واعية .. صواريخ واعية .. وغواصات عاقلة ..

وكلما اخترع الروس قنبلة اخترع الامريكان واحدة أقوى .. وكلما اهتدى الامريكان الى عقل يمشى تحت الماء ، اطلق الروس عقلا يدور حول الأرض .. فاخترع الامريكان عقولا تدور حول الأرض وحول الكواكب .

وهذا هو الذى يسمى : تعادل قوى الرعب ..

أى أن يتعادل الامريكان والروس فى قدراتهم على الحرب وعلى صد الحرب وعلى ردع المعتدى .. وفى ظل التعادل فى قوى الرعب لا يفكر أحد من الطرفين فى أن يبدأ حربا .. فكل المعلومات متاحة عند الجميع وضد الجميع .. وإذا بدأ واحد حربا فالنهاية معروفة : الدمار شامل للذين حاربوا والذين لم يحاربوا ..

فما الذى يمنع الدمار الشامل ؟ ما الذى يحول بيننا وبين الخراب النهائى للعقل الانسانى ولكل ما ابدعه العقل !

ان داود كان ذكيا قويا ، ولكنه كان نبيا أيضا .. أى أن قوته واعية . مربوطة ومحدودة بمبادىء الخير والحب والسلام من الناس . فكأن هذا الملك العظيم والقوة الهائلة اذا انطلقت دون رابط ، خربت دنيا .. ولذلك عززها الله وانار لها النبوة ..

ولم يعد فى زماننا انبياء ..

ولذلك فنحن نحلم بأن يكون القوى ـ جالوت ـ على خلق وعلى دين .. أو محب حياة والسلام ..

فالقوة بغير حب : متوحشة ..

والحب بغير قوة : هوان ..

ومن مئات السنين والملوك يحملون بأن يكونوا فلاسفة ..

والفلاسفة يحلمون بأن يكونوا ملوكا ..

وبذلك يلتقى العقل والقوة ..

فالقوة بغير عقل : غاشمة ..

والعقل بغير قوة : ذليل ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويوم كان الاسكندر يفتح الأرض كان الى جواره استاذه الفيلسوف ارسطو .. والفيلسوف افلاطون حاول أن يطبق فلسفته عن العدل والحرية والمساواة فى احدى الجزر فلم يستطع .. فهو الفيلسوف الذى لم يقدر أن يكون ملكا ..

وما أكثر الملوك الذين ادعوا الفلسفة أو عجزوا عنها !

★★

★★

ولكن شيئا واحدا ينقذنا الآن بعد ان صار كل جالوت داود ، وكل داود جالوت أيضا ..

انه الأمل .. الأمل فى أن يتلفت الانسان وراءه الى تاريخه فيرى العنف والقهر واذلال الانسان للانسان .. وان يتطلع امامه فيرى داود وجالوت رأسين فى جسد واحد .. يد تحمل قنبلة واليد الأخرى تحمل كتابا .. وليس حلا لمشكلة الانسان ان نتبادل اليدان القنبلة والكتاب .. ولكن الحل هو : ان ننزع القنبلة وان نفتح الكتاب ..

ولا توجد إلا قوة واحدة قادرة على ذلك : الدين .. أن يتطلع الناس إلى قلوبهم . وإلى ربهم .. وإلى أنهم جاءوا ليعيشوا وان تكون عيشتهم شريفة نبيلة . وان يعيشوا فى سلام مع النفس والناس ومع الله .. وان نؤكد لأنفسنا كل يوم أن القنابل لا يخرج منها صوت المؤذن ، وان كتاب الله لا يتطاير منه الشظايا ..

وإن لم يستطع هذا الجبل ، فنرجو من الله ان ينجح الجيل القادم .. واجيال من بعدهم . ومادامت هناك حياة ، هناك أمل .. ومادام هناك أمل نزع جالوت درعه وركع على ركبتيه ليكون فى مستوى داود .. يراه فى عينيه .. ويبتسم .. ويلقى داود بأحجاره .. ويتعانق الاثنان فداء لجيوش وراءهما استعدت للموت .. بلا قضية !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يظهر بيننا ذلك الشاب الأخضر

اللهم احمنا من هذا الجيل ، أما الذى يليه ، فلن يهمه كثيرا كل ما قلناه عن اجدادنا وأولادنا وعنهم !

لن يغفر لنا التاريخ أن الأحداث الكبرى مرت بنا واكتسحتنا ولم نقل شيئا مفيدا . فلا استوقفتنا الأحداث . ولا سجلناها ولا درسناها ولا حللناها .. ولا خرجنا منها بالموعظة الحسنة . ولا أشرنا الى من الذى ارتكبها . لا شيء من كل ذلك !

ما الذى قلناه عن الهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ ؟ ما الذى قلناه عن هزيمة اليمن ؟

ما الذى سجلناه عن الوحدة وعن النضال كيف كان هذا وكيف تأتى ذلك .. وأين الناس من هذا القرار والفرار من القرار ؟ ! وماذا كان النصر العسكرى .. كيف ولماذا ؟ وأى أثر تركه فى الناس .. وهل استطاع النصر ان يمحو أثر الهزيمة .. أو هل بقيت الهزيمة مثل ذراع مقطوعة فى جسد صحيح .. هل بقيت الهزيمة قلبا موجوعا فى جسد منهار .. هل أدى النصر الى استقامة الظهر وانكسار القلب .. وفتح القناة مرة أخرى .. والانفتاح الاقتصادى والسياسى والنفسى .. والانغلاق العربى .. أى فتح الأبواب لكل الناس إلا فى وجه العرب .. ثم اعادة فتح الأبواب والنوافذ والسراديب المظلمة والميادين المضيئة والفنادق والمطاعم لكل العرب .. كأن شيئا من الخلاف لم يكن ، وكأن قطيعة لم تفصل بين الأشقاء .. كيف قاطعونا كيف عادوا ؟ هل الحكومات هى التى قطعت ، والشعوب لم تفعل . هل الشعوب عادت والحكومات لم تعد .. هل هو ضغط شعبى ؟ هل هو ضغط رسمى ؟

أن أحدا لا يدرى بالضبط ما الذى جرى ، وما الذى لم يجر بين العواصم ؟ . أو هل نحن العرب كذلك .. بغير سبب نذهب ، ولغير سبب نعود .. ؟ اذن فمن المنتظر ان تنسحب الأيدى التى امتدت ، وان ينكمش الناس الذين جاءوا وان تعود الى الهمس ومنع اللمس .. ممكن ؟ نعم ممكن وقد امكن كثيرا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشيء غير ذلك حدث فى امريكا بعد هزيمتهم فى فيتنام .. وقبل ذلك بعد هزيمة امريكا فى معركة بيرل هاربور عندما سحق اليابانيون اسطولهم البحرى .. وبعد سحقهم لليابان بالقنابل الذرية فى هيروشيما ونجاساكى ـ فعلى الرغم من أن امريكا هى التى انتصرت فقد شعر الأمريكان بالفزع والرعب . لأنهم ارتكبوا جريمة كبرى حطمت مثلهم العليا التى هاجر أجدادهم من أجلها . فقد هاجر الأوروبيون الى أمريكا : بلد التسامح والرحمة والثراء والحرية والامان .. هكذا تقول القصيدة التى نظمتها الشاعرة اليهودية أما لازاروس على قاعدة تمثال الحرية فى ميناء نيويورك فأين الرحمة والحرية بعد الذى حدث فى هيروشيما ؟ !

كانت صدمة مخيفة للشعب الأمريكى .. كأن اليابانيين هم الذين القوا القنابل على أمريكا .. كأن انقلابا عسكريا مدنيا أخلاقيا نفسيا قد حدث فى امريكا فإذا الشعب غير الشعب .. وإذا تمثال الحرية قد اخرج لسانه .. الف لسان .. لكل الشعوب المضطهدة والتى لجأت الى امريكا تقول لهم : لقد ضحكنا عليكم .. فأنتم اليوم رهائن حرب !

والمانيا بعد الحرب العالمية الثانية كانت اسبق الشعوب الأوروبية لمحاسبة نفسها عن الذى حدث .. لقد أيقن الألمان ان هتلر وجيوشه وطموحه قد كلفها الكثير جدا .. عشرة ملايين قتيل وعشرة ملايين مشوه وملايين البيوت والمصانع والمعامل التى سويت بالأرض .. فقد انقضت عليها القنابل من روسيا وامريكا وبريطانيا وفرنسا .. وأصبح الشعب الألمانى كله أسيرا ذليلا . وانفتحت على المانيا السينما الأمريكية والتليفزيون تصور المواطن الألمانى العادى عل أنه مجرم بطبعه .. وحش .. مصاص دماء . ضعيف مجنون بالعظمة وفى استطاعة أى قائد أن يضربه ويعذبه ويحتقره ان يفعل به ما يشاء بشرط ان يكون كل شيء منظما . فالقتل يجب ان يكون منظما والموت ابديا . والاغتيال جغرافيا .. فكل زعيم يطلب من الألمان ان يقفوا طوابير . هذا الزعيم هو وحده الذى يقدر على ابادتهم وابادة الدنيا كلها بأيديهم !

ولكن بسرعة انتظمت المانيا . ظهرت المصانع من تحت الأرض وبسرعة انبتت أرض العبقريات مئات العباقرة فى كل علم وفن . وبسرعة فائقة وقف الألمان يبنون بنظام كل ما انهدم بلا نظام !

زرت المانيا سنة ١٩٥٠ ورأيت الخراب والدمار والجوع والدعارة والبطالة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كنت اقف فى شارع الملك فى مدينة دوسلدورف فأرى أوله وآخره .. وكنت إذا اخرجت علبة السجائر خرجت من تحت الانقاض شقراوات لهن عيون جميلة تتسول .. وإذا اخرجت الشيكولاته امتدت لها أيدى الأطفال ، ولم تكن أم واحدة تنهر الا يفعل .. وإذا دخلت أحد المطاعم وجدت الألمان يجمعون بقاياهم فى ورقة ليأكلوها فى بيوتهم ..

وعندما وقفت خطيبا فى اتحاد مستوردى الأرز فى مدينة هامبورج . وقلت اننى تخصصت فى الفلسفة الألمانية وامضيت عمرى كله اتمرغ فى كتب الفلاسفة الألمان والشعراء والموسيقيين .. وان دماء المانية فرنسية تجرى فى عروقى عن طريق أمى .. ثم ختمت كلمتى بقولى : ان الذى أراه فى ألمانيا هو معجزة لا يقدر عليها إلا شعب عظيم . والألمان شعب عظيم !

وفتحت أذنى للتصفيق أو كلمة شكر من أى أحد .. ولكن رجلا ضخما دق المنضدة بيده غاضبا ثائرا يقول : ان السيد القادم من مصر اهان الشعب الألمانى كله وهذا مالم يفعله أعدى اعداء المانيا ثم يقول لنا انه المانى العقل والقلب والدم .. يا سيدى لم تكن هناك معجزة .. المعجزة معناها ان السماء ساعدتنا .. السماء اسقطت علينا ملايين .. الموت جاءنا من السماء .. اننا نحن حققنا المعجزة .. بعقولنا وايدينا .. ليكن معلوما لديك .. أننى حملت أمى على ظهرى مائة كيلو متر .. وان المنديل الذى امسح به دموع أمى وعرقى هو نفس المنديل الذى كنت امسح فيه انفى .. هذه هى الحقيقة !

إذن لابد ان اعتذر عن استخدامك لكلمة المعجزة .. فانما قصدت ان الذى حدث كأنه معجزة .. شىء خارق .. أى لطبيعة الانسان الذى دمرته الحرب ، وحطمت كبرياءه وبددت خياله .. وفتحت له الأرض مقابر ومخابىء هذا الانسان ولكنه ـ هذا الانسان ـ أصر ان يفجر الحياة من كل أرض وان يملأ بالزهور كل شجرة ، وان يضىء بالعبقرية كل مصنع ومعمل .

وبسرعة نهض الرجل الألمانى يقول : ان كان هذا هو قصدك فأسف على الذى قلت !

وسمعت منه انهم ادخلوا العصا فى المدارس ومعاهد التدريب الملحقة بالمصانع ، فقد لاحظ الألمان ان الجيل الجديد معجب بالأمريكان معجب بالمنتصر الذى مسح بهم الأرض .. يتكلمون بصوت مرتفع وهم يرتدون الجينز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهم يمضغون اللبان .. وهم يرقصون فى صمت ، وهم يدخنون .. وهم يحطمون الزجاجات عند الشراب .. وهم يعيشون على الاحلام الأمريكية ويعلقون صور جيمس دين ـ ذلك النموذج للشباب الصغير الضعيف المغلوب على امره والذى يثير عطف البنات والأمهات !

وظلت هذه حال الشباب الألمانى فى الخمسينات والستينات .

وبسبب النقد للألمان والاذلال الأمريكى لهم ، ظهرت المقاومة الشابة فى ألمانيا .. المقاومة للأمريكان .. وللقوات الأمريكية والقواعد العسكرية ، والمفاعلات النووية .. وتحطيم الأمريكان للغابات والأشجار .. واقامة المطارات ورصف الشوارع .. ومهاجمة ألمانيا نفسها التى عادت دولة صناعية رأسمالية كبرى .. فقد وجهت المانيا كل جهودها وملايين ملاييها الى الصناعة والاستهلاك حتى أصبحت اقوى وأغنى دولة صناعية فى العالم كله .. وأعفتها أمريكا من ان يكون لها جيش .. فلا شىء يبدد ثروات الشعوب مثل الجيوش فالأسلحة مثل فساتين السيدات لها موضات تتغير من عام الى عام . فكلما ظهر له سلاح مضاد وسلاح مضاد للمضاد .. وهكذا الى آخر مليون فى ميزانية الأمن الغذائى ..

وظهرت مسيرات السلام المعادية للأسلحة النووية وللوجود الأمريكى . ظهرت جماعات « الخضر » الذين ينادون بحماية البيئة بالتوقف عن تبوير الأرض وتجريف التربة .. واقامة المصانع بأبخرتها وأدخنتها السامة فى كل الضواحى .. وابخرة وأدخنة المصانع الألمانية تذهب مع الريح فتنزل امطارا حامضية فى السويد والنرويج وبريطانيا وفى كندا أيضا فتهلك الغابات والحقول والحدائق .

أما عادم ملايين السيارات فهو المسئول عن التهابات الرئة وضعف النظر وتسميم الخضراوات والألبان واللحوم والقضاء على الأسماك والطيور اصدقاء الفلاح ..

وفى كثير من الدول الأوروبية ظهرت جماعات شابة : الشاب الغاضب فى بريطانيا والشاب الساخط فى امريكا .. وظهر الهيبيون والأحجار المتحركة .. وكل هذه الجماعات تؤكد اعتراضها على النظام القائم .. على الادارة على الوقوف فى الطابور .. على الترتيب الطبقى والمهنى للناس وعلى التقاليد واخلاقيات القرن الماضى والقرون السابقة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يعد الشباب يحب ان يقف طابورا ، واحدا وراء واحد .. فهم جميعا سواء وكل واحد منهم طليعة ولذلك وقفوا صفا واحدا لا بالطول ولكن بالعرض .. فهم جميعا متساوون فى الأهمية والمسئولية والخطورة وكلهم حريص على ان يكون ظاهره بارزا ولذلك احبوا اللون الأبيض والجدران البيضاء والليالى البيضاء .. انتهى عصر سحب الدخان الأزرق ومن كل لون .. وكان لابد من الظهور على المسارح بالقاء القصص والقصائد .. فليس عند الشباب ما يخيفه ولا ما يخفيه ولذلك فعليهم جميعا ان يظهروا ويتظاهروا .

انتهى عصر الرثاء والبكاء عليها .. فلم نعد نقرأ فى السبعينات عبارة « الجيل الضائع » أى هذا الجيل الذى اضاعه الجيل السابق أى الذى اضعناه نحن .

وبدأوا يرددون انهم الجيل الذى ضاع بعض الوقت ليجد نفسه .. اضعناه ليهتدى الى نفسه وبذلك يعرف فداحة الجريمة التى ارتكبناها نحن .. وهو الجيل الضحية ولكن من المدهش ان هذه الضحية لا تبكى على ما أصابها ولا تطلب العفو من القاتل ولا تطلب الانتقام منه : غلطة جيل فى حق جيل دفاعا عن جيل مضحيا بجيل ولكن جيلنا لم يستطع ان يقضى تماما على هذا الجيل ولا ان يسويه بالأرض طريقا لنا واطالة فى أعمارنا ، حتى تجاوزنا أعمارنا الافتراضية .. لا شىء من ذلك فلا وقت للبكاء على الماضى ولا رفض للحاضر ولكن استئناف للحياة بأسلوب آخر ..

وكانت البداية الصحيحة فى المانيا أيضا فالجيل الجديد وجد له نظرية : تفسير منطقى واضح ومقنع لكل ما جرى وسوف يجرى فى المستقبل والنظرية تتمشى تماما مع طبيعة الجيل الجديد .. الوضوح والانتظام والتعبئة وارادة الحياة .

وكان من نتيجة ذلك ان اعتدلت العلاقات العائلية فالشاب الألمانى لم يعد يرفض الأسرة ولا قيودها . وانما أصبح يريد ان يعيش متوازنا ، على وفاق مع والديه والأب سعيد والأم بذلك ـ هكذا تقول كل احصائيات الرأى العام فى المانيا واليابان .

★ ★ ★ ★

وفى احدى مسرحيات الكاتب الألمانى فيسبندر يجرى هذا الحوار بين اثنين من الشبان :

الأول : اذن أنت قررت ان تبقى مع والديك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثانى : فى فندق ماما .. هى سعيدة بوجودى ، وأنا سعيد بغرفتى المستقلة وطعامى وملابسى ومصروفى اليومى وحريتى .

الاول : انك قد تنكرت لكل مبادئنا !

الثانى : انا ؟ وهل مبادئنا تتناقى مع الحياة فى احدى المصحات .. وهل المصحة تمنعنا من فترة النقاهة .. واذا كنت قررت ان اعيش شريفا واتيحت لى فرصة الا اسرق الا أخطف والا اعتدى على القانون والا اكون ابنا عاقا .. والا أهدم الاسرة التى ولدتنى ، حتى اتمكن من ان اقيم اسرة افضل فأى مبادئنا تمنعنى من ذلك ؟

الاول : نحن اتفقنا على الحرية الكاملة .. اتفقنا على الا نخضع للقديم لكل ما هو تقليدى .. الاب والام نموذجان للسلطة .. وكل تدخل سلطوى هو اهانة للانسان .. احتلال امريكا لالمانية وشعبها وتاريخها وافكارها وكرامتها ! ابوك هو ايزنهاور وامك هى مارلين مونرو .. وبيتك هو البنتاجون .. ومدرستك هى محاكمات نورنبرج لكل زعماء المانيا .

الثانى : ولكنى حر تماما لا سلطان لابى أو لامى .. فانا افعل ما أريد واقرأ ما أشاء ويعلم والذى اننى احترمه .. وامى احترمها لاننى اريد من اولادى ان يحترمونى .. فأنا افعل بالضبط ما أتمناه من أولادى ولاولادى وانا ابنى ولا أهدم .. وانا أنظر الى الحاضر نظرة والى المستقبل الف نظرة ..

★★★★

ومن احلام اليقظة عند الشعوب انها تتخيل اى صاحب موهبة هو العبقرى الذى سوف يخلصها من ويلات الحاضر .. فلا يكاد يظهر اديب أو فيلسوف أو موسيقى حتى يلتفوا حوله ويحلموا .. وتكون المفاجأة ان هذا العبقرى يرفض الاعباء التى يلقيها الجيل الجديد عليه .. يرفض تحويله الى بطل يتقدم الناس ويحمل سلاحه وينقذهم ، ليلعنوه بعد ذلك ان لم ينجح .. أدباء وشعراء ورسامون وموسيقيون فعلوا ذلك . وليس غريبا ان يفعلوا فهم ايضا ابناء هذا الجيل الرافض لكل عبادة الانسان .. فقد تعذبت المانيا كثيرا بعبادتها لهتلر وبطانته ..

حتى ظهر لاعب التنس « بوريس بيكر » .. هنا اصيب الشعب الالمانى بالجنون .. فبيكر هذا شاب صغير يلعب ولا يتكلم .. وبراعته فردية وتفوقه فردى .. وقد تفوق بوريس بيكر على الشعوب الاوروبية فى التنس وفاز بأعلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكؤوس ورأى الشعب الالمانى فى هذا البطل الصغير ، دليلا على ان المانيا لم تمت .. أنها فتاة تلد كل يوم عبقريا .. وقد ولدت قبل ذلك مئات العباقرة فى العلوم والموسيقى والادب . والمانيا هى القوة الضاربة فى تاريخ الحضارة الغربية .

وظهرت فتاة المانية تتفوق فى التنس ايضا هى شتيفانى جراف .. فارتفعت معنويات الشعب الالمانى بظهور ابطال لا خلاف عليهم فى الدنيا كلها .. ولا خوف ولا خطر .. ولا نظرية ولا فلسفة ولا خطة لطرد الامريكان والقاء القنبلة الذرية .. وانما هى عينات من زلازل وبراكين الارض الالمانية تدل على وجود النار المقدسة فى هذه البلاد .. والبقية تأتى ـ يقولها الالمان وعيونهم مفتوحة وعقولهم أيضا !

وكلما اشتدت الازمات فى شعب من الشعوب تطلع الى المعجزة من الارض أو من السماء أو من انفسهم . تنتشلهم من الهوان والفقر والتخلف .

وقد عرفت انجلترا فى حربها الاهلية فى القرن الثانى عشر : (الانسان الاخضر) .. الانسان العجيب الغريب .. ففى عصر الملك ستيفن (١١٠٠ ـ ١١٥٤) اضطربت الحياة الاجتماعية والسياسية .. حتى هذا الملك استطاعت الاميرة ماتيلدا التى نافسها على العرش ان تلقى القبض عليه وان تودعه السجن .. واستمرت الاضطرابات اعنف واشد . فى ذلك الوقت فوجىء الناس بأخ واخت ـ الاخت اكبر سنا وطولا وعرضا اما اللون فأخضر : اليدان والذراعان والوجه والعينان خضراوان والشعر اخضر . مفاجأة . لا أحد يعرف من اين جاء الاثنان .. ولا احد يعرف لغتهما . ولا ما الذى يأكلان ويشربان . وظل الاخوان لا يأكلان حتى اشرفا على الموت . وقدم لهما الناس طعاما .. وامتدت ايديهما الى ذلك وترددا ثم اكلا . وشربا وتعلما اللغة الانجليزية والديانة المسيحية وتحول لونهما الاخضر الى اللون الاحمر الاشقر مثل كل الناس . وسألوهما : من اى البلاد ؟ قالا : من بلاد لا تشرق ولا تغرب عليها الشمس .. فبلادنا فى شفق الشروق وغسق الغروب دائما . ولا نعرف مصدر الاشعة . فلم نر شمسا ولا قمرا ..

وسئلا : واين بلادكما هذه ؟

قالا : نحن لا نعرف كيف جئنا الى هذه البلاد . هل حملنا الطير اليكم .. هل قذفنا الموج ، هل انشقت الارض عنا .. نحن لا نعرف ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سئلا : هل تزرعون الارض ؟

قالا : نعم ولكن افضل من طريقتكم .

سئلا : وهل تربون الماشية .. وهل تصنعون الملابس .. وهل عندكم ادوية . وجيوش وملوك .. وحروب ..

قالا : عندنا اساليب افضل من كل ما عندكم .. ولا جيوش .. وملوكنا طيبون من عامة الناس .. واطباؤنا لا يعملون فلا امراض عندنا .. الحب هو دواء لكل داء ..

سئلا : وهل تحملان رسالة لنا ؟

قالا : لا نعرف .. ولكن نشعر بأن الرسالة هى ان هناك املا .. وان هذا الامل معناه اذا طابت لنا الحياة هنا .. فسوف يجيء اخرون غيرنا .. ولكن بطريقة اخرى .. سوف يولدون من نسائكم .. سوف تكونون انتم خضرا انتم معجزة المستقبل وقد اهداها للحاكم ليخلصكم من الماضى !

★★★★

فليس بوريس بيكر وغيره من النابهين الانسان الاخضر يؤكد ان هناك املا .. و الامل يتولد من الناس لانقاذ الناس .. فالتفاؤل هو اعظم سياسة بعد ان فشلت سياسة اليأس وعقيدة التشاؤم .. وان اليوم هو نهار الأيام .. وان الماضى هو النصر الوهمى لكل الشعوب اى لا مستقبل لها ، ولا حاضر ويجب الا يكون !

★★★★

ومن سذاجة الشعوب فى ايام الازمات ! تتصور ان الذى جرى لها هو انتقام السماء منها : لانها غرقت فى الخطايا ولذلك يجب ان تنهار كلها كما انهارت مدينتا سودوم وعمورة عندما احرقها الله .. واباد اهلها برا وبحرا وشجرا وناسا وحيوانا ..

وان كان التفسير الفضائى للتاريخ يؤكد ان الذى اصاب مدينتى سودوم وعمورة ليس الا انفجارا نوويا قديما ..

ويقال ايضا ان البحر الميت الذى تقع عليه هاتان المدينتان ، ليس الا تجويفا لسفينة فضاء جبارة ارتطمت بالأرض .. فالتحليل الكيميائى لصخور البحر الميت تؤكد ان هناك اثرا باقيا لانفجار نووى .

ولكن الكتب المقدسة تقول ان الذى اصاب هاتين المدينتين وغيرهما بسبب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غضب السماء على كفر الناس وانحلالهم .. مع ان الخير من الله ، والشر من انفسنا .

وفى سنة ١٣٤٨ عندما انتشر الطاعون الاسود فى الهند وقتل منهم الملايين ، ايقن اهل الهند انه غضب السماء عليهم لانهم لا يؤمنون بالمسيحية . فقرر ملوك الهند ان يذهبوا للقاء البابا فى مدينة افنيون .. وان يعتنقوا المسيحية . ولكنهم فى الطريق علموا ان الطاعون قد اهلك المسيحيين ايضا .. اهلك ٢٥ مليونا هم بالضبط ربع سكان اوروبا . فعاد الملك والامراء والنبلاء الى بلادهم . لان الغضب عام قد شمل البوذى والمسيحى ..

وعندما انتقل الطاعون الى انجلترا ، شعر الاسكتلنديون بالسعادة فالطاعون عقاب يستحقه الانجليز . وفكروا فى غزو انجلترا ولكن الطاعون اصابهم ايضا . وفكر الانجليز فى غزو اسكتلندا ..

وفى ذلك الوقت اصدر البابا مرسوما بأن يذهب الناس الى الكنائس ليعترفوا قبل ان يموتوا . فاذا اعترفوا فالبابا قد غفر لهم ماتقدم من ذنبهم وما تأخر .. فاذا ماتوا فالجنة مثواهم . فقد منحهم البابا صك الغفران ..

وماتت الحيوانات وبارت الارض الزراعية . ولم يجد الناس احدا يعمل فى الحقول . فارتفعت اجور العمال . ولكن الملوك رفضوا رفع الاجور . وفرضوا على العمال ان يعودوا الى الحقول بنفس الاجر .. ورفض العمال وهربوا الى الغابات وفضلوا السجون .. فقد هان امر الملوك على الشعوب .. فليسوا مقدسين فقد ساوى الطاعون بينهم جميعا . واحس العمال ان النبلاء اصحاب الاقطاع اسوأ من الطاعون . فالطاعون بضربة واحدة يميت الناس اما هؤلاء فيضربون ويعذبون كل يوم .. ثم انهم لم يتعظوا بما حدث لملايين الناس الابرياء الاغنياء والفقراء والحيوانات والنباتات !

ولان هذا الجيل فى حيرة من امرنا .. تعب من الذى قلناه ومن الذى هدمناه واقمناه .. ومن الهتافات : بالروح بالدم نفديك .. ياجمال ياسادات يامبارك .. ثم نهتف بسقوط جمال ونغتال السادات ومن يسقط ويعيش . والذى نطالب بأن يعيش نهتف بسقوطه والذى نطالب بسقوطه ندعو له ان يعيش ..

فلم يعرف هذا الجيل الجديد : من هو البطل .. ولا ماهو المثل الاعلى .. ولا من الذى نفع ومن الذى اضر .. من الذى انتصر ومن الذى انكسر من الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خربها ومشى .. ومن الذى بناها .. ما الصحيح ما الخطأ .. ما الحلال والحرام .. ما الدين ومن الامير بلا جماعة .. وما الجماعة بلا امير ؟ .. اين القبلة ؟ الى اين يتجه الشباب ؟ .. من الذين نتحدث اليهم ؟ من نستمع اليه ؟ من الذين وجدنا لهم عذرا ؟ كيف نحاسبهم وهم لم يعرفوا ؟ لم يفهموا .. لم يقتنعوا .. لم نوضح لهم .. لم نناقشهم .. لم نقنعهم .. ان الله تعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » اى ان الله لايعذب اناسا لانهم لم يسلموا ، مادام الرسول والقرآن لم يبلغهم .. فكيف نعذب من لايعرف .. فكيف نحاسب الشباب ونحن لم نقدم له فهما ولانظرية ولا رأيا ولا رؤية .. كيف نحاسبهم ونحن لم نبلغهم .. لم نصلهم . كيف نغضب من غضبهم ؟ كيف نثور على ثورتهم ؟ كيف نطالبهم بالبنوة ونحن انكرنا الابوة ؟ !

ربما كان الجيل القادم احسن حالا . فسوف يقررون فورا كما فعل الالمان اليوم : انهم ليسوا طرفا فى كل الذى حدث .. لا رأوه رجالا ولا عايشوه صغارا .. انه الماضى الذى صنعه الذين مضوا .. فهو ماضيهم وحدهم . مات بهم ومعهم وماتوا معه .. اما هم فسوف يكون لهم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .. وسوف يضبطون آذانهم على موجاتهم الخاصة .. وعدساتهم على منظورهم .. واحلامهم على أوهامهم .. وشعارهم : لك ماضيك ولى ماض .. لك حاضرك ولى حاضر .. لك مصر ولى مصر .. لك عرب ولى عرب .. فلا انا احمل أوزارك ، ولا انت تحملها ايضا . فالذى كان كان ، ويجب ان يبقى هناك . فلا زحف على الحاضر ولاسطو على المستقبل يجب ان يقف الزمن حتى يتمكن هذا الجيل من تأكيد ذاته وسيطرته على نفسه وعلى زمانه ومكانه ..

واذا كانت الشمس قد وقفت فى السماء مرة لكى تتمكن جيوش القائد « هوشع » من الانتصار .. فان وقوف الشمس ممكن ايضا .. ففى استطاعة الشباب ان يوقف الشمس فتغرب على الماضى لتظهر شمس جديدة هى : امال الشباب وارادته وقدرته على الابداع والتطور .. هذه الشمس ليست هى التى اشرقت وغربت على الجيل الاسبق .. وانما هى جديدة على دنيا جديدة .. على جيل جديد .. هو اكثر الاجيال تسامحا واكثرها قدرة على أن يعطى نفسه لنفسه ولاجيال من بعده ..

فاللهم ارحمنا من هذا الجيل الذى لن يعفو ولن يرحم ـ ومعه حق ـ اما الجيل الذى يليه فهو اكثر رحمة ، لانه اكثر نسيانا ، واشد انشغالا بنفسه وغده !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجوزة والقنبلة

سأروى لك مجموعة من الحكايات الغريبة التى تبدو كأنها متباعدة غير مترابطة . والحقيقة ان لها معنى واحدا هذا المعنى هو المقدمة الضرورية للغرض من هذا المقال انتظرنى دقائق .

١ ـ سألت أحد أصدقائى ما الذى جعله يكف عن تعاطى الحشيش . فقال انه كان من عادته ان يذهب إلى احدى « الغرز » فى شارع الصحافة . وفى يوم من الأيام سأل صاحبة الغرزة عن معنى الاسد المرسوم على الحائط وقد امسك فى يده سيفا . واندهشت لهذا السؤال الذى جاء متأخرا عدة سنوات ـ هى فترة تردده عليها مع عدد كبير من الاصدقاء فقالت : يظهر انك نسيت .. فانا اهددك كل يوم بانك اذا لم تدفع فسوف اطلق عليك هذا الاسد يأكلك !

وضحكت هى . وشعر صديقى بالهوان .. وقال : لم أكن أعرف اننى صغير وضئيل وتافه والعوبة إلى هذه الدرجة. واقسمت الا احشش . ووفيت بما وعدت وتعهدت .

٢ ـ وانا طالب فى الجامعة كنت اتردد على مستشفى الامراض العقلية لدراسة بعض الحالات المرضية . وفى احدى المرات وقفت امام مريض . لم يشعر بوجودنا ولكنه لا ينظر الينا . وقال الطبيب : انه آلة .. قطعة من العجين .. لا حول ولا قوة له .. انظر .. واقترب من المريض وقال له .. ياجاك .. انا اريدك ان تلحس جزمتك اليسرى ..

فاذا بالمريض يخلع جزمته اليسرى ويلعق الطين من فوقها .. وطلب اليه ان يقتلع المسامير بأسنانه من المقعد .. وانهال المريض على المقعد يخلع المسامير والدم ينزف من شفتيه .. وتضايقت جدا . ولكن الطبيب قال : ان العقاقير التى اعطيتها له تجعله هكذا .. لا شىء .. واحسست بشىء من المغص !

٣ ـ كنت فى جزيرة مندناو بالفلبين وهى الجزيرة الاسلامية الوحيدة فى هذه الدولة الكاثوليكية . وجلست اتناول طعامى فى شرفة فندق يطل على المحيط عندما ظهر من تحت الماء طفل فى السابعة من عمره يحمل طفلا رضيعا .. لم افهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سألت مرافقى : ما هذا ؟

وعرفت ان هذا الطفل الذى يحمل طفلا يطلب حسنة بشرط ان تلقى بها تحت الماء ويغطس والرضيع معه ويلتقط الفلوس من قاع المحيط . واذا اراد السائح ان يستمتع اكثر فانه يلقى بالفلوس فى اماكن مختلفة وسوف يأتى بها الطفل الذى يحمل طفلا . شىء فظيع ! منتهى القسوة ! ولم استطع ان اكمل طعامى . شىء مؤلم ان يتحول . انسان باسم الفقر الى حيوان . وان يجعل طفلا رضيعا يتدرب على ذلك ليكون شحاذا محترفا طويل النفس تحت الماء ـ وان يفعل السياح ذلك معناه انهم يشاركون ويشجعون على تجريد انسان من انسانيته من اجل بضعة ملاليم ـ اعوذ بالله !

٤ ـ مشهد مألوف لمن يجلس على المقاهى الفرنسية فى شارع « الشانزليزية » ان يجد شحاذا فرنسيا يتحول فجأة إلى انسان آلى يتحرك بخطوات منتظمة خشنة . وان يدير رأسه بحدة . وان يقلب عينيه بلا معنى . اما الشعور الذى تجده فى نفسك فهو : الابتسام أول الأمر ثم القرف بعد ذلك . اما القرف فهو الكراهية ممزوجة بالاحتقار .. ان تكره ان يكون انسان آلة صماء عمياء . وتكره ان يكون اى انسان هكذا . وان تحتقر الانسان الذى يقبل هذا الهوان لاى سبب !

٥ ـ كنت أجلس فى « هايد بارك » فى لندن عندما جاءت فتاة جميلة وجلست الى جوارى . ثم تزحزحت قليلا ولمست ملابسها ملابسى ـ بمنتهى الصراحة اسعدنى ذلك . واحسست كاننى صياد لم يكد ينشر شبكته فى البحر حتى قفزت اليه سمكة دون مجهود هل توهمت اننى شاب . واننى مازلت ذئبا مدربا . لا اظن ذلك . ولكن ادهشنى ما رأيت .. ولاحظت ان يدها الناعمة الحلوة قد امتدت الى بنطلونى والتقطت فتفوته بطاطس علقت بملابسى .. ووضعتها فى فمها . فنظرت اليها . لا معنى على وجهها .. نظرتها محايدة . إلى الامام . إلى لا شىء . تمثال من الشمع الابيض خلطوه بقليل من النبيذ الأحمر . ثم غطوه بطبقة من الجليد ـ مسطولة تماما . واحزننى ان ارى الشباب والجمال يموت جالسا . تضايقت . قرفت . وكان قرفى خليطا من الحزن والاحتقار . الاحتقار لها وللذى فعلته بنفسها والحزن على شبابها .. وجيلها من اوله لآخره !

٦ ـ اخيرا .. للفيلسوف الفرنسى برجسون دراسة عن « معنى الضحك » يقول : اننا نضحك من الآلية ومعنى ذلك انك اذا كنت تمشى مع صديق لك . وفجأة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجدته تعثر فى طوبة ووقع « على الارض . فانك على الرغم منك تضحك ما الذى اضحك ؟ اضحك ان صديقك فجاة تحول الى « لوح » خشبى .. وقع على الارض دون ان يقاوم .. وبسرعة تطفىء ضحكتك لان الموقف لا يشجع على الاستمرار فى الضحك ، واذا حدث ان سقط صديقك مرة اخرى وثالثة وبنفس الطريقة .. فقد تحول الى « لوح » الى طوبة .. الى شىء لا ارادة له ولا قوة ولا عقل !

فما المعنى ؟

هذه صور لحالات يتحول فيها الانسان دون أن يدرى أوهو يدرى ، إلى العوبة .. دمية .. إلى إنسان قد تجرد من الانسانية .. فأصبح كأنه آله .. فلا هو حديد خالص ، ولا هو انسان سليم .. وانما فيه صفات الحديد الذى لا ارادة له ، وصفات الانسان الذى يعرف انه كذلك !

وادمان المخدرات يفعل ذلك بالانسان .. فالانسان بكامل قواة العقلية ، يفقد قواه العقلية ، وهو بكامل ارادته ، يفقد ارادته وهو بانسانيته يتجرد منها .. ويترك امره وحياته ومسار حياته لغيره .. وهذا الغير هو المخدرات أو هو الشخص الذى يملك المخدرات ..

ومن اشهر متعاطى المخدرات فى التاريخ القديم : جماعة الحشاشين عاشوا فى ايران وسوريا ومصر ايام الحروب الصليبية .

هل الحروب هى التى دفعت الناس الى ان يغيبوا عنها ، كما حدث للامريكان ايام حرب فيتنام وللمصريين أيام الحروب العربية الاسرائيلية ..

هل هى التى دفعت الشباب الامريكى الى الهروب من الديسكو ـ الرقص الغنائى العنيف ـ الى الغيبوبة فى حظائر البهائم وغابات الامازون . ثم الى القتل دون ان يدركوا ..

ولكن هؤلاء الحشاشين هم جماعة أمنوا بالزعيم الشيعى الحسن بن على الصباح الحميرى . يقول عن نفسه أنه ابن الملوك . والتاريخ يقول بل اباؤه واجداده من الفلاحين . ولكن عنده طموح واحلام وأوهام كبرى ان يكون أماما وملكا وشاعرا . ولذلك ادعى هذا الزعيم ان دماءه ملكية وادعى الصداقة الحميمة مع الشاعر العظيم عمر الخيام .

جاء إلى مصر سنة ١٠٧٠م ووجد خلافا حول الخلافة ـ فكل المصائب سببها من الذى يخلف المستنصر ؟! فالخليفة المستنصر تقدمت به السن واقعده المرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن اتخاذ القرار . وكان الخلاف بين اثنين من ابنائه . ولسبب ما وقف الحسن الصباح الى جانب الامير نزار ابن الخليفة . ولكن الفاطميين فى مصر لم يختاروا الامير نزار وانما فضلوا اخاه الذى جعلوه اماما واختاروا له اسم المستعلى . ولكن الأمير نزار انفق اموالا كثيرة . واعطى حسن الصباح جوالات من الذهب .. ويقال انها تعادل ما يحمله عشرون حمارا . ولذلك تحول حسن الصباح الى داعية ضد الخليفة الجديد . وقد اطلق على نفسه النزارى .. واتباعه النزاريين - أى الذين يشايعون الامير نزار . واغتيل هذا الامير وبعد وفاة حسن الصباح جاء واحد يخلفه وادعى انه ابن الامير نزار وطالب بتحريم الايمان بالاسلام والشريعة الاسلامية .. وسايره اتباعه ؟

وبدأت عظمة حسن الصباح وقداسته وعصمته عن الخطأ عندما استولى على قلعة اسمها « الموت » وعندما استولى أتباعه على قلاع وحصون أخرى - لابد من القلاع .. أى لابد أن يكونوا فوق الناس بين السماء والأرض . لأن الوحى يهبط عليه فوق !! وكما كان للرسول عليه السلام غار حراء فالامام حسن الصباح له هذه القلعة أما أسلوبه فى السطو والسطوة فهو : الاغتيال ويكون الاغتيال شنقا ..

وأسلوبه فى اقناع الناس بالقتل هو : الحشيش . يدعوهم إلى ليلة حشيش . يدخنون ويأتى لهم بالفتيات الجميلات . وقبل أن يفيقوا يلقى بهم أمام القلعة أو عند السفح ويسألهم فى الصباح : ماذا رأوا ؟ فيحدثونه عن الجنة وعن الحور العين والولدان المخلدين وأنهار من عسل ولبن وخمر ويقول لهم حسن الصباح اننى رضوان على باب الجنة . من أطاعنى أدخلته . ومن عصانى قتلته . ماقولكم ؟ !

ويقولون : بل الاستسلام التام لقداسة الامام .. اذن فليقتلوا فلانا ليدخلوا الجنة .. ويتسابقوا فى الأغتيال يمينا وشمالا .. يقتلون الوزراء والأمراء ويدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار كل ليلة ويطردهم من جنته كل ليلة ! .

واجتاحت قوات المغول الشرق الأوسط : وقضوا على الحشاشين واستولوا على قلاعهم وأحرقوا كتبهم .

وفى ذلك الوقت انتشرت نظرية « التقية » عند الشيعة والتقية معناها : مسايرة الناس .. مدارة الناس .. كان يسألك أحد هل أنت مسلم فتقول .. أبدا بل كافر ملحد .. أنظر .. وتخرج زجاجة خمر من جيبك وتشرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونظرية « التقية » ترى أن المسلم الخائف من حقه أن يكذب وأن يسكر وأن يزنى .. لأنه يخشى لو أعترف بدينه أن يقتلوه .

فلا ذنب عليه أن ارتكب كل هذه المعاصى .. وكذلك الحشاشون كانوا يحلفون على المصحف أنهم لايقتلون ولا يغتالون .. وأنهم ليسوا من الشيعة وأنما من السنة ـ وهم كذابون !

فهل كان الحشيش جديدا على الشيعة ؟ لم يكن جديدا . فقد كان الصوفية يتعاطون الحشيش لأنه يجعلهم فى حالة من « الوجد » و « النشوة » و « التجلى » ..فالحشيش يساعدهم على أن يرتفعوا إلى هذه المقامات الوجدانية التى تنأى بهم عن الواقع وتعوضهم عن الملل اليومى ..

كما كان « الشاذلية » يتعاطون القهوة وكانت القهوة تخلق نوعا من الصفاء .. والرواء .. والبهاء ..

ولاتزال قارئة الفنجان حتى اليوم قبل أن تحدثك عن حظك تقلب الفنجان وهى تقول : ياقهوة ياشاذلية دلينى على اللى فى النية !

وأول من أتى بالقهوة الى مصر وفى أروقة الأزهر : السودانيون ..

وأول من أدخل الشاى فى الأزهر الطلبة المغاربة ولم يكن المصريون ينظرون بارتياح إلى هذا « الكيف » الغريب !

وقد أطلق المؤرخون على هؤلاء الحشاشين من أتباع حسن الصباح : « الفدائيون » ..

والمؤرخ ابن خلكان يسميهم : الفداوية .. ولم يكن حسن الصباح أول من استخدم الحشيش وسيلة إلى الاغتيال . فقد سبقه إلى ذلك أبو منصور الأجلى ومغيرة بن سعيد . أما أتباعهما فكانوا يسمون : الخناقين ..

والسلطان بيبرس هو الذى قضى على آخر جيوب الحشاشين فى مصر سنة ١٢٧٢م .. ويقال انهم ضبطوا أحد الحشاشين يصلى وهو يرقص فحملوه إلى السلطان . وسأله عن السبب فقال : أنما طلب منى الامام أن أفعل ذلك ؟ !

فسئل أى إمام ؟

قال : الامام حسن الصباح ..

فقيل له : لقد مات من ستين عاما !

قال ولكنى لم أسمع بهذا الخبر !

فسألوه : هل تعرف أن صديقك الشيخ سعيد قد قتل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك الطائرات الانتحارية ..

وكلمة « كاميكاز » معناها « الاعصار المقدس » .. ففى سنة ١٢٨١ م عندما هاجمت قوات المغول جزر اليابان هب اعصار أغرق اساطيل الغزاة . وانقذ اليابان . وهذه الطائرات هى الاعصار الجديد .

وفى سنة ١٩٤٤ استطاع اليابانيون فى موقعة اوكيناوا البحرية ان يدفنوا الاسطول الامريكى وان يقتلوا منه خمسة آلاف جندى فى يوم واحد . كيف ؟

انهم يركبون الطائرات الانتحارية ويرتفعون بعد اسكات المحركات .. فاذا اقتربوا من الهدف اداروا المحركات الثلاثة باقصى سرعتها واتجهوا مباشرة الى الهدف .. فتنفجر الطائرة والهدف والطيار معا .. كيف !

لقد عرف اليابانيون نوعين من المخدرات : الايمان المطلق بقداسة الشعب الياباني وارض اليابان وان كل عدوان عليها هو عدوان على قدس الاقداس ثم انهم كانوا يعطون الطيارين شرابا مخدرا يشعل فيهم النار والحماس والجنون والرغبة فى الانتقام .. فيندفعون الى الدمار والموت !

وهكذا يكون الطيار الياباني صاروخا يقود طائرة .. أو كأنها طائرة بلا طيار . لان الطيار قد اصبح قطعة من الطائرة !

★★★

وفى القرن التاسع عشر صدرت رواية لمارى شيلى زوجة الشاعر شيلى . الرواية اسمها « فرانكنشتين ـ او بروميثيوس الجديد » ـ اما بروميثيوس فهو البطل الاغريقى الذى سرق النار من موكب الشمس واعطاها للانسان ، فكانت النار مصدر حضارته وقدرته وتمرده على الالهة .. فاستحق بروميثيوس العقاب . وكان عقابه ان ربطوه بالسلاسل واتوا بنسر يأكل قلبه . وكلما اكله نما من جديد ليأكله ثانيا .. الى الابد !

وقصة فرانكنشتين موضوعها ان باحثا عرف سر الحياة . وراح يجمع اشلاء الحيوانات من دكاكين الجزارة فى سويسرا واشلاء الانسان من قاعات الجراحة فى المستشفيات . ونجح فى ان يصنع وحشا بشريا واسم هذا العالم فيكتور فرانكنشتين وفى يوم فوجىء العالم السويسرى بأن اخاه وجدوه مشنوقا فى احدى الحدائق واتهموا الخادمة التى أدينت وأعدمت . ومرة أخرى وجدوا صديقه قتيلا وعروسه ايضا .. واتهموا العالم فرانكنشتين بأنه القاتل . واطلقوا سراحه لعدم توافر الادلة .. وضاق العالم بهذا الذى حدث . وفوجئ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالوحش . يهدده : ان لم تخلق لى أنثى اعيش معها .. واعرف الحب والصداقة فسوف اقتلك .. واقتل كل الذين حولك ..

وجلس العالم يخلق له انثى . وفجأة تنبه ضميره وخاف ان هو خلق انثى ان يتولد من هذين الوحشين جيل من الوحوش .. فعدل عن اكمال « تخليق » وحش انثى . وكان الوحش يرقبه من النافذة فغضب لذلك . وهدد بأنه سوف ينتقم منه ..

ويئس العالم من هذه الحياة ومن ضميره الذى لايتوقف عن وخزه ليلا ونهارا .. فقرر ان يعيش بعيدا عن القطب الشمالى .. وهناك رأى الوحش . وهرب منه .. اما البرد والجوع والعطش فقد قضى على الباحث وزوجته دون ان ينتقم لضحايا الوحش .. ولكن الوحش وقف على جثمان هؤلاء الموتى يقول هذه الحكمة .. بل المجرم الحقيقى هو فرانكنشتين الذى خلقنى بلا قلب ولا عقل ولا حب للانسان .. انه هو القاتل الحقيقى اما الضحية فهى انا !

فالحشاشون قتله .. وفى نفس الوقت ضحايا لقاتل آخر .. يعطى الحشيش ويعطى الفلوس ويعدهم بجنات كاذبة تجرى من تحتها انهار الدم .. ولكن الحشيش يزيفها لهم .. انهارا من لبن وعسل مصفى لذة للشاربين !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لماذا يتكلمون ويفهمون ويأكلون؟!

اعط اذنك للاذاعة أو التليفزيون واستمع كيف يتكلم بعض الشبان . انهم ينطقون بسرعة . والسرعة تأكل الحروف وتطيح بنهاية الكلمات .. اما المعنى فهو الغراب الاسود فى الليلة السوداء تحاول ان تمسكه فلا تستطيع . لماذا ؟

ويدهشك اكثر ان تجد بعض الشباب لا يعرفون تركيب الجمل تركيبا صحيحا . ومعنى ذلك ان شكل الكلام لايهم . المضمون هو الذى يهم . ولكى يكون المضمون واضحا فانهم يستعينون على ذلك بالحركات : حركات اليد أو الوجه أو بالضحك .. والضحك معناه ان الذى يقوله اقرب الى النكت ، أو ان الضحك يدارى خجله من انه لايعرف ماذا يقول ولاكيف يقول . وان السؤال كان مفاجأة له . ولذلك فهو يريد ان يتخلص من هذا الموقف بسرعة . فلماذا ؟

ثم ان هؤلاء الشبان لديهم قدرة فريدة على ابتكار الفاظ وتراكيب جديدة .. هذه الالفاظ تقوم بدور الرموز أو الكلمات الشفرية التى لايعرفها احد سواهم .. فكأن الشبان قد اختاروا لأنفسهم هذا الاسلوب فى التعبير حتى لايعرفهم سواهم . فلما سألناهم نحن ، اى لما اقتحمنا عليهم حياتهم الخاصة ، اخجلتهم المفاجأة ولكنها لم تجعلهم يغيرون اسلوبهم فى التعبير الرمزى - اى التعبير الخاص بهم .. التليفزيون وهو يقرأ الكتب التى ليست مقررة .. كم الف كلمة تمر عليها عيناه يوميا ، كم الف كلمة تدخل اذنيه .. كم الف كلمة وصورة وحركة اعلانية .. والاعلانات لاتزال اقوى اثرا على السلوك العام لحياة الناس . فالاعلان عن سلعة غالى الثمن . ولذلك فصاحب الاعلان حريص على ان يقول كلاما كثيرا سريعا فى اقل وقت . لان الثوانى من ذهب . فالاعلان يغنى ويرقص ويقول شعرا فى اجمل اطار . ولذلك يجب ان تكون العبارة مكثفة سريعة انيقة جميلة . ويجىء اعلان ثان وثالث .. مئات الاعلانات الغنائية الراقصة . وكذلك نشرات الاخبار . ولاتزال نشرة الاخبار العربية هى ابطأ المواد الاعلامية .. بينما نشرة الاخبار الفرنسية اسرع من الانجليزية التى هى اسرع من العربية ..

اكثر الناس يقرأون وهم يأكلون وهم نائمون على السرير وهم يتفرجون على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التليفزيون .. اى ان مثل هذا القارىء لا يتفرغ تماما لهذا الذى يقرؤه .. وانما يكون منهم الذين اخترعوا كلمات : يطنش .. طناش .. واللى هو .. واللى هى .. والزمبة ـ وهى كلمة تركية بمعنى المسمار .. ويفلسع .. ويسوسن اى يكون مثل السوسة .. وغيرها من الكلمات التى تعبر عن اكثر من معنى فى كلمة واحدة ـ فلأى سبب يفضلون ذلك ؟

لهم العذر . فالعصر كله سرعة . والمثل الاعلى عندنا هو كيف تصل اسرع واخف وأرخص . ولك ادوات الانتقال ـ واللغة اداة ـ يجب ان تنطلق بلا مقاومة .. انظر الى خطوط الطائرات الانسيابية .. وانظر الى رموز الطائرات : انها النسور والصقور .. أى أكثر الطيور قدرة على الطيران والانطلاق بلا صوت ولا مقاومة من الهواء .. فوزنها خفيف وريشها ممدود ناعم .. ونحن فى عصر الصواريخ التى تنطلق من الأرض وحولها والى الفضاء الخارجى بسرعة ثلاثين الف كيلو متر فى الساعة .. وسوف تزيد سرعتها عاما بعد عام ، كلما اهتدى الانسان الى انواع افضل من الوقود ومعادن اكثر صلابة واخف وزنا واقل تكلفة ..

اجلس الى جوار اى شاب وهو يقرأ الصحف والمجلات ثم يجلس بعد ذلك الى القراءة ضمن اشياء كثيرة . الاكل والشرب والموسيقى والتليفزيون أو فى الاتوبيس .. ولذلك فالكتاب يجب ان يكون سهل الحمل ، فى جيب الجاكتة أو فى يده .. ولابد ان تكون مادته خفيفة .. وان تكون سريعة البداية والنهاية .. اقرب الى الحواديت .. او الى النكت .. أو القصص البوليسية القصيرة .. اى انه من الممكن ان يقرأ وان يشترك فى الأحاديث التى تدور وتلف حوله .. فالحديث لا يعطله عن القراءة ، والقراءة لا تستغرقه .. وانما يأخذ من كل شىء بطرف .. ويكون هو نفسه طرفا .. اى ان القراءة لا تعزله تماما .. انه مثل راكب اتوبيس يضربه هذا ويدوسه ذاك .. ثم انه يحب ان يكون فى حالة استعداد لان ينزل فى اقرب محطة ، لان السائق عادة لا يتوقف طويلا .. فهو يقرأ لكى يتوقف بسرعة . وهو جالس لكى ينهض فى أى وقت .. وهو واقف لكى يقفز بسرعة الى الباب ، ومن الباب الى الشارع متفاديا السقوط والسيارات الاخرى ..

ولذلك انتشرت روايات وكتب الجيب .. وظل الجيب يصغر والكتب تصغر .. وظهرت كتب « الملخصات » التى تتحدث عن الروايات العالمية والكتب الحضارية فى صفحات ، فكان المطلوب هو عبور هذه الكتب الكبرى لكى تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدينا معلومات « عنها » .. ولا يهم ان نعلم بها .. فلا وقت عند احد ليقرأ مئات الصفحات . وانما يكفى ان يأخذ « بها » خبرا .. وهذه هى الثقافة العامة ـ لان الثقافة عندنا هى : ان تعرف شيئا عن كل شىء !

وكما اختفت المائدة من البيوت وظهرت الترابيزة الصغيرة .. وظهرت السندوتشات ، فكذلك الكتب : سندوتشات .. والموسيقى ، مختارات وكما نضع الكتاب فى جيوبنا ، فاننا نعلق الكاسيت فى اعناقنا .. فالكاسيتات كتب ناطقة ، والكتب كاسيتات صامتة .. والكتب والكاسيتات هى المعلبات : اى الأطعمة المحفوظة .. وكذلك الأدوية تحولت الى حبوب واقراص .. والفواكه والخضروات والسكريات والمقومات .. كلها كبسولات .

ولا فرق بين دكان الكاسيتات والمكتبات والصيدليات والسوبر ماركت . كلها تبيع سلعة واحدة : المعلبات .. أى الأطعمة المحفوظة فى الورق أو السيلولوز !

حتى المطاعم حيث تجلس الى تربيزة ويجىء الجرسون يقدم لك الطعام أو يسألك ما الذى تحب .. هذه المطاعم اختفت وسوف تختفى لتظهر الكافتيريا .. وهى كلمة مكونة من كلمتين : كافية ـ وتية ـ أى قهوة وشاى . وكنت قد ترجمته بكلمة أخرى هى : القهوشية ، وكنت قد ترجمت مكان شرب الشاى بكلمة : المشهى .. على وزن المقهى التى هى مكان شرب القهوة ..

واكثر المجلات انتشارا فى العالم الآن : هى مجلات السندوتش .. لأن هذه المجلات تنطبق عليها كل المواصفات المطلوبة : السرعة .. السرعة فى الاعداد .. السرعة فى التناول .. السرعة فى الدفع .. ثم انك تأكل وانت تقرأ .. وكما يتساقط الطعام فى فمك ، تتساقط حروف الكلمات وتغيب المعانى .. ولكن أكلة السندوتش يعرفون ذلك مقدما .. فهم لا يستوقفون بعضهم البعض لكى يفهموا ما يقولون .. فالكلام مفهوم . والهدف معروف . وليس مطلوبا من أحد اكثر من « الصحبة ».. من الوقوف معا .. والأكل معا .. والانصراف معا .. وليس من أهداف أحد ان (يستطعم) الذى يتناوله .. ولا أن يمضغه .. فالمعدة شابة قادرة على الهضم !

★ ★ ★

فهذه « القهوشية » هى المكان الذى يلتقى فيه الشباب على عجل ليأكل واقفا ويشرب خارجا ويدفع منطلقا .. فلا مكان لان تجلس ولا داعى لذلك .. والسندوتش هو المثل الأعلى لكل أنواع التغذية .. فهو ذلك الرغيف الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تضع فيه اللحم المصنوع من الفول مع البطاطس والصلصة والخس .. وهو رغيف منفوخ عادة .. يعطيك انطباعا انه كثير وهو فى الحقيقة قليل .. تماما كأنه كتاب ضخم ولكن فى كل صفحة سطرا أو سطرين .. أو كأنه نوع من العقاقير الفوارة .. تبدو كبيرة الحجم ولكن بعد أن نضعها فى الماء تجدها واحدة على الأرض . ودون أن يسقط الكوب من يدك والقلم من فمك ـ لاحظ أن القلم يكون دائما فى جانب من الفم فى معظم الأفلام الامريكية .

ومن سبع سنوات وقعت فى امريكا أزمة كبرى ، هذه الأزمة جاءت فى تقرير الى الرئيس الأمريكى . التقرير عنوانه « أمة فى خطر » أما هذا الخطر فقد استشعرته امريكا عندما وجدت إنها تخلفت عن اليابان .. وقبل ذلك فى الخمسينات وجدت نفسها تخلفت عن الاتحاد السوفيتى الذى اطلق أول قمر صناعى ليدور حول الأرض .

هنا أحست امريكا أنها اهينت فى الأرض والسماء . وان القمر الصناعى الروسى ليس الا فضيحة لامريكا . تدور حول الأرض .. وأن الرأسمالية والحرية والديمقراطية فى الأرض ،والشيوعية الماركسية المادية الجدابة فى السماء . وكان لابد من بعث الأسباب التى أدت إلى التخلف فى علوم الفضاء !

وبسرعة قفزت امريكا الى الفضاء وتقدمت روسيا ولا تزال اسبق واروع . إذن لقد كانت عندها كل النظريات والتطبيقات ولكنها المشاكل البيروقراطية وحقد العلماء الامريكان على العلماء الالمان الذين اسروهم فى الحرب العالمية الثانية ونقلوهم الى امريكا . وفى مقدمتهم د . فون براون ابو الصواريخ الالمانية « ف٢ » .

وكان الروس قد نقلوا معهم من ألمانيا عددا من العلماء الالمان أيضا . والنكتة تقول انه لما التقى القمران الروسى والامريكى فى السماء ودار بينهما حوار لم يفهم احدهما الآخر.. فقد كان احدهما يتكلم الروسية المكسرة والثانى الانجليزية المكسرة. فقال احدهما للآخر: لنتكلم الالمانية!

ومما اهتدى اليه الامريكان ان سبب التخلف هو ان الروس يدرسون الهندسة وحساب المثلثات والتفاضل والتكامل فى سن مبكرة جدا . وانهم لذلك افضل من الامريكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبسرعة غيرت امريكا برامجها التعليمية وسايرت العصر وتقدمت كل المعاصرين !

أما اليابان التى ضربتها امريكا بالقنبلة الذرية ، وحطمت آلة الحرب وكسرت ظهر الشعب واذلته ومسحت به الأرض ، فلم يستسلم للهزيمة .. ولا استسلم الالمان الذين تقدموا على كل الدول التى ضربتهم واحتلتهم واذلتهم .

فما الذى وجده الامريكان ؟

وجد الامريكان ان البداية هى : التعليم لا علاج لمرض بغير تعليم . لا تقدم بغير تعليم . لا دين بغير تعليم .. ولا تعليم بغير مدرس ، ولا تدريس بغير مؤهل ولا مدرس بغير طالب ، فالتفتت امريكا الى الطلبة ، فماذا وجدت .

وجدت أن الطلبة يتركون الفصول والمدرجات والمعامل ويجلسون معظم الوقت فى الكافتيريا : يأكلون خطفا ، ويتكلمون لهوا ، ويدخنون حشيشا . ووجدت شيئا أخر : أن الطلبة حريصون فى الدرجة الأولى على الصحة الجسمية : لعب الكرة بكل أنواعها .. والبقاء طويلا فى حمامات السباحة وعلى الشواطىء ، والقفز بالمظلات ... تطبيقا لروشتة الحكيم بقراط : العقل السليم فى الجسم السليم . ولكن الذى حدث هو معكوس هذه الحكمة : الاجسام سليمة ، والعقول ليست كذلك ..

فكيف يكون العقل سليما أولا ، ويكون الجسم قادرا على الوفاء بمتطلبات العقل : هذه هى القضية !

جاء فى التقرير الامريكى ان هذا هو جيل الكافتريا .. جيل الساندوتش .. جيل الكبسولة .. الكاسيت و (الريد رزدايجست) أى ما يسهل هضمه من المعلومات الخاطفة والسطور المخطوفة !

اخطر من ذلك أن ظهرت فى امريكا مدارس تعلم الناس كيف يقرأون بسرعة .. وكيف يجمعون المعلومات بسرعة . فلا وقت عند احد لكى يقرأ . لا يهم كثيرا ان تستوعب .. المهم أن « تأخذا خبرا » بكل شىء .. وهذه المدارس أيضا تعلم الشباب ورجال الأعمال كيف يقرأون ويأكلون ويشربون ويستمعون الى الموسيقى والتليفزيون .. كل ذلك دون ان تسقط فتفوته واحدة على الأرض)

وفى أحد الأفلام الأمريكية سألوا طفلة صغيرة : ماهى آخر مرة رأيت دجاجة على المائدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت : عندما هربت من احدى المزارع المجاورة .
فقيل لها : دجاجة مطبوخة ..
فصرخت الطفلة وراحت تبكى وهى تقول : ياماما .. الحقينى .. انهم يريدون ان يقتلوا دجاجة .. ياماما .. الوحوش المجرمون !
اما المعنى فان احدا لم ير دجاجة مذبوحة او مطبوخة فلا حاجة الى ذلك .. فاللحوم فى العلب ، واللحوم فى السندوتشات !
فاصلاح التعليم فى امريكا من أجل أن نعود الى السباق والى الفوز به فى البداية والنهاية يبدأ من جو الكافيتريا وفلسفة السندوتش ..
أو يبدأ من دراسة الحياة الدراسية وحياة العمال والمخترعين فى اليابان ..
فاتجهت امريكا الى اليابان تقلب فى سلوك كل الناس . لتعرف اين تكمن هذه العبقرية . ولم تهتد الدراسات الى شىء يقنع المواطن الامريكى . فالشعب اليابانى يجلس ويتمدد فوق عاداته القديمة التى يستحيل على شعب آخر ان يمشى عليها .. فاليابانى فى بيته مواطن تقليدى جدا . هو السيد .. سى السيد .. يأكل اولا ومن بعده الاولاد .. واخيرا الأم . فهل هذه هى اسرار العبقرية ؟ والرجل اليابانى ينام على الارض وينتقل من غرفة الى غرفة بالقبقاب فهل هذه هى اسرار العبقرية . وهو يأكل انواعا من الاطعمة لا تطيق رائحتها وكلها من مشتقات السمك منقوعا فى البصل .. وهو لا يكف عن الانحناء تحية لكل الناس اذا مشى فى الشارع واذا جلس يشرب وإذا جلس يأكل .. فمثلا : اذا كنت مدعوا عنده ومددت يدك الى الطعام والطعام وقف فى حلقك .. فكدت تموت .. فأنه هو وزوجته واولاده ينهضون وينحنون استعدادا لتقديم اية خدمة .. ولكن الادب يمنعك ان تقول الحقيقية فتكذب وتقول شيئا آخر : ابدا ولا حاجة .. وانما هى معدتى تستعجل الطعام اللذيذ فقفزت إلى حلقى !
وتعليقا على هذه العبارة الساخرة التى لم يفهموها يظل جميع الافراد فى حالة انحناء لك ، امتنانا واعجابا بأنفسهم ـ فهل هذه هى مصدر العبقرية ؟
وظهرت البدل التى كان يرتديها الجنود فى الحرب ، لتكون فى متناول كل الناس .. وهى البدل التى بها جيوب فى الساقين والذراعين وعلى الصدر .. وعلى الظهر .. وفى هذه الجيوب يمكن وضع الكتب والقلم والدواء والسندوتشات والراديو .. فالشاب لايأكل السندوتش فقط ، وإنما هو أيضا سندوتش .. هو سوبر ماركت !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى المعرض الدولى للطيران فى باريس ظهرت بدل رواد الفضاء الامريكان .. هذه البدل بها كل هذه الجيوب وقد أضيفت إليها أجهزة التكييف والضغط وظهرت بها أجهزة ألكترونية شديدة التعقيد .. وظهرت أجهزة لاحداث الذبذبة لكى ينام رائد الفضاء ، وأجهزة أخرى لكى توقظه .. وأجهزة الاتصال بمحطات المتابعة الأرضية .. أو سفن الفضاء الأخرى .. فرائد الفضاء قد حمل معه المطعم وغرفة النوم وغرفة العمليات والاتصالات .. كل ذلك فى بدلة واحدة ـ وهذا هو المثل الأعلى للشباب فى السنوات القادمة !

وفى الفيلم المعروف باسم « أطراف المدينة نجد منظرا مضحكا . لم يقصد به المؤلف أن يثير سخرية المشاهدين وانما اشفاقهم . فقد أتفق اثنان من المحبين بعد جهود مضنية على أن يكون بينهما لقاء .. أنه اللقاء المرتقب . والتقيا على ظهر احدى السفن العابرة للمحيط . الهواء عاصف والموج هادر ، والناس يصرخون ذهابا وإيابا .. والعاشقان ليس عندهما وقت لأن يقولا شيئا ، ولا عندهما مكان ، ولا أحد يسمح لهما بذلك .. بل أن وجودهما تعطيل لحركة المرور على ظهر السفينة ـ وهما ـ بلغة المرور ـ مزاحمان فى الطريق العام .. فإذا قال لها : أحبك .. فإنه لايستطيع أن يكمل هذه الجملة دون أن يجىء كرباج من الماء يصعقهما معا .. ودون أن يعترضهما البحارة وهم يضعون السلاسل والحبال .. وضاع الحب .. ضاع . !

أى لاوقت للحب . فالحب بطىء . أو ظاهرة متلكئة .. أو ظاهرة يؤدى وجودها إلى استنكار الأغلبية السريعة القول والعمل ، وبعد ذلك يجىء الزواج بغير حب .. والحب بغير حب . ! .

وتحاول شركات السينما وعدد هائل من المؤلفين أن يعودوا بنا إلى عصر :(ذهب مع الريح : و (قصة حب) و (مرارة الارز) .. ولاتزال المحاولة مستمرة ..

ثم اتجه الامريكان الى انفسهم يكشفون عيوبهم ، ويكاشفون انفسهم . وكانت البداية : هى السندوتش وهى القهوشية ..

فما لم يقرأ الطالب على مهل ويأكل على مهل ويتكلم على مهل ويفكر على مهل ، ويتأمل فإنه لن يبدع ..

ولابد ان يبدع لانه لا مجال للأفكار المتكررة والمعانى الممضوغة التى تجعل العقول فى دوائر مفرغة ، تماما كما تمضغ لبانا طول الوقت .. فلا اللبان طعام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمضغونه ثم يبتلعونه ، ولا هم ضاقوا به .. فيلقون به على الأرض .. وانما هو شيء يلوكونه فى الفم وينقلونه من جانب الى جانب .. كنوع من التفريج العصبى .. ولا ابداع عند الذين هم عصبيون ، ولا عند الذين يتخلصون من المعانى والافكار بشحنها فى الفاظ مكسرة .. فى علب مدشدشة .. كاسيتات ممسوحة .. واوراق ممزقة .. وكلمات متآكلة الحروف .. مطموسة المعانى !

وبعد ذلك قامت حملات توعية فى امريكا من رجال التربية وعلماء النفس والاقتصاد يا امريكان على مهلكم .. كلوا هنيئا ، واشربوا مريئا ، وناموا طويلا ، وتأملوا كثيرا ، واتركوا كتب الملخصات ، ومدوا ايديكم الى الروايات الطويلة : ففيها الخيال والعبارة الجميلة وفيها الصمت الطويل .. ولكى يتحقق لكم الصمت الجميل ، يجب ان تركنوا الى مكان هادىء جميل .. ويجب ان يكون الطعام فى مواعيد منتظمة .. وان يكون الطعام فى أطباق ، وان تمسكوا الشوك والسكاكين .. اتركوا طعام الورقة وطعام العلب وشراب العلب ، والكتب التى هى كاسيتات ، والكاسيتات التى هى معلبات .. ولا داعى للسرعة .. ان الشباب الذين يركبون السيارات وينطلقون بسرعة مجنونة ، ماذا يفعلون بالوقت الذى اختصروه .. يبددونه فى الكافيتريات والحانات او التسكع فى الشوارع .. او اللطعة على المقاهى .. انهم يهدرونه مرة اخرى .. فكأنهم بكامل الوعى ، يذهبون ليفقدوا الوعى ، وبكامل الصحة والعافية ، يتنازلون عن الصحة والعافية . فماذا فعلوا ؟ وماذا انجزوا ؟ اى شيء اضافوا ؟ الجواب عن كل ذلك : لا شيء ..

وهم ايضا لا شيء .. اى انهم حذفوا أنفسهم بأنفسهم .. اختصروا أنفسهم من قوائم الأحياء .. فلا هم احياء ولا هم أموات .. انهم مثل الذى يأكلونه ويشربونه ويقرأونه : طعام ولكنه ليس كالطعام ، وكتب وليست كالكتب .. انهم مرة اخرى مثل « اللبان » لا يبرح الفم .. ولكنه لا يغنى عن الطعام ولا يغنى عن الشراب .. ولكن الاقبال عليه شديد كأنه طعام وشراب .. وكذلك ما يسمعون من الموسيقى ومن الاعلانات وما يقرأون : لبان ليضاف إليه لبان !

★★★

هناك نظرية تقول : ان العضو يموت بموت الوظيفة !

أى أن العضو الذى لا يقوم بوظيفته فإنه يفقد الوظيفة . ومادام بلا وظيفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن هذا العضو يموت ايضا . فنحن لم نعد نستخدم الاسنان فى قطع الاشجار وتمزيق اللحوم .. إننا نستخدم السكين والشوكة .. وبمرور الوقت ضعفت أسنان الانسان ولم تعد قاطعة قوية كأسنان الحيوانات .. أو كما كانت أسنان الانسان من ألوف السنين ..

ولم تعد عند الانسان قدرة على الشم كالتى عند الحيوانات .. فالانسان كان يستخدم أنفه لمعرفة مكان الطعام ، ومعرفة الحيوانات المتوحشة التى تتربص به .. أما الآن فلم تعد لنا حاجة إلى حاسة شم قوية .. فضعفت حاسة الشم عند الانسان .. وهى فى طريقها إلى الا تكون ..

والانسان لم يعد يمشى على قدميه ويجرى من بلد إلى بلد ، فقد اخترع السيارة والطيارة تقوم بكل العمل .. ولم يعد الانسان فى حاجة إلى ان يصرخ على زملائه فى الغابات والكهوف ولا أن يصرخ اذا ما رأى الوحوش .. فالانسان قد اخترع التليفون والميكروفون والتلغراف ، كلها بدلا من استخدام احباله الصوتية ..

والاسماك فى الأعماق المظلمة للمحيط لها عيون لا ترى .. عيون مرسومة .. ولكن لان هذه العيون لم تعد تستخدم فى الأسماك ، فقد ماتت وظيفتها .. وسوف تنقرض هذه العيون لانها بلا وظيفة ..

والتكنولوجيا ماهى : انها علم تطوير الأطراف الصناعية للانسان .. بدلا من يديه وساقيه وعينيه وأذنيه .. وعقله أيضا .. وسوف تؤدى التكنولوجيا هذه إلى ضمور كل الأطراف الانسانية .. لأن وظيفة الأطراف الانسانية لم تعد ضرورية .. فنحن نستخدم التكنولوجيا أى علم تطوير أدوات الحياة للانسان لنستغنى عن استخدام الأيدى والاذرع والسيقان والعيون والاذان .. وعلى ذلك فسوف تضعف وتضمر كل هذه الأطراف . أما العقل الانسانى فسوف يبقى ، لأنه وحده الذى يخترع ويبتدع . وهو وحده الذى يجعلنا لانعتمد على أطراف الانسان .. أى إننا أمام مؤامرة من الانسان على الانسان .. فالعقل يعمل بعبقرية ضد بقية الأعضاء فى الجسم ..

ولذلك قال الأديب برنارد شو فى مسرحية « العودة إلى متوشالح » ومتوشالح هو أطول الناس عمراً ، فقد عاش ٩٦٩ سنة قبل طوفان نوح .. ـ أن العقل الانسانى سوف يتطور ويتطور حتى يصبح دماغ الأنسان فى حجم بطنه ، أما بقية الأطراف فسوف تكون مثل قرون الاستشعار عند الحشرات ـ لقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انقرضت .. فلم تعد لها ضرورة عند الانسان !

ويرى كاتب الفضاء الأمريكى كارل ساجان : إن هذه النظرية صحيحة مع تعديل طفيف .. وهو إن كل الأعضاء سوف تضمر وتنكمش وتتقلص وتنقرض .. إلا عقل الانسان ولسانه .. فاللسان هو وسيلة الاتصال بين كل العقول ... فإذا كان اللسان أقوى من الأذنين وأسرع من العينين ، فلانه قد استولى على قدرتها جميعا فى الادراك والتعبير .. فهو الذى انفرد بالقدرة على الاتصال بالأخرين !

وهذا هو التفسير المعقول لهذه السرعة الهائلة فى النطق وطرطشة الكلام وبعثرة المعانى عند أكثر الناس .. لأن اللسان هو الحاكم القوى والحاكم المتسلط على بقية الأعضاء !

★ ★ ★

ولكنى أرى أن هناك علاجا .. والعلاج سهل . وهو أيضا يبدأ فى البيت وفى المدرسة . وذلك بأن نعلم الطفل أن يتكلم على مهل . وأن يمضغ على مهل . وأن يأكل جالسا وأن يقرأ أيضا . فليس فى سباق مع أحد . وإنه ليس صحيحا إنه لم يعد هناك وقت . بل الوقت موجود . ويجب أن تجد وقتا لكل شىء .

وفى المدرسة أيضا يجب أن يتعلم الطفل والشاب كيف ينطق صحيحا ، وأن يفكر بطيئا .. تماما كما يأكل وكما يمضغ ، حتى تتمكن معدته من الهضم .. وأن السرعة والتسرع والاضطراب والعصبية والاستعجال تربك بقية الوظائف الجسمية .. وتلخبط العقل أيضا .

وكان عالمنا الكبير د . أحمد زكى قد جعل له شعارا يقول : غن ترقص معدتك أى من أجل أن ترقص معدتك يجب أن تغنى ..

والمعدة لاترقص إلا وهى تهضم ، وهى لا تهضم إلا ماتمضغه ونحن سعداء بذلك .. ونحن نستمتع بما نأكل .. هذه المتعة بين الأسنان .. هذه المتعة هى التى تجعل المعدة ترقص طربا !

وبالمرة نعلم الجميع خبر كان وإسم أن .. حتى إذا أصبحوا وزراء لم يخطئوا .. وحتى لا يكون هناك خطأ آخر أفدح وأقبح وهو أن يكون من آمال كل إنسان أن يكون وزيرا فإذا أصبح وزيرا جاء ذلك دليلا على عدم جدوى علوم النحو والصرف والبلاغة وفن النطق وفن الالقاء .. فأكثر الوزراء لايعرفون شيئا من كل ذلك ولا يجدونه ضروريا ! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والناس ينظرون إلى التليفزيون ويتجهون إلى الاذاعة ويتوقفون عند الصحف يبحثون عن القدوة الحسنة .. عن « الموديل » عن المانيكان التى تحسن عرض الكلام والافكار فى إيقاع رشيق أنيق .. فإذا لم يجدوا إلا هذه النماذج الشابة السيئة والقدوة الأسوأ ، والمانيكان المبهدلة .. فإنهم لايملكون إلا تقليدهم ، ظنا منهم أن هذا هو ماتريده الدولة بكل قوتها وأجهزتها وفلسفتها !

فمصر فى خطر من تحتها ومن فوقها وفى عقلها وقلبها .. وعلى السنة أعز الناس عليها : شبابها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التعبوية الغنائية

ما الذى فى أيام زمان وليس فى هذه الايام ؟

اخطف رجلك الى مكان بعيد عن المدينة .. وامسك ورقة وقلما واكتب ماذا يقوله الناس الاكبر سنا عن ايامهم .. التى هى العصور الذهبية للحياة فى مصر وفى العالم .

وسوف تجد ان الفرق بينك وبينهم انهم يرون ان العصر الذهبى كان ، وانك ترى ان العصر الذهبى سوف يكون .. ان الماضى ذهب ومعه كل شىء ، وانت ترى ان المستقبل سوف يدخر لك كل شىء ..

فهم ينظرون وراءهم فى حزن ، وانت تنظر امامك فى امل ..

كان زمان الدنيا غير الدنيا : الناس لهم قيمة .. والناس لهم قيم ومبادىء الواحد يملأ هدومه . وهدومه نظيفة انيقة . البدلة والكرافتة والسلسلة الذهبية تمسك الكرافتة والسلسلة الذهبية تمسك الساعة فى جيب الصديرى والكرافته كبيرة . لابد منها . الأب هو سيد البيت . والكلمة كلمته . الشخط والنطر . يدخل البيت فيموت كل من فى البيت . لقد جاء .. فكل شىء يجب ان يتوقف او يقف ليضرب تعظيم سلام لسيد البيت . واذا كان لابد من الكلام ، فالكلام همس ، والحركة لمس ..

والام ايضا ست البيت . ولاصوت يعلو على صوتها . ولا راد لقضائها انها الام « والجنة تحت اقدام الامهات » حديث نبوى شريف .

فما الذى يقوله الاب للاولاد .. يقول ان الشرف هو اعظم مايتصف به الانسان . والكرامة هى العنق وهى الراس . والانسان يجب ان يرعى كرامته . حتى لو جاع ، حتى لو مات . فالفقر مع الكرامة اعظم من الهوان مع الثراء . واداء الواجب على رقاب العباد . فكل انسان يجب ان يؤدى واجبه . أن يعمل . ان يذاكر . وان يتجه الى النجاح بالشرف والامانة . ومن الواجب ومن الامانة ان يصبر وان يضحى . فمن لايعرف الصبر ، لم يعرف لذة الحياة والنجاح .. ومن لم يتعب فلن يذوق طعم الراحة .. والرجل يجب ان يكون رجلا . والمرأة يجب ان تظل انثى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجل طول وعرض وقوام واستقامه وصلابة وشارب يقف عليه الصقر .. والمرأة يجب ان تكون انثى لطيفة رقيقة لاهى عظام بلا لحم ، ولا هى لحم بلا عظام ، وانما هى مثل « العرسة » .. رشيقة خفيفة ولكن يتغطى عظمها باللحم ..

وكل انسان فى مكانه فى موقعه .. الرجل فى موقع الرجولة .. المرأة فى مكان الانوثة .. هذا فى المكتب وهذه فى البيت .. العامل يرتدى البدلة الزرقاء .. الموظف البدلة والقميص الابيض والياقة المنشية .. والاحترام هو كل ما يربط الناس بعضها ببعض ..

والبيت من الداخل زى الفل ..

الشوارع كانوا يغسلونها بالماء والصابون .. لا توجد ورقة على الارض .. الناس لايلقون الورق واذا القاها احد جاء الكناس وحملها بسرعة .. وواجهات المحلات التجارية اعمال فنية .. شارع قصر النيل كأنه فى باريس وشارع سليمان باشا كأنه فى روما .. والقاهرة تجد صورها فى المجلات كأنها احدى العواصم الاوربية ..

أما وجوه الناس فكانت تضحك فى أدب ورقة .. صحة وعافية وأمل وسعادة ..

ان الواحد ينظر الى والده فيجده كأنه شاب صغير .. وينظر الى جده وجدته ، كأنهما فى منتصف العمر ..

وكان محمد عبد الوهاب وأم كلثوم والعقاد وطه حسين وشوقى ويوسف وهبى وعبود باشا والخواجات والأسرة المالكة فى غاية الاناقة والشياكة والجمال .. وكان الناس يقلدون الباشوات والبكوات ..

كانت دنيا وكانت لنا أيام ..

هيه .. هيه .. أيام .

يقولها كل من هو أكبر سنا وصدره يعلو ويهبط .. يعلو حسرة ويهبط حزنا على ما فات وعلى ما هو ات .. ويرى ان أولاده ليسوا هم الذين كان يحلم بهم ويحزن على مستقبل مصر على أيدى هؤلاء العيال .. التافهين الهايفين .. الذين لا يعرفون لهم رجلين لأنهم فقدوا الرأس وضلوا وراء العقل ودخلوا مع القلب . ولا فرق عندهم بين الرأس والقلب .. ولا بين اليوم والغد .. ومطربهم عبد الحليم حافظ يقول : ولا أعرف بكرة من أمبارح ولا دقة قلبك من قلبى !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماذا جرى بعد ذلك ..

هبت اعاصير من وعلى أوروبا ، وعواصف على ومن امريكا اطاحت بالعقل وحطمت القلب وهلهلت العلاقات العائلية ، والروابط الاجتماعية وظهر الشباب فى نصف هدومهم أو بغير هدومهم .. ورأوا ان جلودهم المنقوشة بالأحمر والأبيض هى ملابسهم الجديدة .. ملابسهم التى لا تبلى .. وانما هى الملابس التى يرسمونها على اللحم كل يوم ..

وعرفنا نحن ـ فى مصر ـ فى الستينيات مقدمات الحرب والحرب والهزيمة .. عرفنا « التعبئة » أسلوبا فى الحياة وفى العمل .. فكل شىء معبأ للحرب والكراهية .. كل شىء معبأ للنصر .. كل شىء معبأ للزهور والغرور فلما جاءت الحرب وقعت الهزيمة العسكرية والانهيار النفسى والانحطاط الاجتماعى والفوضى السلوكية ..

فبدأنا نعبىء أنفسنا لابتلاع الهزيمة ، وأفكارها .. ونعبىء الكراهية ضد الغرب الذى ساعد على هزيمتنا .. ودقت طبول الانتقام والحقد والمرارة .. من أجل ان نتخطى الهزيمة وان نقوم بدور الضحية والشهيد . فالذين حاربوا ضحايا ، والذين لم يحاربوا شهداء ..

فمصر مقبرة الغزاة .. ومقبرة المواطنين أيضا ! لقد تحولت مصر الى مدينة الموتى ـ كل من فيها أما حانوتى أو ميت أو سائر فى جنازة .. فكل بيت مقبرة وكل سرير تابوت .. وعبأنا أنفسنا نغنى ونطبل ونزمر للهزيمة ..

فالمطرب والمؤلف والملحن « مداح » للسلطان ومداح للنبى عليه السلام .. وكل مناسباتنا رقص على رماد الهزيمة ، وطبل فى مؤخرة المواكب التى ظاهرها النصر وباطنها العار ..

ولذلك كان غضب الشباب على هذه الفنون « التعبوية ».. اى تجنيد الناس واستنفارهم من اجل المعارك الوهمية للبطولة والنصر على الأعداء دون اى استعداد حقيقى لذلك .. لكن المهم هو « الطابور » والسير فيه .. وان ينكتم الناس فلا ينطقون بآهة واحدة . لان المعركة هى الصوت والسوط ، ولا صوت ولا سوط يعلو على المعركة !

ولذلك كان الغضب الشباب وتمردهم وسخطهم وكفرهم بكل الفنون التعبوية فى التأليف الغنائى والمسرحى والتلحين ..

وفى الوقت نفسه كانت مظاهرات الشباب فى أوروبا وامريكا .. فهم ثائرون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ايام زمان ـ ايام هتلر وموسوليني وستالين وعبد الناصر . ايام الرجل الواحد القاهر الجبار .. ايام التعبئة والحشود والموت بالجملة من اجل عظمة الرجل الواحد ..

واذا كان الاكبر سنا يرتدون البدلة الكاملة ، فعند الشبان يكفى البنطلون والقميص .. أو لا داعى للقميص .. والفتاة تكفيها الجوب من اى حجم ومن اى لون .. والبلوزة على اللحم .. والشعر منكوش .. والذى فى ذراعها ليس اباها ولا اخاها وانما زميل ليس من الضرورى ان يكون خطيبها .. فالخطيبة والزوجة والوقوف امام المأذون تقول : وكلت ابى أو أخى .. ويقول العريس : وانا قبلت نكاحها على مذهب ابى حنيفة .. أو يقف امام القس ويقول : قبلتها زوجة على الحلوة والمرة .. وهى تقول كذلك ، ويقول القس : اعلن انكما زوجان .. أمين .. مبروك ـ فقد كفر الشباب بالطقوس التى ضاعفت هوان الشاب المتعلم الفقير !

ولا أم كلثوم ولا عبد الوهاب ولا سيد درويش تدخل الدماغ وانما موسيقى من اى بلد .. ولابد ان تكون راقصة .. فلم يعد الجلوس مضموم الساقين هو الأدب .. وانما الحركة والرقص والخروج من البيت والخروج على البيت .. والخروج من المدرسة والخروج على الجامعة .. هذا هو الاسلوب . وهذه هى الحياة .. ولم يعد الأدب هو ان يطبق الانسان شفتيه مادام لا يجد ما يقوله . وانما امتلأت الافواه باللبان الامريكى .. والكلام نوع من اللبان ايضا .. والالفاظ لبان نمضغه ونديره يمينا وشمالا .. وليس من الضرورى ان يكمل الانسان جملة يقولها .. ولا ان تجىء الكلمات كاملة الحروف .. ولذلك كان الكلام بسرعة . والسرعة تؤدى الى تساقط الحروف وتأكل الكلمات .. والكبار لا يفهمون ما يقوله الشباب .. والكبار ليس من الضرورى ان يفهموا .. فالشباب يفهم . وانتهى عصر العبارات المضبوطة والكلمات الواضحة . فالشباب لهم لغة .. واللغة لها مفردات من حقهم هم . هذه حياتهم . وهذه لغتهم . وهذا اسلوبهم فى الحديث .. وهم أحرار فى الذى يصنعونه بحياتهم وكلماتهم وعلاقاتهم .. فكما ان الاب ليس هو المثل الاعلى والأم ليست كذلك ، فالبيت ليس هو المقر الرسمى للشباب . ان البيت هو احدى المحطات على طريق الحياة الحرة فى الشارع أو فى الاكواخ أو الحانات والمواخير أو الغابات ..

ومادامو ليسوا فى بيوت فليس لهم جيران . ولا احترام للجار ولا حرمة للبيوت . ولذلك فموسيقاهم صاخبة وأغانيهم عاوية . وهم يدبدبون على الأرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليلا ونهارا .. وهم لم يخرقوا الارض ولم يتطاولوا على الجبال . وانما هم ارهقوا اجسادهم وأهلكوا اقدامهم وسيقانهم . فتساقطوا مرهقين ينامون حيث يصلون وحيث يرقصون ويسكرون ويحششون ..

واذا كان اباؤهم يطلبون منهم غسل ايديهم قبل الاكل وبعده ، فلن يفعلوا . لقد تعبوا من نصائح الوالدين . وضاقوا بحكاية الحياة زمان والاخلاق زمان .. فهذا زمانهم وهذه حياتهم . يفعلون بها ما يشاءون . انتهى الوقت الذى كان الابن يبوس القدم من اجل ان يحصل على مصروف يشترى به كتبا ، او يشترى به ملابس .. فالأب يعطى ابنه او ابنته المصروف الذى يطلبه . ولا شأن له بنوع السجائر الذى يشتريه ، ولا نوع الخيام التى سوف يقضى فيها الاجازة الصيفية .. ولا ان كانت الفتاة النائمة التى جواره فى مثل سنه أو أصغر عشر سنوات .. ولا ان كان ابنهما الرضيع ابنا شرعيا أو جاء هكذا دون عقد قانونى .. فالعقد القانونى هو انه يحبها ، وهى ايضا . انتهى ..

ففى الستينات والسبعينات فى اوروبا وأمريكا ومصر ايضا هز الشباب كتفيه للقانون وقواعد الحياة العائلية والاصول الاجتماعية .. ثم انه ضد الدولة بسلطانها ومؤسساتها ..

والشباب فى العالم كله هارب من مواجهة الدولة بقوتها وجبروتها الى الجماعات الفقيرة .. جماعات الشيوعيين والاخوان المسلمين وعصابات السطو والخطف والتزوير .. وغرز الحشيش .. والشاب ليس عنده برنامج ولا خطة عمل .. انه فقط هربان .. ويريد ان يظل هاربا .. فالجرائم التى ارتكبها أبوه ومن قبله جده ، لا شأن له بها .. انه لم يساعد على ان صار الملك فاروق فاسدا هو والحاشية .. ولم يتدخل فى الثورة على الملك فاروق .. ولا شارك فى ثورة يوليو التى اسقطت ملكا وعينت عشرين ملكا والتى اطاحت بقواعد المجتمع ، وشوهت تاريخه ، وفرضت عليه تاريخا مزيفا .. ودخلت حروبا انهزمت فيها جميعا .. لقد كان الفاسد هو جيل الاجداد والثوار جيل الآباء .. وهم ايضا الفاسدون المحترفون .. ثم انهم يعاقبون انفسهم على ما كل منهم .. وعلى ما كان من غيرهم .. فما ذنب الشباب ان يرتدى الحداد ، وان يمشى فى جنازات لا اول لها ولا آخر .. وان يلطم خديه بكاذب الكلام ، وسخيف الاغانى ، ومقرف الالحان .. ما ذنبه .. ما دخله .. ولماذا نعاقبه او يعاقب نفسه على كل ذلك ؟!

فكان الهروب هو العلاج !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن السخط عند الشباب تهتز عواصف فى كل الاتجاهات .. شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .. اتجاهات مضادة . فالشباب لا يهمه الاتجاه . وانما يهمه فقط ان يخرج وان يصرخ وان يثور وان يلعن وان يهدم وهو ينطلق .

فأهم مواصفات حركات الشباب فى العالم هو : الخروج والانطلاق .. فظهرت موجات اللامبالين ..

اى الذين لا يهمهم ما كان ولا ماهو كائن .. فالذى كان ، هم على يقين منه انه مايزال موجودا .. والذى هو كائن ، فالشباب على يقين من انه غامض ..

ثم انهم كرهوا ان يقفوا فى الصف . وكرهوا ان يعارضوا وان يهتفوا .. وضاقوا بان يكون لهم اسم ورسم وعلاقة وشعار ..

انهم فقط عندنا وفى العالم كله لا يبالون بأى شىء .. ان ظهورهم للحائط وعيونهم الى السماء .. ويمدون ايديهم يتناولون ما يجدون .. فإن لم يجدوا مدوا ايديهم الى الناس .. أو سرقوا من بيوتهم .. أو خطفوا .. وهم لا يرفعون سكينا ولا يعمرون بندقية .. فقط يريدون ان يموتوا فى سلام .. اما الحياة فليست ما يريدون .. فقط ان يتفرجوا على الذين يسابقون الاتوبيس ويتشعبطون فى الترام .. وعندهم وقت لكى يضحكوا على ذلك .. ويسخروا من انفسهم .. ثم انهم لا يحملون حقدا لأحد غيرهم ..

اما هذه الكتب وهذه الكاستات وماذا تنشر الصحف وما يقال فى الجامعات ، فذلك لا معنى له .. فلا تهمهم الحضارة الانسانية .. ما قال الانسان وما عمل .. وما اضاف .. وما اقام من الناطحات .. وأبدع من الطائرات .. وما كدس من القنابل النووية .. لا شأن لهم بكل ذلك . انها ليست حضارة .. لان الحضارة هى التى توفر للانسان ماهو ضرورى دون جهد يبذله .. فمادام كل ذلك لا يقدم له الطعام والخمر والجنس مجانا ، فلا حضارة هناك ..

واذا كان الشباب الاخرون يفضلون النوم والأكل والشرب والجنس فى الظلام ، فى المواخير والزرايب فقد ظهرت موجة جديدة من الشباب يفضلون الوضوح .. المطاعم الصاعقة الألوان ، والحانات الباهرة الألوان .. التى تكشفهم عراة امام انفسهم .. وامام الاخرين .. وأصبحت النظارات السوداء موضة .. يواجهون بها الأنوار .. واصبح احمرار العينين والرمد دليلا على هذه الموجة الغاضبة على الظلام .. تماما كما كانوا فى عصر الرومانسية الاوروبية يتباهون بالاصابة بالالتهاب الرئوى والسل ، وذلك من شدة الحساسية فكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مألوفا ان نجد الفتيات الجميلات يبصقن دما فى الشوارع .. وذلك دليل على منتهى الرقة ..

والشاعر العربى القديم الذى وصف المحبوب بأن لمس الحرير يدمى بنانه .. معناه انه حساس لدرجة ان مرور الحرير على بشرته يجعله ينزف دما . والشاعر العربى القديم قد تنبأ بما سوف يحدث بعد ذلك فى القرن العشرين .. فبعض النساء عندهن حساسية شديدة للخيوط الصناعية مثل النايلون .. هذه الخيوط بما فيها من مواد كيماوية تصيب البشرة بالتهاب يدعو الى الهرش الدامى !

وهؤلاء الشبان قد جعلوا كل شىء ابيض فى حياتهم .. الجدران والادوات والملابس ولذلك يفضلون الماء على غيره من المشروبات الملونة !

وظهرت موجة جديدة تدعو الى الاعتدال وخاصة فى الدول الاوروبية .. فاصبح المثل الاعلى هو الاتزان والتوافق .. والمظهر الانيق المحترم .. والانضباط فى الدراسة وفى العمل .. والتوازى بين اللعب والجد .. بين السهر والنوم .. بين البقاء فى بيت الاسرة حتى العشرين والاستقلال بعد ذلك .. فظهرت الصحة على الوجوه والاناقة فى الملابس .. والرفق بالآباء والعطف على الاجداد ، والاهتمام البالغ بالاطفال والمستقبل ..

ولذلك اصبح العمل ضرورة . والكسب وسيلة الحياة الافضل .. وتعلقت صور ابطال الرياضة وكبار العلماء والادباء ونجوم السينما على الجدران ..

ومعنى ذلك ان الشباب يعترف بالحاضر . ويرى ان المشاركة ممكنة . وان استمراره على ايديهم ممكن . وانهم جزء من الحاضر ومن المستقبل . فهم لم يلعنوا الماضى من اجل المستقبل الموهوم .. فلاهم يؤمنون بان الجنة كانت ولن تعود .. ولا بأنها بعيدة المنال فى المستقبل .. ولكن يرون ان الحاضر هو عتبة العصر الذهبى الممكن بالعلم والعمل ..

ففى المانيا مثلا اسس الاديب هانس ريشتر مجموعة من الأدباء والفنانين الشباب الذين عادوا من المنفى ومن المعتقلات الامريكية والبريطانية والفرنسية والروسية . هؤلاء الشبان قرروا ان ينهضوا ببلادهم .. اجتمعوا . احتشدوا لم يجدوا مكانا فوقفوا على النواصى يقرأون قصصهم وقصائدهم .. لم يجدوا القاعات يعرضون فيها لوحاتهم .. ثم انهم اصغر من ان يقدروا على شراء القماش يرسمون عليه ، فراحوا يرسمون على الأرض .. فالشوارع هى معارضهم والمشاة جميعا مدعوون للفرجة عليهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظلت هذه المجموعة تلتقى وتقرأ وتسمع وترسم والناس يتفرجون ، حتى ظهر منهم اديب عظيم هو هينيريش بيل الذى فاز بجائزة نوبل فى الادب .. والروائى الكبير جنتر جراس .. وعلماء اخرون فازوا بجوائز نوبل فى الفيزياء والكيمياء والطب ..

وكان من الممكن ان تظهر عندنا فى مصر « مجموعة ١٩٦٧ » تحاول ان تدرس ما حدث وما اصابنا .. وترسم لها طريقا للخروج من الهوان العسكرى والقهر النفسى .. ولكن لم يحدث . وكان معنى ذلك اننا اردنا ان نعذب انفسنا اكثر واكبر واعمق .. وان نعاقب انفسنا على اننا صدقنا ما قيل لنا ، وآمنا بما زوروه علينا .. فكان تعذيب النفس سبيلا الى تطهيرها وتخليصها من العفاريت التاريخية التى تلبست اجسادنا ولم تخرج . بل اننا ذهبنا الى ابعد من ذلك فاتجهنا الى فرنسا ننقل مسارحها الى مسارحنا .. ننقل كل مسرحيات « العبث » من تأليف يونسكو وادامـوف وارابال وبيكت وغيرهم . تأكيدا لمعنى ان « العبث » هو حياتنا وحاضرنا ومستقبلنا .

والعبث معناه : لا فائدة من شىء ولا امل فى شىء ولا خلاص ولا نهضة .. فان لم يكن هذا هو الموت ، فهى رغبتنا العميقة فى ذلك ..

وفى الستينات كان العبث حزينا كئيبا .. وفى السبعينات والثمانينات اصبح العبث ضاحكا سعيدا باننا انتقلنا من جنازة نحمل فيها نعش حاضرنا .. الى زفة عروسين .. نزف فيها حاضرنا الى مستقبلنا وننسى ان ننظر الى وجه العروسين .. انهما صورتان وليسا جسدين .. انهما شاهدان على قبر ، وليسا لحما ودما .. فنحن مرة اخرى سعداء بقدرتنا الفذة على خداع انفسنا بانفسنا وتصديقنا لكل ما نهذى به . فكأننا لم نخرج من ضباب العبث كل ما حدث اننا أحرقتنا السجائر فى اصابعنا .. فى الستينات كنا نلف اوراق الصحف على شكل سجائر وندخنها .. والآن ندخن الحشيش ونحن نستمع الى صوت الشيخ محمد رفعت .. ونضحك ونضحك !

وهناك محاولتان لاقتلاع الماضى من اعماقنا .. واحدة يقوم بها الشباب المتدين .. وواحدة يقوم الشباب الذى يغنى لنفسه ولا يغنى من الاذاعة والتليفزيون لاحد .. فهؤلاء الشباب ليسوا مضطرين ان يكونوا « مداحين » للسلطان .. ولا حتى الهرم وابو الهول والنيل .. فقط للقمر وللمحبوبة ، وكلاهما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قمر فى ليالى العشاق الصغار .. ثم اهم من كل ذلك انهم يدعونك الى الرقص ..

اما الشباب المتدين فهو الذى يقف على اعظم القواعد واقواها واثبتها .. على قاعدة : لا اله الا الله محمد رسول الله ـ انعم واكرم !

ولكنهم ليسوا هكذا متدينين مؤمنين يريدون وجه الله .. وانما هم ايضا غاضبون ساخطون وهاربون .. يشعرون بالعزلة ، يكلمون انفسهم . ولا يجدون احدا يقولون له ، ولا احد يقول لهم .

فالتقوا وداروا حول انفسهم يقولون ويرددون .. ويتفرجون على الدنيا حولهم ، انها لا تعجبهم . ولا هى منهم ، ولا هم منها .. هم يرفضونها وهى تنبذهم . هى الاقوى وهم الاضعف بسلاحهم ، ولكنهم الاقوى بربهم . هى تقول : إما أنا وإما أنتم .. وهم يقولون : إما نحن وإما أنت ..

والأمل ان نقول معا : نحن معا ..

ولكى نكون معا لابد ان نتفاهم . ان نتفق ، ما هى غلطتنا ، ما هى جريمتنا ، ومن الذى يحكم بالعدل بيننا ؟ انه كتاب الله ..

والتهمة المتبادلة . ان الشباب له فهم والسلطة لها فهم .. السلطة تقول : شباب طائش جاهل أحمق .. اصابعه من الديناميت يخيف الناس حتى لا يقرب منه احد .

بينما هم يريدوننا ان نقترب وان نتقارب وان نكون من ذوى القربى ، ولكن كيف ؟!

والشباب يقول : السلطة قوة غاشمة .. بالاضافة الى سلطة ملايين الآباء الرافضين لأولادهم .. تريد ان تحتضن الشبان .. ولكن كيف تحتضن وقد ارتدت جلد القنفد كيف تتحدث الى من كلماته نار .. ووعيده زنازين وافكاره كرابيج .. كيف يفرضون الغرابة والغربة علينا ، ثم يتشدقون بالقرب والحب والأمن والامان ؟!

انها مشكلة لم تحل .. ولن تحل الا باقامة الجسور فى الصحف والتليفزيون والشاشة والمدرجات ، لابد من المواجهة .. لا خوف . ان الشباب فى اوروبا وامريكا كان اعنف واعمق . ولكن كل شىء قد هدأ .. لان المواجهة والحوار والامان قد كان الهواء يتنفسه الجميع ، والطعام يتبادله الآباء والابناء والمدرسون ورجال الدين .. ان كان الشباب مريضا فكيف نواجه المرض ؟ ان كان طاعونا ، فكيف نواجهه ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اذن فأمامنا مشوار طويل حتى نصل الى التفاهم والصلح .. انه ليس صلحا مع قوة اجنبية .. انه صلح مع اعز الناس علينا .. انه صلح عائلى .. اننا نصالح انفسنا على انفسنا حاضرنا على مستقبلنا على جنة ماضينا !

اما هؤلاء الساخطون الغاضبون الرافضون الشبان الذين لا يجمعهم اى فكر او أية نظرية فهم الذين طلعوا علينا باسلوب جديد فى الغناء واللحن .. انهم سامى الحفناوى وناصر المزداوى (ليبى) وابراهيم فهمى (ليبى) وحميد الشاعرى (نصف ليبى) وفارس (نصف ليبى) وابراهيم عبد القادر وعلى حميدة من مرسى مطروح على الحدود الليبية واسلام وحنان وهالة وانوشكا (أرمنية) وسيمون .. اسماء يعرفها الشباب أو يسمعونها ولا يعرفونها . المهم انهم يسمعونها ويدمنونها !! فجأة ظهرت كاستات هؤلاء الشباب فى الأسواق تباع بالألوف وبعد ذلك بالملايين .. اى الناس هم الذين اكتشفوا هذه الاغانى واصوات اصحابها .. ثم الملحنون . فمن أين جاءوا ؟ وكيف ظهروا ؟ وما الذى جمع بينهم ؟ واى شىء يمثلونه .. ولماذا الاقبال عليهم .. وليس من بينهم الا ثلاثة اصوات قد وافقت عليها لجنة الاستماع فى الاذاعة على حميدة وفارس وابراهيم عبد القادر ..

اما اغنياتهم فهى سريعة راقصة وكلماتها بسيطة رقيقة .. والأغنية دقيقتان او ثلاث .. مئات الاغانى تظهر فى وقت واحد .. واذا وقفت بالسيارة فى اشارة المرور جاءتك هذه الاغانى عالية من كل السيارات .. وفى كل البيوت وعلى الشواطىء ..

وهؤلاء الشبان يغنون مجانا فى المدارس والجامعات .. ويجدون فى « التوطين » النفسى بين شبان مثلهم نوعا من الاكتفاء الذاتى .. واستفتاء حرا بقبولهم مطربين ممثلين للشعب الشاب فى مصر .. ويكون هذا الاستفتاء موجها ضد السلطة .. اى ضد الاذاعة والتليفزيون .. وضد الفنون « التعبوية » ـ اى التى تخرج فى المناسبات السياسية والدينية ..

ويكون هذا النوع من « المدح » هو تأشيرة للدخول للإذاعة على الملايين .. ولذلك هؤلاء الشبان لايجمعهم ناد واحد .. أو حوش واحد .. ولا شخص يلتفون حوله .. ولاعندهم نظرية .. وإنما هم يغنون ويرقصون .. ويكون رواجهم بين الشبان ، إجماعا يدعو إلى استمرارهم .. وحرصهم على الاستمرار هو الذى شغلهم عن أن ينظروا إلى أنفسهم أو حتى يستمعوا إلى أنفسهم ليكتشفوا ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألحانهم متشابهة ورقصاتهم متطابقة .. ولذلك يجب أن يتداركو هذه الغلطة وأن يغيروا ويتغيروا قبل أن يملهم الشباب .. وأن يلتف إلى غيرهم من بعدهم أو إلى غيرهم من قبلهم .. إلى أم كلثوم وعبدالوهاب وسيد درويش وان كان الغناء القديم مايزال على عرش الطرب قويا فخما وعظيم الاحترام بين كل الناس .. وبين الشباب أيضا .

إن ليبيا لم تنتقل إلى مصر .. كانت لها مسيرات مرفوضة .. فوضوية .. رفضناها .. فكل الذى يربطنا بها الآن هو استنكارنا للإرهاب السياسى والعنف الدعائى .. كالتى عرفناها فى الستينات وبعد الهزيمة العسكرية .. إن ليبيا صورة باقية لكل الذى كرهناه فى ماضينا إنها تكرار ممل .. وإحياء لما نريده أن يموت .. ولكن الفن الليبى دخل بالذوق وبالضرورة النفسية إلى حياتنا ..

وقد سمعت من المطرب المغربى الكبير عبدالوهاب الدكالى إن فى الجزائر موجة غنائية احتجاجية أيضا .. وإن المطربين الجزائريين يغنون فى نوادى الليل فى باريس .. وإنهم أكثر تجمعا وأصدق تمثيلا للشعور العام فى الجزائر .. بل الأغانى الجزائرية هى المتنفس الوحيد للشعب الجزائرى ، فلا عنده أدب ساخط ، ولامسرح غاضب ، لكن مطربون وملحنون مغتربون ..

أى رافضون للفنون « التعبوية » .. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهبت الأغانى المصرية .. إنهم أقرب إلى المسرح المصرى .. إلى العبث المسرحى فى مصر .. فالأغانى موزونة ولكن لامعنى لكلماتها .. كأن الفنان الجزائرى اكتفى بأن يجعل الأغنيات كلمات موزونة .. فهى موسيقية بلا معنى .. فالمطرب الجزائرى ليس إلا آداة موسيقية تواجه الناس وهى ترقص ولاتقول شيئا ، لماذا ؟ لأنه لايريد أن يقول .. لايريد أن يقول لأنه لامعنى للكلام ولا جدوى ولا فائدة : قمة العبث !

وهو غضب وسخط واحتجاج على الواقع الذى جعل الشبان غرباء فى بلادهم .. فى لغتهم .. رافضون أن يكون بينهم وبين المستمعين أى حوار .. فكل منهم رافض للآخر .. ولذلك يواجهون المجتمع الجزائرى فى باريس وليس فى الجزائر ..

والمطربون المصريون رافضون .. غاضبون .. ولكن الغضب لم يمنعهم من الغناء .. إنهم « طيور النار » التى تهاجر كل سنة إلى مملكة أسام فى آسيا .. ثم ترمى بنفسها فى النار .. تماما كما كان يفعل الكاميكاز اليابانى .. الذى وضعوه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الطوربيد ليوجهه نحو الهدف لينفجرا معا .. لايهم إنه مات .. المهم إنه أمات عدوه ..

إنهم مثل « طيور الشوك » .. تلك الطيور الاسترالية التى تسافر طويلا لتجد شجرة شائكة .. ثم تنتقى أطول شوكة وتغرسها فى جسدها .. وتستخدم كل قوتها وقدرتها لتجعل الشوكة تدخل قلبها .. وتنزف دما .. وتطلق أروع صيحاتها .. مع كل قطرة دم من حياتها .. إنها تقتل نفسها غناء ورقصا .. إنها تضحى بحياتها .. ولكن من أجل اللحن الجميل والرقص البديع تهون الحياة فهى لم تجد وسيلة لأجمل الأغانى إلا بالموت على مرأى من الأحياء واحتجاجا عليهم ..

ويموت الفنان ويبقى الفن .. ويختفى شكل الغضب وتبقى صورته .. يذهب الصوت الذبيح ويبقى صداه والأسف النبيل على كل ذلك . !

إنها مثل « انتفاضة » الفلسطينيين فى بلادهم .. إنهم لايستخدمون الحديد والنار .. فقط يمدون أيديهم إلى الأرض ويقطعون الأحجار ويرمونها على المصفحات والمدرعات .. ولن تنتهى الحجارة مادامت هناك جبال وهضاب .. وحتى إذا اختفت الهضاب سوف يجمعون عضامهم ويجعلونها طوبا حتى تكون لهم الأرض التى هى العرض .. !

وقديما حدثت التوراة عن الصراع بين الفتى اليهودى داود والعملاق الفلسطينى جوليات .. كان جوليات مدرعا بالحديد مخيفا لكل الناس .. ولكن الفتى الذكى داود عرف نقطة ضعف العملاق فضربه بطوبة أصابته فى جبهته فسقط مغشيا عليه .

. انقلبت الآية الآن : فالفلسطينى هو الذى يلقى الطوب على داود المدرع بالحديد والنار .. وهو لم يصرعه قتيلا ولكن اصابه بالجنون .. فالذين يمسكون الطوب يثبتون أنهم منزوعو السلاح ، ولكنهم ليسوا منزوعى الارادة ، ليسوا مجردين من الغضب والسخط والاحتقار ..

وكذلك هؤلاء الشبان الصغار يلقون الكاستات على الإذاعة والتليفزيون والصحف .. إنها « الإنتفاضة الغنائية ضد النظرية التعبوية المدرعة بالميكروفون والشاشة والصحف » .

وسوف ينتصر الشباب بالشباب .. وسوف يبقى كل مايريد الناس ، تعبيرا عن حريتهم وعن إرادتهم وعن انتفاضتهم النبيلة ليعيشوا صوتا مفرحا وصورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كريمة لهم .. أى لهذا الجيل ، لهذا المستقبل !

★ ★ ★

كل الشباب يكرهون أن يكونوا « قراطيس » تملؤها المؤسسات والهيئات أو التراب .. يكرهون أن يكونوا زجاجات تملؤها الدول بماء الورد أو بماء النار .. أن يكونوا قوالب طوب لبناء جسر أو بناء ضريح .. يكرهون أنفسهم ويحتقرونها إذا لم يكن لهم رأى فى هذه « التعبئة » العنيفة لقدراتهم وملكاتهم وخريطة مستقبلهم .. أو التعبئة الإعلامية والسياسية والدينية ضدهم .. !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علشانك يا قمر .

من ستين عاما كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يغنى من تأليف أمير الشعراء :

والبان فى عوده سيد القمر فى سماه . بينى وبين القمر فى كل ليلة ميعاد .. وأم كلثوم تغنى : هلت ليالى القمر .. ومحمد فوزى : علشانك ياقمر .. والمطرب الصاعد إبراهيم عبد القادر : القمر قمرنا .. والسهر سهرنا ..

وسوف يتغنى كل فنان وعاشق بجمال هذا الحجر الدائر فى فلك الأرض التى تدور فى فلك الشمس .. قال تعالى : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ..

وقديما قال الشاعر البحترى يصف محبوبته :

« اضيرت بضوء البدر والبدر طالع
وقامت مقام البدر لما تغيبا »

وقال ابن الرومى فى وصف المحبوبة :

« إن أقبلت فالبدر لاح ، وأن مشت
فالمسك فاح ، وأن رنت فالريم » .. أى وإذا تلفتت فهى غزال ..

وقال ابن المعتز ينصح المحبين أن يلتقوا ليلا ، لأن الشمس تفضح ولكن القمر يقودك إلى المحبوب :

لاتلق إلا بليل من تواصله
فالشمس نمامة والليل قواد
كم عاشق وظلام الليل يستره
لاقى أحبته والناس رقاد

وقال المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وقد اعتبر النقاد هذا البيت أروع ماقال المتنبى وأروع ما قال العرب .. وأن هذا البيت هو « أمير » الشعر كله !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال أمير الشعراء أحمد شوقى يصف القمر وراء الجبال فى ليلة المولد النبوى :

فديناك من زائر مرتقب
بدا للوجود بمرأى عجب
تهز الجبال تباشيره
كما هز عطف الطروف الطرب
ويجلى البحار بلآلئه
فمنا الكئوس ومنه الحبب
أتانا من البحر فى زورق
لجينا مجاديفه من ذهب
فلا هو خاف ولا هو ظاهر
ولا سافر ولا منتقب
وليس بثاو ولا راحل
ولا بالبعيد ، ولا المقترب
توارى بنصف خلال السحب
ونصف على جبل لم يغب
يجددها أية قد خلت
ويذكر ميلاد خير العرب

وقال شاعرنا الرومانسى على محمود طه يصف القمر العاشق الذى يتسلل من النافذة إلى المحبوبة وقد نامت فى فستانها الرقيق ، فيغار الشاعر من القمر ويطلب إليها أن تغلق النافذة :

إذا ماطاف بالشرفة ضوء القمر المضنى
ورف عليك مثل الحلم أو اشراقه المعنى
وأنت على فراش الطهر كالزئبقة الوسنى
فضمى جسمك العارى
وصونى ذلك الحسنا

★ ★ ★

أغار عليك من حاب
كأن لضوئه لحنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدق له قلوب الحور أشواقا اذا غنى
رقيق اللمس عربيد
بكل مليحة يضنى
جرىء أن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا

* * *

أغار أغار إن قبل هذا الثغر أو ثنى
ولف النهد فى لين
وضم الجسد اللدنا
فإن لضوئه قلبا
وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذراء
من أغوارها وهنا

* * *

فردى الشرفة الحمراء
دون المخدع الأسنى
وصونى الحسن من ثورة
هذا العاشق المضنى
مخافة أن يظن الناس فى مخدعك الظنا
فكم أقلقت من ليل !
وكم من قمر جنا !

ومن أروع مانظم على محمود طه قصيدته فى وصف « الخيال » الذى يعبده الشعراء حتى الجنون :

عشقنا الدمى وعبدنا الصور
وهمنا لكل خيال عبر
وصغنا لك الشعر ، حب الصبا
وشدو الأمانى وشجو الذكر
تغنت به القبل الخالدات
وغنى بإيقاعها المبتكر
وجئنا اليك بملك الهوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعرش القلوب وحكم القدر
وأنت بأفقك ساجى اللحاظ
تطل على سبحات الذكر
دنوت فقلنا : رؤى الحالمين
فلما بعدت أتهمنا النظر
وحامت عليك بأضوائها
مصابيح مثل عيون الزهر
تتبعن خطوك عبر الطريق
كما يتحرى الدليل الأثر
يقبلن من قدميك الخطى
كما قبل الوثنى الحجر
مشى الحسن حولك فى موكب
يرف عليه لواء الظفر
تمثل صدرك سلطانه
كجبار واد تحدى الخطر
بنهدين يستقبلان السماء
كأنهما يرضعان القمر !

وقال مصطفى صادق الرافعى :

يامن على البعد ينسانا ونذكره
لسوف تذكرنا يوما وننساكا
أن الظلام الذى يجلوك ياقمر
له صباح متى تدركه أخفاكا

ولا نهاية ولا بداية لما قيل وسوف يقال عن القمر ..وسحر ضيائه وما يهمس به للشاعر والعاشق .. ولكل عين وكل قلب وكل خيال .. ففى ليالى القمر يولد الحب ويعيش ..

وقد عبد الانسان القمر .. كما عبد الشمس والبحر والأرض .. عبد الانسان كل القوى التى يخاف منها ، وكل القوى التى يعيش عليها ..

ولكن جاء العلم الحديث يهدم كل المعبودات واحدا واحدا .. ابتداء بالشمس والقمر .. وانهاها بالانسان نفسه .. فلم يعد الانسان يعبد الملوك والكهنة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل كان الأنسان أسعد حالا يوم أقام لنفسه الأصنام فى كل مكان يصنع الأصنام ثم يخر لها ساجدا ؟

هل كان الانسان أسعد عندما كانت حرفته وديانته هى صناعة الألهة ؟ هل أصبح الأنسان أتعس عندما حطم الألهة وانتصب واقفا يقول : لا آلهة .. لا أصنام أى عندما بصق على السماء ، فارتد إليه ما فعل ؟

- ٢ -

لقد آمن الانسان ألوف السنين بأن القمر يصيبه بالجنون .. ولذلك نجد فى اللغات الأوروبية أن الجنون مشتق من كلمة « القمر » .. فقد لاحظ العلماء أن القمر عندما يكتمل شكله ويصبح بدرا ، فإن هذا البدر يصيب الناس بالجنون .. المرأة خصوصا .. وأن الذئاب تعوى والكلاب .. وفى أساطير القدماء أن الذئب يعوى ويتطاول حتى يكون على مستوى النخيل ويهدد الناس بالموت والخراب .. ولا يزال الناس يتشاءمون إذا رأوا الكلاب تلوى أعناقها وتعوى . وفى الريف نقول :أن الكلب رأى عفريتا .. أو أنه رأى روحا تخرج من جسد أحد وتعود إليه .. أو أنه سمع وقع خطوات الموت .. وأن الموت ينزل من القمر متعلقا بخيوطه الفضية الشاحبة ..

وفى الأساطير الأسيوية أن الفتيات ينمن عاريات فى ضوء القمر ، لكى تكبر نهودهن ويكون شعرهن حريرا ..

وقد ذكرت الباحثة مرجريت ميد أن العذراء فى جزر المحيط الهادى تنزل البحر فى ضوء البدر .. فالبدر وحده هو قادر على أن يلف العود والنهدين والردفين .. ثم تتمدد على الشاطىء ليكون البدر أول من يدخل بها !

وفى كوريا يقدسون نبات « الجنزينج » .. ويرون أن هذا النبات قادر على كل شىء . فهذا النبات يزرعونه فى ضوء القمر .. ويقطفون زهراته فى ضوء البدر .. فهو ابن القمر وخليفته على الأرض وفى كل جسم وكل قلب ..

ويرى أبناء أندونيسيا أن البقرة التى تحمل فى ضوء القمر تلد أجمل الأبقار .. وكذلك المرأة فإنها تلد الذكور .. أو التوائم ..

وقد عرف السحرة الهنود أن « العملات » بفتح الميم إذا وضعوها فى ليالى البدر كان مفعولا أكيدا ، بشرط أن تكون من أجل مزيد من الحب ، أو من أجل الكيد للمحبين .. فالقمر هو رسول الحب ومبعوث الحقد أيضا .

وظل القمر فى كل الأساطير القديمة ذلك الأمير الجميل الذى يرضى عن الناس